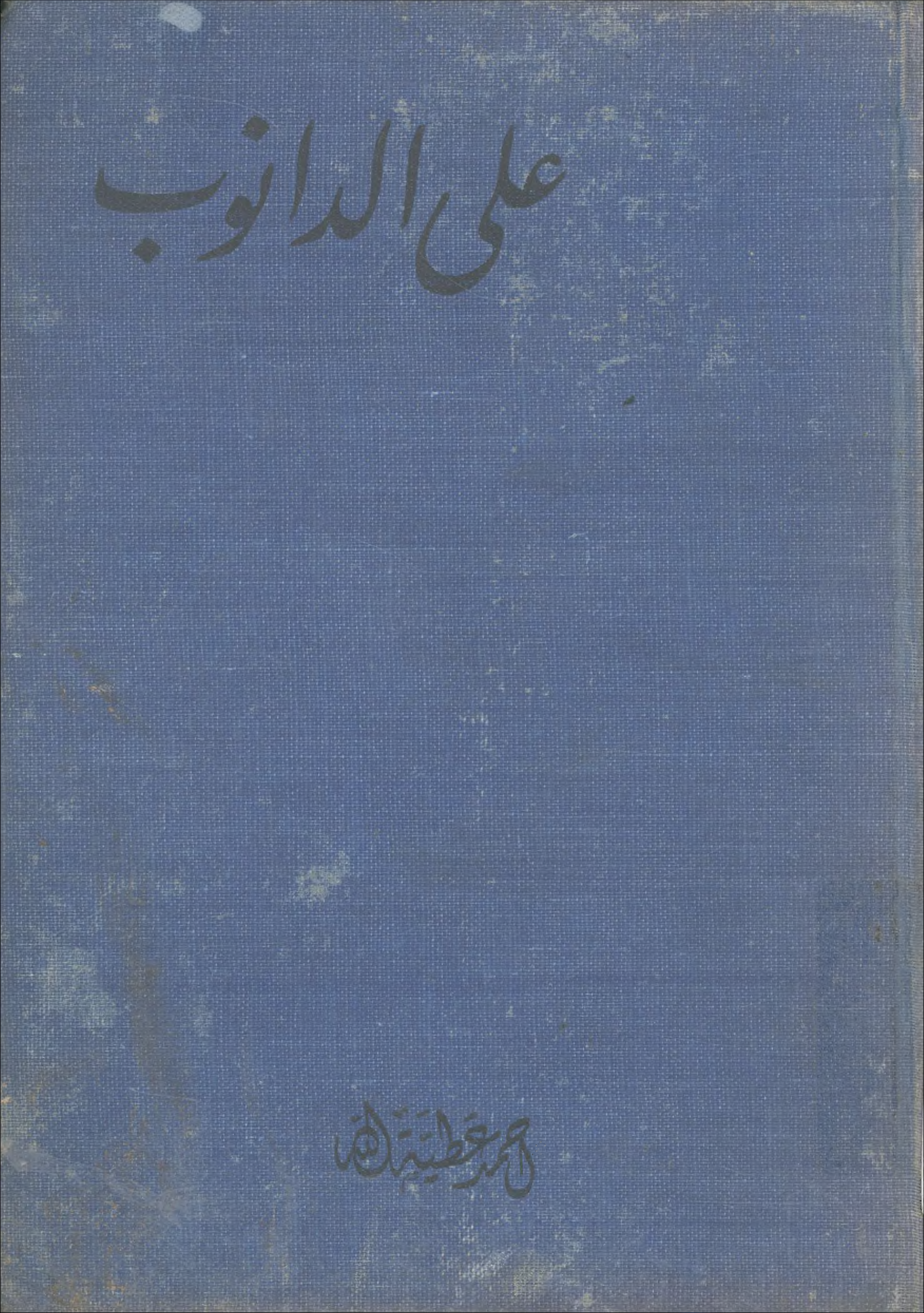

على الدانوب
أحمد عطية الله





بقلم

أحمد عطية الله

مؤلف يوم في أوروبا ، لندن ، برلين الخ

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية شارع قصر النيل بمصر

مطبعة الاعتماد



إلى الصديق

ع . ص .

يهدى المؤلف هذا الكتاب

رمز اخلاص ووفاء

الطبعة الأولى — يونية سنة ١٩٣٩

كلمة المؤلف

فى خلال سبع سنين طرقت بلاد الدانواب أكثر من مرة واحدة ؛ طويتها بالقطار كما عبرتهـا على مياه هذا النهر ، من البحر الأسود إلى جبال الإلب ، ومن هذه إلى ذاك .

وليس من نهر فى الدنيا يجمع أممـاً وشعوباً تتباين لغة وثقافة وتاريخاً ومدنية ، كما تختلف هذه الشعوب النازلة على ضفاف الدانوب ، فـكنت فى كل رحلة أكشف جديداً وأميط سراً .

فهذا الـكتاب دراسة اجتماعية لشعوب الدانوب ، دراسة تاريخية لبلاده ، ودراسة جغرافية لمجراه .

وهى بعد كل هذا دراسة شخصية ، اعتمد فيها المؤلف على تحقيقاته وعلى بصره وذاكرته ، ولـكنه مع ذلك وجد أن هـذه التحقيقات الفردية عاجزة عن تقصى الحقيقة كاملة فاستعان بالمراجع وكتب التاريخ ومشاهدات غيره من السائحين على هذا النهر ، حتى لا يكون فى دراسته موضع للنقد والتفنيد .

وفضلا عن ذلك ، فان المؤلف عنى عناية خاصة بتصوير

حياة الشعوب الاسلامية . فعمل فى سياحاته على ربط أواصر الصداقة بكثير من الشخصيات الاسلامية فى تلك البلاد حتى تكون هذه الصورة التى يرسمها لها صادقة معبرة .

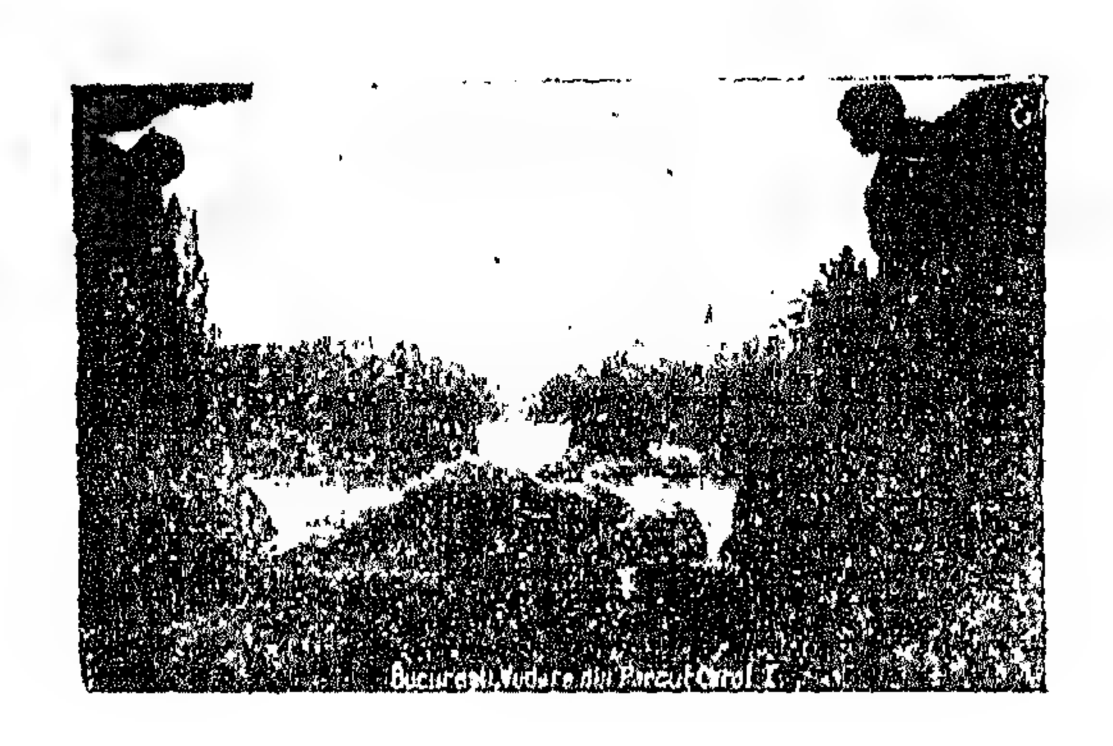
وكان المؤلف قد اعتزم على أن يكون لـ « فينا » موضعا فى هذا الكتاب ، فلما بلغ الكتاب هذا القدر وجد أن إضافة مئتى صحيفة أخرى لايتناسب والذوق السليم ، عدا أن لهذه المدينة من الشخصية الفريدة الممتازة ، مايجعل ابرازها فى صورة مستقلة أوفى بالغرض وأقرب إلى الصواب .

ع . ا

أجزاء الـكتاب

—

على الدانوب فى


Bucureşti. Vedere din Parcul Carol I.

كأنى خرجت من سوق داوية . .

سوق اختلفت اليها شعوب الأرض قاطبة ، واختلطت فيها لهجات الدنيا بأسرها منذ أن عرف الانسان كيف يستعمل لسانه..

هكذا شعرت عند ما طويت آخر رحلة من مراحل الدانوب وخلفت ورائى البلقان بضجيجها المزعج ونزاعها المستمر .

انه لعجيب أمر هذا النهر الساكن الهادىء ، كيف اجتمع على ضفافه القريبة والبعيدة هذا العالم من الشعوب ، التى لا تجمع بينها صلة الا صلة المكان !

يا للسخرية العجيبة كيف اجتمعت هذه الشعوب المتنافرة لتستقى من معين واحد، هو هذا الماء الأبيض الكالح ماء الدانوب ؟

وقفت متكئا على حاجز الباخرة وأنا أنظر إلى شاطىء البلقان يختفى ، فأحسست كأنى خلفت ورائى سوقا مائجة على الشاطىء اشتد فيها نزاع البائعين والشارين والمتفرجين ، وانقلب فيها

الجدل إلى صراع هائل كاد يقضى على السوق نفسها .

انه ليس غريبا أن ينظر الناس كلما استعرت حرب من الحروب إلى هذا الركن من الأرض ، إلى البلقان و إلى شواطىء الدانوب ، ليبحثوا عن الشرارة الأولى وعن رأس الثقاب المحترق !!

ولو أن هذه الحروب لا تضطرم إلا الفينة بعد الفينة ولا يدرى بخبرها العالم حتى يحترق بنارها ، بيد أن الحرب قائمة أبدا فى هذا المكان .

انها حرب بين الشعوب والجنسيات ، بين اللغات واللهجات بين التقاليد وأساليب الحياة ، بين الديانات والخرافات ؛ وهل هنالك أقسى حظا ممن كتب لهم أن يكونوا فى مثل هذا الميدان ؟ ولكن العجيب أن كل واحد من هؤلاء يشعر وكأنما الحرب والنضال والصراع فريضة من الفرائض ، لا يعيش إلا لها ولا يحيى إلا بها ...

كلما نشبت حرب كلما ولدت معاهدة جديدة ،

كلما سُجلت معاهدة كلما ولدت نزاعا جديدا ،

وكلما اشتد نزاع كلما قدح زناد حرب جديدة ،

وهذا السياسى الذى يضع أمامه خريطة الدانوب والبلقان ،

ما أسلم طويته وهو يقيم الفواصل بين هذه الشعوب بقلمه الأحمر راجياً أن يسكت وجيب القلوب الثائرة ؟ ولكنه يجهل أن لكل شعب من هذه الشعوب قضية أقدم من الأزل نفسه ، وأن كل شعب من هذه الشعوب كالخلية ينقسم على نفسه إلى قبائل ، وان لكل قبيلة قضية قديمة ، وهذه القبائل تنقسم إلى بطون ولكل بطن قضية قديمة ، وهذه البطون إلى عائلات ، ولكل عائلة قضية وهكذا إلى ما لا نهاية ...

وهكذا نصبت هذه السوق الداوية خيامها فى البلقان ، نصبتها إلى الأبد ، وسوف يسمع أحفادنا وأحفاد أحفادنا أصوات هؤلاء المتنازعين كما سمعها جدودنا وآباؤهم .

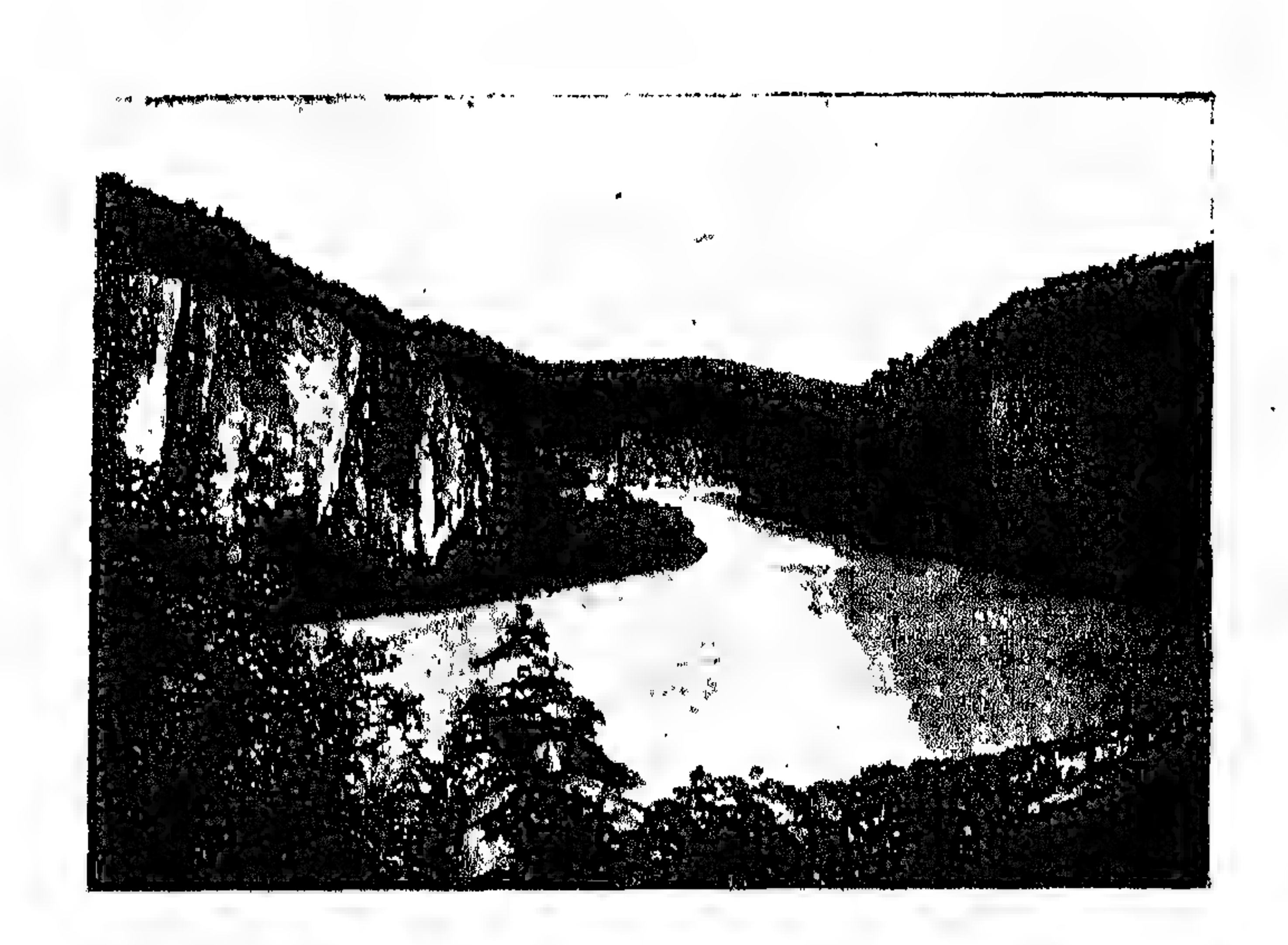
ثم إن هذه الفواصل التى بناها الساسة بين هذه الشعوب فواصل من الورق المقوى ، وقد تعلم الناس فى البلقان أن يجوروا عليها ويهدموها فتستحيل الغرفة إلى قاعة مرة وإلى دهليز ضيق مرة أخرى ، وتعلم الناس كذلك أن يصبحوا صربا ، ويضحوا تركا ويمسوا مجرا ، ويبيتوا بلغارا ، ويستيقظوا ليجدوا أنهم فى الحقيقة لا هذا ولا ذاك ، بل رومانيين أو روسا أو بولنديين ..

فكأن الجنسيات والقوميات على الدانوب وظيفة من الوظائف

يتنقل فيهـا الموظف المسكين من عمل إلى عمل .

هكذا يعيش الناس على الدانوب

وهكذا يسرى الدانوب بأعصابه وشرايينه بينهم، يسرى هادئا ساكنا لا يكاد يحس بما يجرى على ضفافه وشعوبه ، كأنه شيخ عجوز مل النزاع وسأم الجدل ولم تعد تبطره متعة من متع الدنيـا الفانية ...



١ — خاتمة نهر

البحر الأسود ، أبيض كاللبن ..

ساكن راكد كأنه صحراء واسعة جرداء لا يثيره عاصف ، ولا تهزه موجة ولا تداعبه نسمة ، ولا ينعكس عليه شراع مركب سابح .. ورمال الشاطىء المرطوبة لا تكاد تفصل ما بين الماء واليابس ، تساورها مياه البحر المالحة وتكتنفها مياه الدانوب الكالحة ، حيث ترمى بحملها من الجير فى قلب البحر سنة بعد سنة وعاما بعد عام لتكتسب حقا جديدا ، فتمتد هذه الألسنة من الرمال اللينة فترا فترا وشبرا شبرا ، وهى قانعة بهذا الكسب الضئيل .

تقف عند سنت جورج أوعند سولينا أو فالكو، حيث تنتهى رحلة مياه الدانوب الطويلة بعد أن قطعت نيفا وألفين من الأميال ، تقف عند هذه القرى الصغيرة الفقيرة حيث يودع الدانوب اسمه ويرمى بنفسه فى البحر ، تقف لتترحم على هذا النهر العجيب الذى انتهت حياته إلى هذه النهاية المحزنة ، تترحم على هذا النهر الذى ولد فى ألمانيا العظيمة، ودرج فى النمسا ذات الحضارة العتيدة ، وسلخ شبابه فى المجر الراقصة ، وكتب له الحرب والنضال عند ما بلغ

مبلغ الرجال فى بلاد البلقان من صرب و بلغـار فخرج من كل هذا ظافرا .

حتى إذا ما استقبل شيخوخته نساه أهله وأصحابه وأحبابه وتركوا هذا الشيخ منبوذاً مطروداً ؛ فراح يدب دبيب الشيوخ فى رومانيا ، وراح يتلمس الرزق الـكفاف فى دوبرجا الممحلة القاحلة حتى إذا مل السؤال ودلف برجليه الوئدتين إلى جارته روسيا وقف على بابها مؤملا راجيا

وهناك على باب هذه الجارة التى كأنها شغلت بنفسها وشيوخها اختلط الامر على هذا الشيخ المنكود ، فلم يعرف طريقا يسلكه . فتراه وكأنما أقعده الـكبر من الحركة قد جثم فى هذه الدلتا الواسعة الراكدة ، ثم تراه وقد عاودته ذكريات قديمـة ينشط من جديد ولـكنه نشاط مفتعل فيرتج عليه الأمر فيسلك كل طريق إلى البحر ، فيتشعب و ينقسم على نفسه و يدور و يلف و يأخذ كل طريق إلى الماء ولـكنه لايجد أمامه إلا نهاية واحدة ، نهاية واحدة محزنة هى البحر .

نعم هى البحر الأسود ، فيلقى بنفسه وحمله فيـه ، ولـكنه ككل شيخ مهجور منبوذ لا يحس بنهايته أحد ، ولايودعه أحد

فهؤلاء الصيادون الفقراء في سولينـــا ، أو سنت جورج أو فالكو قد شغلتهم حاجات الحياة الخسيسة عن الوقوف لوداع هذا الشيخ أو لغرس زهرة واحدة على قبره وهو بالنسبة إليهم الجد والعم والخال في هذا الركن المنكور من الدنيا.

وأين هذه الزهرة التي تينع على رمال البحر الأسود لوداع النهر العتيق، والناس في هذا المكان تبحث عن الرزق مما يلفظه البحر أو ما ينبت خطأ بين حشائش الدلتا الوحشية .

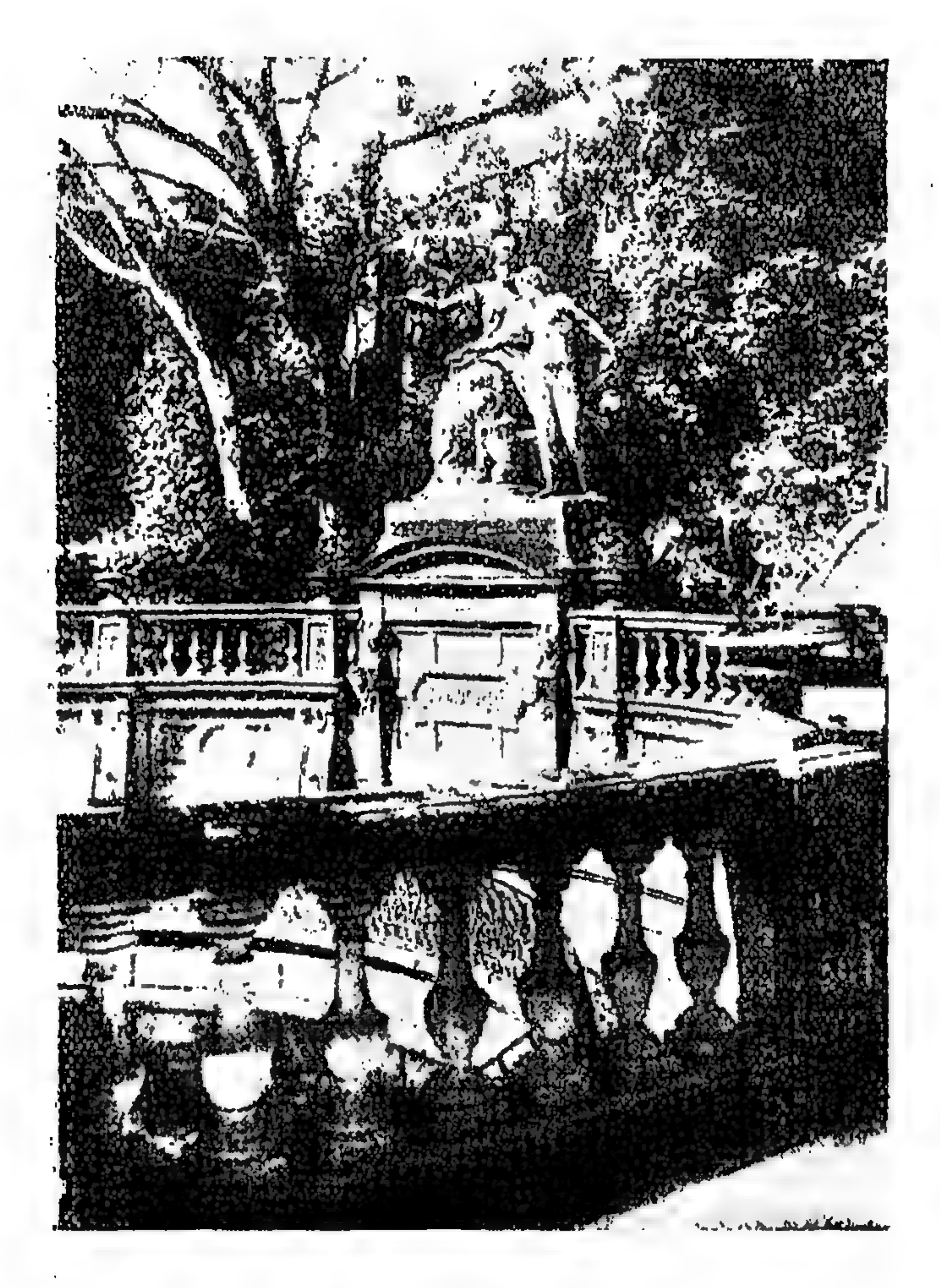
إن هذا النهر الذي مر في طريقه بأعرق حضارات الدنيا وأفخر المدائن فينا و بودابست ، والذي شق طريقه في وادي التيرول الجميل ، ونحت مجراه قسرا في صخور البوابة الحديدية ، هذا النهر الذي خط التاريخ على كل شبر من شاطئيه صحيفة طويلة من أخبار النصر والهزيمة انتهى به المطاف إلى هذه الدلتا الموحشة الجرداء بمياهها الراكدة كالبرك وجروفها التي تتنازعها الأرض ويطلبها الماء.

ومن هذه البرية الجرداء بدأت المسير إلى فينا أتصورها فى وحدة المكان وخلوه كالبيت الحرام تلمع أنواره من بعيد فى الصحراء لعيون الحجيج المتعبة .

وليس أروع من أن تحج على الدانوب من هذه البرية المقفرة. إلى فينا مهد الحضارة الأوروبية الوسطى ، حتى إذا انتهت رحلتك كما انتهت رحلتى ، أحسست وكأنك عشت فى الدنيا منذ أن خلقت الدنيا ، فاستقبلت حضارات الناس حضارة حضارة منذ أن كان يعيشون فى أكواخ الطين ومظلات الخشب كما يعيش الناس فى هذه الدلتا ، ثم تسير لترى كيف بلغت هذه الحضارة الانسانية زخرفها وازينت فى طرقات « الرنج » فى فينا الخالدة . .

فبينما يسير الدانوب تحتك إلى فنائه المحقق ، تتقدم أنت خطوة جديدة إلى النور .

وفى كل خطوة تذرعها مركبك على مائه ، تحس بأن هذا النهر يستقبلك من جديد ويحييك من جديد ، فلا تشعر بما يشعر به الضيف الذى طالت زيارته ، وضاق بضيافته أهل البيت



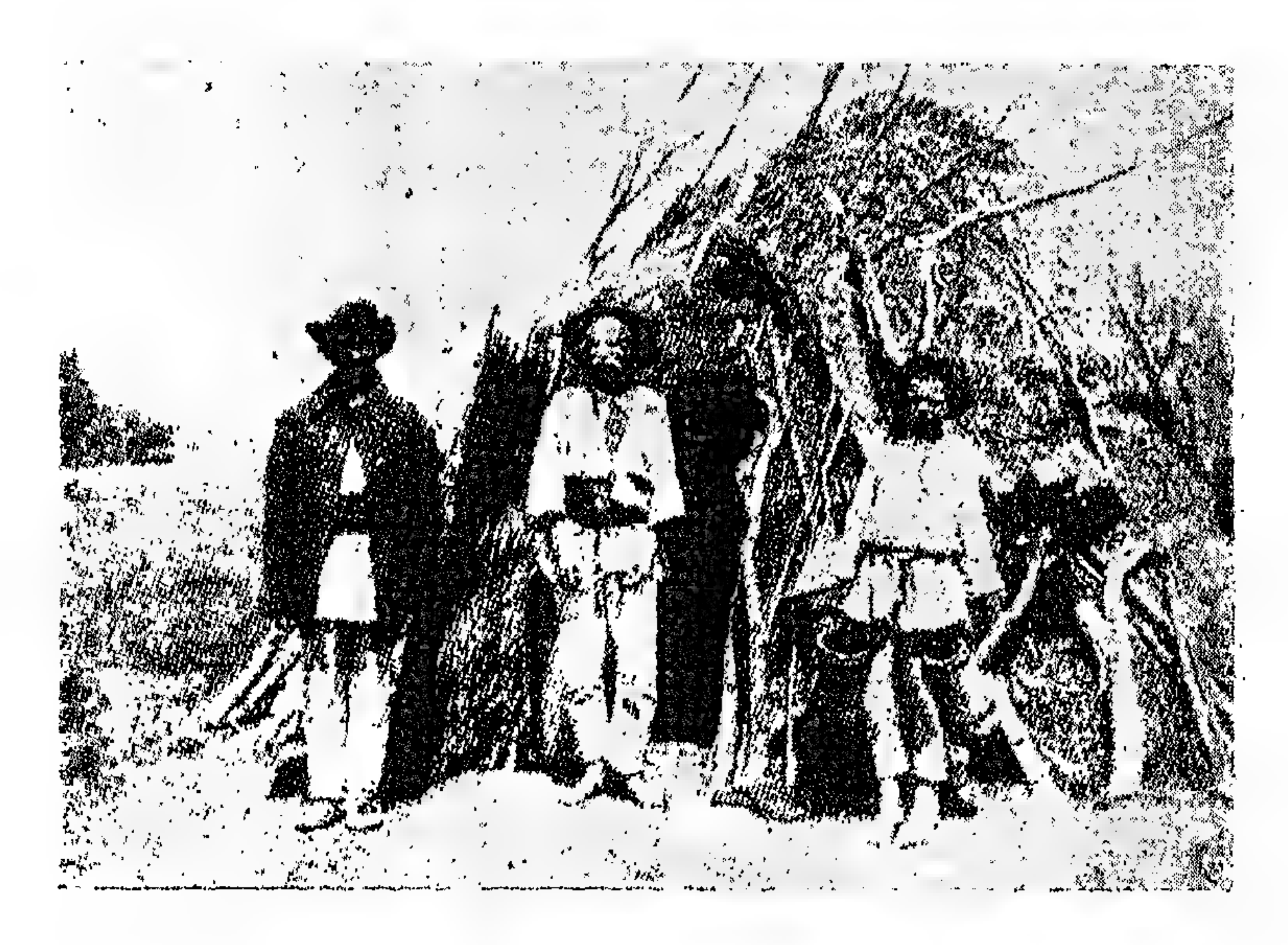
هنا يتفجر الدانوب . .

لستَ تعرف أى طريق تسلك فى هذه البرية الواسعة إلى جالاتز عند رأس الدلتا ، اذ انقسمت فروعا وشعابا ثم إذا بها تعود لتتجمع ثم تنقسم من جديد حتى لاتكاد العين تميز مجرى معينا .

وإذا ما جاءت أيام الفيضان طغت المياه الدافقة وغطت ما بين هذه الجداول والفروع فأحالت الدلتا إلى بحيرة استوائية هائلة تمتد مياهها أميالا حتى الأفق البعيد ، وبرزت فى اللجة جروف تعلقت بها الشجيرات والحشائش خوفا من الغرق فبدت فى المساء منظراً فاتنا وقد انعكست على المياه الراكدة ، وكأنها جزائر المحيط الجنوبى .

وتزيد فتنة هذه الأحراش البرية والبرك الفسيحة أسراب لاتحصى من الطير ، وأنواع لاتحصى من هذه الأسراب، لا أعرف أسماءها إلا بالوصف والتشبيه وأنا لا أعرف من الطير إلا ما يعرفه الناس جميعا من الأوز والغربان والعصافير وليست هذه الدلتا بالمكان الذى يضيق إلا بهذه الأسراب المعروفة من الطير ، بل إنها بأحراشها ومياهها وسكونها قد أصبحت شركا لكل طير عابر

وأصبحت هذه البرية مرتعا للصيادين ، لا يحتاج صاحب البندقية فيها إلى مهارة فى التسديد أو دقة فى الاصابة ، لأن الخير باسط أكفه يجيب نداء كل صياد ، ولعل صياد بوخارست لم



اكواخ على الدانوب

يتغال حين مج حمل بندقيته ذات الطلقة أو الطلقتين فحمل معه مدفعا سريع الطلقات يصطاد به الآلاف من هذه الطيور المرفرة على مياه الدلتا والجاثمة بين حشائشها .

• • •

ولكن هذه النسور التى تحوم فوقنا فى هذه البرية لا تجعل

من فضاء هذه الدلتا جنــة هانئة بطيورها وعصافيرها ، إذ هى
لاتعيش حربا على أبناء أعمامها وخالاتها من ساكنات الجو بل هى
جحيم على أهل الأرض ، تراها تنحدر على رءوس القطعان الراعية
كما ترفرف على السائر المنفرد تنتظر الفرصة وترقب الظروف المواتية !

وهى كقطاع الطرق ترقب فريستها من الجو ، وقطاع الطرق
أنفسهم لهم شهرة الصقور فى هذه البرية ، ولهم أقاصيص يحكيها
عنهم أهل رومانيـــا و يفزعون بها الغرباء إذا زينت لهم الطبيعة
الوادعة أن يضربوا فى أنحاء هذه البرارى .

ونبغ من هؤلاء السادة كثيرون — كما ينبغ فى مختلف المهن
وشتى الصنائع — وأصبحوا عنوان الفزع فى تلك البقاع ، يتفننون
فى طرق القضاء على فرائسهم ، وقد تخصصوا فيها كرجال العلم ،
واشتهر منهم من اختص بطبقة الجند يتصيد الواحد منهم أفرادها
ببندقيته وهو هادىء وادع بين هذه الحشائش .

وكثيرون من هؤلاء يحملون اللقب الخالد الذى منحته أمريكا
لهذه الطائفة من الاخصائيين — لقب عدو الشعب ذو الرقم الأول
والثانى والثالث ، بيد أنهم يفترقون عن قرنائهم الأمريكيين فى
أنهم يمارسون صناعتهم فى الهواء الطلق بين الخضرة والماء ، كما أنهم

لا يعرفون حياة الكهوف التي يعيشها زملاؤهم الأيطاليون ذوو التاريخ التليد فى هذا الفن من أهل كورسيكا !

• • •

وليست هذه الدنيا الواسعة من الأحراش والجداول خالية كما يظن قارىء إلا من أصحاب البنادق المصوبة ، لأن قاطع الطريق يتطلب أن يكون حوله من يقطع عليه الطريق وإلا بارت تجارته ، وهذا لا يرضاه من يحافظ على تقاليد المهن الانسانية القديمة ، وقطع الطرق من أقدم هذه المهن .

فبين مرحلة وأخرى تمر على قرية معزولة فى هذه البرية ، إذا تبرعت ودعوت صفا من الأكواخ الطينية المثبتة بالفروع والقش قرية ! وقد نصبت هذه الأكواخ على نشز من الأرض حتى لا تطفو إذا فاض النهر .

وأمام هذه الاكواخ جثمت بعض القوارب كأنها الجوندولا فى القنال الأعظم أو قوارب الهنود الحمر فى جداول أمريكا الشمالية بأطرافها المعكوفة المقوسة .

وكما أن الله قد بارك فى طيور السماء ، فانه سبحانه وتعالى بسط رحمته على ساكنى الماء

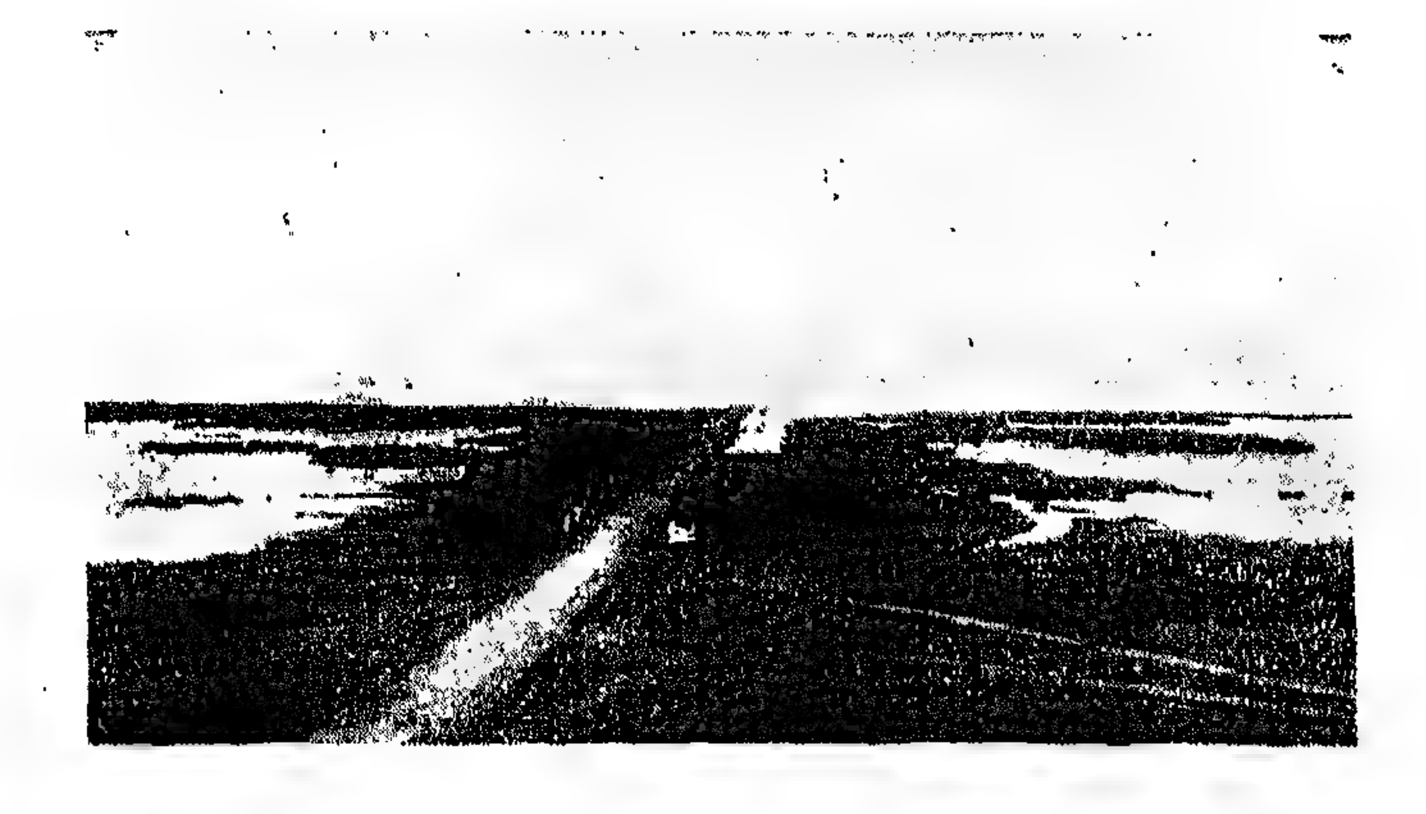
وان الدانوب الذى يعيش على ضفتيه عشرون شعبا يعيش فى جوف مائة فصيلة من السمك ، تتوزع بين قيعانه كما تتوزع شعوبه على ضفافه! وهى كشعوبه خليط من كل نوع ، أسماك بهلوانية صغيرة وأسماك متوحشة مفترسة تعتدى على ساكنى المــاء وساكنى الأرض إذا وجدت الفرصة .

وفى أفخر أحياء فينا شــارع أنيق ما زالوا يطلقون عليه اسم شارع سوق السمك ، لا ترى فيه اليوم أثرا لحلقة من حلقات السمك ، ولا تفوح فيه رائحته طازجا أو مقليا ، بل انه على العكس من ذلك معرض للازياء ومتاجر الفن الحديثة .

ولـكنه بقية من بقــايا عصر مضى ، حين كانت للسمك شهرته وخطورته فى هذه العاصمة . تقام له الأعياد كما تقام الآن أعياد النبيذ ، ومهرجانات الزهور . ولـكنه وان نصب معينه فى أعلى الدانوب إلا أنه ما زال وفيرا حيث تترامى الأميال الواسعة من المستنقعات والجداول القائمة عند هذه الدلتا .

وفى هذه الأنحاء يستحب أكل السمك فى كل موسم ، وفى كل يوم من كل موسم ، لأنه لايشترط على صائده مهارة أو حذقا ، بل قد يـكفيه الصفير ليرفع السمك رأسه من الماء ويجيب النداء !!

وكما أجهل أسماء الطيور ، فانني لا أفرق بين أنواع الأسماك إلا بالحجم والوزن ، فأنت على الدانوب تأكل كل حجم من ألوان السمك ، من الدقيق الذى لا يعدو حجم الجرادة — لا سيما



برارى الدلتا . .

إذا شويت الآلاف منه وكومت أكواما — إلى تلك العجول التى تقطّع كما تقطّع العجول وتقدم مسلوقة ومقلية ومشوية ومطبوخة بالصلصاء والفلفل والبصل .

وهذه المخلوقات الضخمة فى هذه البرية لا تتورع أن تفترس أرنبا أو ثعلبا ، وقيل وعهدة الرواية على صاحبها أنهـا افترست مرة طفلا ، وقد وجد ضحيتها فى جوفها .

ومع أن أسماك الدانوب مصـدر نعمة فائضة على أهله بيد انه

لا يعدم من يتشاءم من طلعة بعض ألوانها ، فقد قيل إن فصيلة من الفصائل لا تظهر على مياه الدانوب إلا وتجلب وراءها المجاعة والقحط والخراب ، فهى لذلك لا تظهر إلا كل سبع سنين أو نحوها .

سمك الكافيار

والاستروجان يمثل الطبقة الارستقراطية بين أسماك الدانوب ! . وأن سمكا يحمل فى جوفه الكافيار لجدير أن يتيه على طوائف الأسماك جميعها بارستقراطية عتيدة وأصل عريق .

وفى هذه البرية المنقطعة من الدانوب تتجمع أسراب سمك الاستروجان ، و بسبب الاستروجان عرف هؤلاء الصيادون المعدمون فى الدلتا نوعا من رفاهية الغنى ، يجمعونه بشباكهم وحبالهم و يقدمونه إلى معامل أقامتها الحكومة لتنظيم صناعته وتجارته و ينقدون عليه أجرا ما كانوا يحلمون به لولا مايحمله الاستروجان فى جوفه ، مما أراد بعض الناس أن يعتبره لونا فاخرا ممتازا من ألوان الطعام ، ولولا هذا البعض لبقى الاستروجان من عامة السمك ، ولما كان شكسبير يتهم أذواق الناس فى تمجيد الكافيار كمتعة شهية غالية .

و إذا نزلت ضيفا على صيادى الاستروجان من قبائل الروس

الذين يعيشون على مياه هذه الدلتا و ينصبون شباكهم على ضفاف البحر الأسود ، إذا نزلت ضيفا على هذه الجماعة العجيبة من الروس بوجوههم الحمراء التى لفحتها الرياح وبذقونهم المسترسلة التى تستعيد



تولجا ، مثال لمدن دلتا الدانوب

إلى الذاكرة صورة راسبوتين، فان الكافيار الأسود الطازج يقدم اليك ، حتى تفقد شهيتك ويجعلك تنسى مايدفع من جنيهات ثمنا لمثل هذا الطبق فى مطاعم لندن أو باريس

وأين مطاعم سوهو من هذه الأكواخ الخشبية التى تفوح فيها رائحة السمك النيىء ، وقد مدت على مناضدها الخشبية أسماك الاستروجان الضخمة تستأصل منها الأكياس التى تحوى الكافيار الثمين !

حتى إذا كان ذلك دعكت فى الغرابيل التى تتجمع فيها هذه الحبيبات ، ثم تغسل وتملح وتحفظ فى علب الصفيح لتأخذ طريقها إلى فينا وبرلين ، وتشهد الحفلات الراقصة الساهرة التى يسمع بها الليبوفان كما يسمعون على أبرع الخرافات الجميلة .

اسمعيل

وفى وسط هذه البرارى الفسيحة من الرمال والمياه تجثم اسمعيل، ميناء صغيرة على إحدى ضفاف الدلتا الشمالية .

وأجمل ما فيها هو اسمها ، اسم يذكر السائح الشرقى بالمدى الذى بلغته الفتوحات التركية فى هذه البلاد ، او على الأصح المدى الذى بلغه الاسلام فى روسيا .

وان كانت اسمعيل مدينة روسية النشأة ، تركية التراث إلا أنها مدينة تجمع كل صنوف الجنسيات ، فعلى مينائها الحقير تتلاقى مراكب جابت المحيط الهندى والبحر الأحمر وسواحل الغرب، وعلى رصيفها الصغير تسمع لغات الأرض طرا مختلطة مشتبكة حتى أضاعت كل لغة لهجتها وأصبحت أيسر فهما على الاجانب من أهلها وأبنائها .

وفى هذا الجمع الحافل من الروس والترك واليهود واليونان والأرمن لا تكاد تحس بأنك فى رومانيا الا إذا ساقتك رجلاك إلى مخفر البوليس .

واسمعيل ككل قرية كبيرة فى هذا الركن من الدانوب لا تخلو من آثار قلعة تركية مهدمة وكنيسة روسية قديمة ، وأكواخ مهجورة لا يعنى بها مؤرخ أو باحث لتفاهتها .

مدينة الأغوات

ثم تقطع مرحلة أخرى بين البرك والجداول لتصل إلى أكبر ميناء نهرى على الدانوب — جالاتز .

وفى جالاتز نواحى من الطرافة لا شك فيها ، فهى كاسمعيل ملتقى لجميع الجنسيات واللهجات ، تلتقى على رصيفها قوارب الصيد ومراكب الخشب الضخمة والغلال التى تسمع عليهـا الصينية كما تسمع الأسـبانية والانجليزية والتى تقطع آلاف الأميال إلى أمريكا وإلى اليابان من هذا الركن المجهول من الارض .

وجالاتز بأزقتها الضيقة و بدروبهـا المنحدرة الملتوية و بيوتهـا القديمة ، تذكر السائح بأن لها فى محفوظات التواريخ صحيفة مهملة

لا يعرفها إلا أهلها تنحدر من أيام الرومان وعهود آل عثمان الذين حبوها بكل ما تجبي به مدينة تجارية رابحة تصل ما بين البلقان وروسيا وما بين الدانوب وما وراء البحار

ولكن ليست طرافة جالاتز في انها مدينـة الخشب والحبوب والمخازن والمراكب ، بل لأنها مدينة الاغوات !

كنت عند ما أشاهد سائقى عربات الخيل فى كونستنزا وفى بوخارست وقد اتزروا بجلاليب فضفاضة من المخمل الأسود الزاهى وتمنطقوا بأحزمة الجلد العريضه اللامعة ، وقد أحنوا رءوسهم فى سكون وأدب جم لا يرفعون عقيرتهم بالنداء والشتائم كما يفعل أبناء مهنتهم فى كل ركن من أركان العالم ، كلما أمر على صفوف هؤلاء السائقين كنت أسرع إلى مذكرتى الصغيرة لأدون هذه الظـاهرة الباهرة ، أن فى رومانيا قد صلح والحمد لله حال سائقى العربات فعرفوا الذوق فى الملبس ورعاية الأدب فى الحديث !

ولـكنك بعد أن تزور جالاتز تقع يداك على السر ؟ وتكتشف أن هذا التآلف بين سائقى العربات فى رومانيا لم تفرضه تقاليـد المهنة ، بل إن طائفة من الطوائف بتقاليدها القديمة رأت أن تعتنق قيـادة العربات فدخلت فى هذه المهنة أفواجا ، وورثتها أبناءها

وأحفادها وجعلت لقيادة العربات في رومانيا تقاليد ليس الذوق أو النظام هو العامل في خلقها وتثبيتها

هؤلاء هم طائفة الليبوفان كما يدعون في رومانيا ، أو طائفة الاسكوبي كما يعرفهم أهل روسيا ، أو طائفة الاغوات كما يجب أن نعرفهم .

ولهؤلاء الليبوفان قصة :

منذ خمسين ومائة سنة كان في بعض قرى روسيا فلاح اسمه افانوف رأى فيما رأى أن يعمل المشرط في خصى أتباعه ومريديه من رجال ونساء ، وكان لمساعده سيليفانوف فضل في نشر هذا المذهب العجيب بعد أن ثبت الاعتقاد بين أتباعه بأنه المسيح.

ولكن سرعان ما ثار الناس على هذه البدعة ورموها بكل نقيصة ومثلبة، بل إنها دعتهم إلى الانتقام من أتباعها انتقاما فيه كل ما حمله النـــاس لهؤلاء المتدينين من موجدة وغل كأنهم أعداء الانسانية الصميمة الألداء ! فكان يجبرون الليبوفان من الرجال على لبس ملابس النساء و يرجمونهم في الشوارع والطرقات .

وهكذا لم يطب لليبوفان عيش في روسيا فنزحوا الى الدانوب وهبطوا أول بلد فيه ، فاستقبلتهم جالاتز الناشئة مرحبة ، فلم يجدوا

من بين سبل العيش فى هذه المدينة إلا أن يشتغلوا بقيادة العربات حتى إذا دانت لهم أزمتها راحوا يبعثون بأبناء طائفتهم جنوبا ليرتزقوا من هذا السبيل ويحرمونه على غيرهم .

وفى حفل دينى ترتفع فيه الدعوات والصلوات كما يرتفع فيه البخور يتجرد هؤلاء الليبوفان عن صفة الرجولة الغالبة بعد أن يرزق الواحد منهم بولد يخلد جنسه ، وهكذا كان يفعل بالمرأة لتطهر من نزعات الانسانية !

وفات هؤلاء أن الطهارة روحية ، وأن المشرط وحده ليس كفيلا بأن يدفن آثار الحيوانية من النفوس، ولعل الليبوفان قدروا هذا الرأى فلم يعد أحفادهم اليوم يجعلون السكين صكا لهذه الطهارة بل اكتفى الآن أكثرهم بالوعود و إقامة الاقسام والايمان ، و إقامة حفلاتهم الدينية الحزينة الصامتة يبتهلون فيه أمام ايقونة لسليفانوف

وتلمح فى وجوه الليبوفان آثار الحزن العميق المدفون ، ولست أدرى أهو حزن على الانسانية أو حزن على أنفسهم ؟ ولعله حزن غير مقصود إذ ان الحياة الجديدة التى يعيشونها قد أثرت على ملامح الوجوه فبهتت العيون وتدلى الفك وضعفت منابت الشعر ، وان لم تنعدم الشوارب والذقون كأبناء طائفتهم فى الشرق ، إذ أنهم

لا ينزعون إلى حياة الطهارة المزعومة إلا فى سن الرجولة وبعد أن يرزقوا بنسل جديد . وأصواتهم — لهذا السبب نفسه — لا ترن كما ترن أصوات الأطفال بل لا تكاد تميزها عن غيرها .

وفى احدى كنائس جالاتز جعلت أفكر فى أمر هذه الطهارة ومن يؤمنون بها ومن يكفرون بها فيعيشون الحياة كما أرادت طبيعتهم قوية صارمة

وقفت أمام قصة مازبا المصورة على جدران كنيسة سنت مارى فى جالانز ، قصة الصبى البولونى الذى أحب سيدة من الأشراف فكان جزاؤه أن يربط عاريا على ظهر فرس تسير إلى غير وجه فى البرارى

ثم ترى هذا الصبى وقد احتضنته بعض قبائل القوازق ، وتراه وقد تزعم أمرهم وزاع صيته ، وقربه قيصر روسيا العظيم بطرس الأكبر .

ثم يرى مازبا أن يخون قيصره ليستقل ببلده ويتملك عليهم ، فترى بطرس وقد انتقم من القوازق جميعهم بحرق عاصمتهم . وهكذا تخون مازبا الآلهة ويتخلى عنه الحظ الباسم فيهرب إلى سلطان تركيا عدو الاسكندر فيجيره ، وهكذا يبدأ مازبا حياة التشرد من

جديد ليموت مختفيا مجهولا فى كييف . . . انها لا شك حياة طريفة تمثل جموح الشباب وطموح الرجولة !

فهـل درى ليبوفان جالاتز بقصة مازبا المصورة فى كنيسة سان مارى ، حتى جعلتهم أشد رغبـة إلى الانـكماش والحيطة فى حياتهم بدلا من عيشة المغامرة ؟

هذا نوع الطرافة فى جالاتز ، أبلغ أثرا من مراكبهـا المحملة ومخازنها العامرة .

برايلا

بعد ساعتين أو أقل تسير مع الدانوب إلى برايلا مخزن آخر من مخازن الغلال فى رومانيا ، بل لعل برايلا أكبر هذه المخازن ، لهذا كان خيرا أن تقرأ عنها فى كتب الجغرافيا من كتب السياحة .

وفى وسط مئات الأميال من السهول الواطئـة والأوحال . تقف برايلا على نشذ لك أن تدعوه جبلا فى وسط هذه البرارى . وعلى رأس الدلتا تستقبل برايلا سفن المحيـط على أرصفتها العديدة التى ترسل منها غلال الدانوب وتستقبل عليهـا الفحم ومطالب الصناعة .

وبعد هذا الوصف الجغرافى لك أن ترى فى برايلا طائفتين ، ترى من يعنيهم أن تكون برايلا على تل تشرف على تلك البرارى من كل مكان، وترى فيها من يعنيهم أن تصدر الغلال وأن يستورد الفحم .

نعم إنك ترى فى برايلا رجال الحرب ورجال المال أما رجال المال فى برايلا فهم اليهود واليونان .



اتراك دوبرجا

أما آثار الحرب فتتلمسها بين خرائب القلعة التركية . نعم إن برايلا التى تأثرت فى ذوقها فى هذا القرن بأساليب الهندسة الروسية،

نسيت أنها كانت يوما من الأيام مدينة تركية عامرة بل كانت أعظم مدينة على الدانوب ترسل خيراتها إلى اسطنبول .

وكان هذا اليوم طويلا وطويلا جداً ، إذ أن أصحابها الأتراك قد عمّروا فى هذه المدينة ثلاثمائة سنة كاملة ، وها هى اليوم كالعروس الخائنة تستقبل زوجا بعد زوج ، وتتزين له وتتعطر كما يحب و يهوى ، وتعبث بكل مايمت بذكرى حليل أو خليل قديم .

وكما أن الأيام قد خلفت وراءها فى برايلا بعض تراث العهد التركى الطويل مصغراً إلى أبسط حدوده — كما يقول الحسابيون — فى خرائب القلعة التركية ، فان الأيام قد خلفت وراءها كذلك تراثا من العهد الرومانى والفارسى .

والعجيب فى أمر هذه الاحجار التى يقال إنها من بقايا القنطرة التى بناها دارا قبل التاريخ الميلادى بخمسة قرون ، أن برايلا الآن خلو من قنطرة على الدانوب ، فهل القناطر — وهى دليل على العمران والرخاء كانت أشد لزوما وحاجة فى هذا الركن المهجور من العالم منذ نيف وألفين من السنين منها اليوم ؟

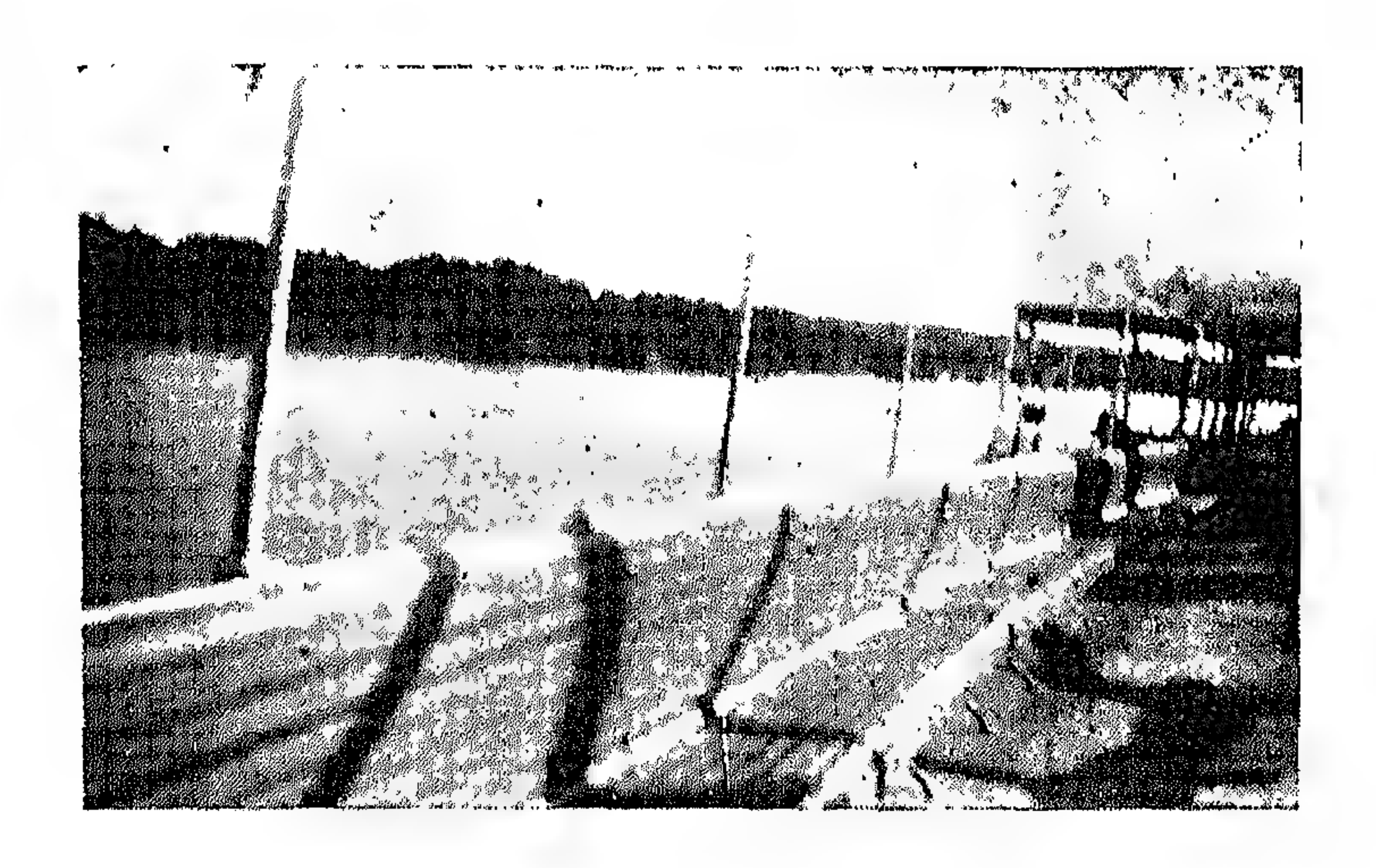
ومع ذلك فلا تخلو برايلا من مظاهر المدنية الحديثة من مسارح ودور للسينما ، وأكثر من هذا أن عربات الترام تذرع طرقاتها ، وتسير

واحدة منها إلى بحيرة سارات التى تتميز مياهها بما فيها من اليود والفسفور حتى يقال إنها أقوى حمامات فى العالم لمن يبحث فى علاجه عن اليود والفسفور

و إذا خلفتَ برايلا وراءك بترامها ومخازنها ومقاهيها ، وركبت مياه الدانوب ، فلا تكاد تسلخ نصف ساعة حتى تحس بأن هذه الباخرة النهرية تسير بك فى عالم عجيب وانك لم تعد فى أوربا ، وأن مظاهر المدينة الاوربية تبعد عنك الآف الأميال :

انى أذكر بقلب حسير بانى لم أعرف بعد الحياة فى الكونغو ولم أركب بعد على مياه السنغال ولكننى أحسست فى هذا الجانب من الدانوب — البلاتا ، بانى عشت فى قلب القارة السوداء المجهولة، فليس الدانوب فى هذا المكان بنهر من الأنهار بل هو بحر واسع فسيح انتثرت فيه الجزائر وارتفعت على قيعانه وخلجانه الغابات الكثيفة الملتفة .

ثم ان شمس الصيف قد انعكست على مياهه البيضاء وعلى غاباته الساكنة وسبح البجع على مائه ، وحلقت أسراب العقبان والطيور البحرية فى فضائه ، فاستحال المكان إلى منظر افريقى عجيب .



قافلة على مياه النهر . .

لا تجد حولك أثرا من آثار الحياة ولا علامة من علامات المدنية ، برية بكر لا يحتويها إلا عابر سبيل ، ولا تسمع على مياهها فى وقت الظهيرة إلا دفعات آلات الباخرة تجاهد التيار ، وتقضى ساعات طويلة قبل أن تصادف باخرة من بواخر البترول هابطة إلى الدلتا ، أما المراكب والقوارب مما يستعمله عامرو هذا المكان من الدانوب فلا ترى منها شراعا منصوبا ولا مجذافا مرفوعا .

وفى أيام الربيع حين يبلغ فيضان الدانوب أقصاه ، تتجمع هذه الفروع والجداول وتختلط فتصبح بحيرة لا تعرف لها نهاية ، ويبلغ ما بين شطئ النهر عشرين من الكيلومترات حتى إذا جاء الصيف

انحسرت المياه عن شطوط وجزائر سرعان ما تتوجها الحشائش التى تغرقها مياه الفيضان من جديد وهكذا دواليك ، كأنما الطبيعة قد يئست من همة الانسان فراحت تفسد بالشمال ما تصنعه باليمين .

وللشتاء دوره فى هذا المكان ، إذ تتجمع مياه الدانوب فتزداد هذه البرية وحشة على وحشتها فتهجرها الطيور وتنقطع عنها بواخر البترول ومراكب النقل العابرة .

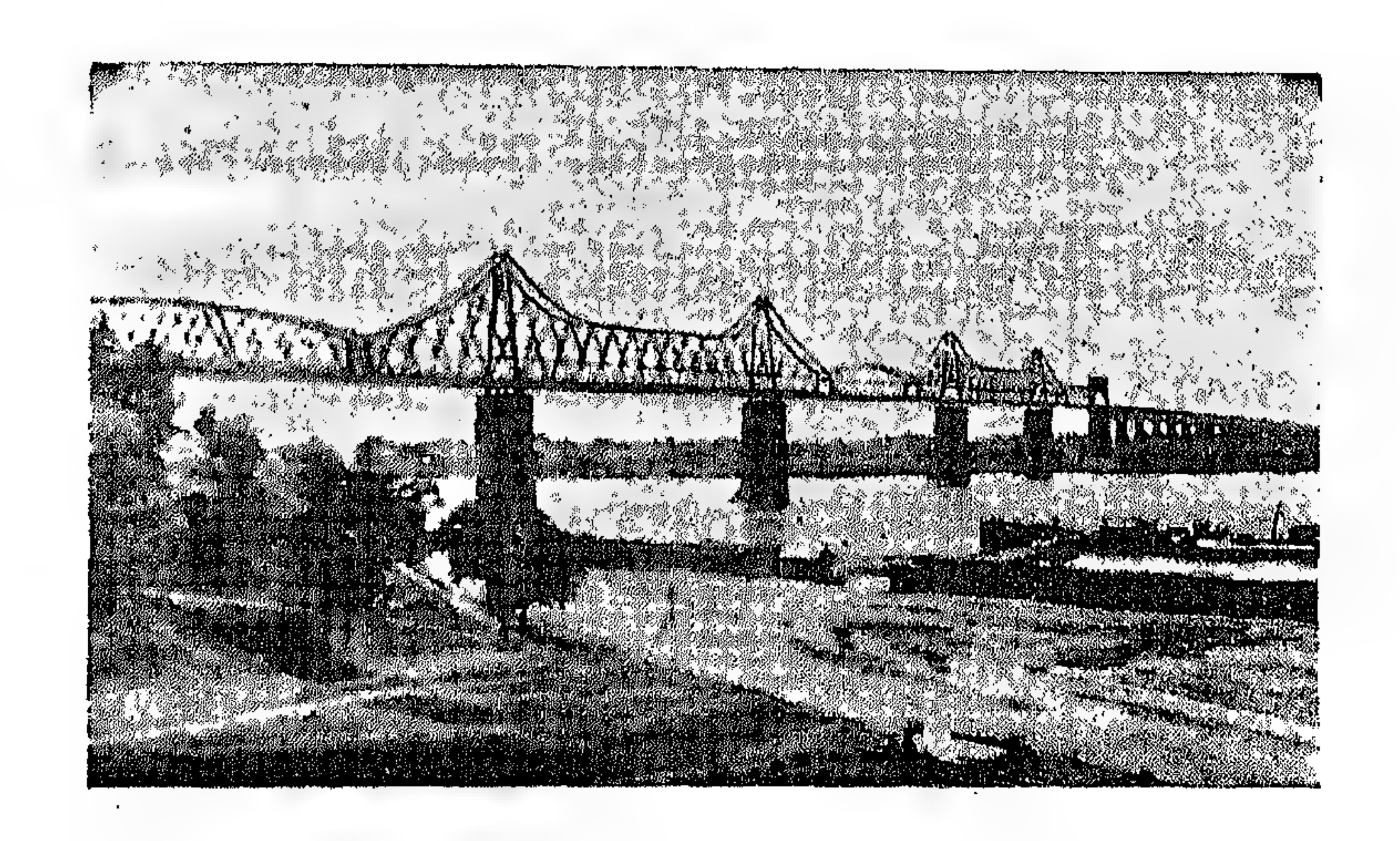
ولكنك إذا نزلت الدانوب وتسللت بين الغابات التى تكسو شاطئيه فانك قد تكشف عن بعض مظاهر الحياة الانسانية بين القرى القليلة الفقيرة المتناثرة بعيدا من مياه النهر هربا من فيضانه ابان الربيع .

هذه القرى تعيش كما كان يعيش الناس فى الدنيا قبل أن تبزغ الحضارات الانسانية يعيشون فى معزل عن أسباب المدنية فى أكواخ الطين إذ الآجر الذى يصنعونه بأيديهم من طين النهر يعجنه الأولاد والبنات وتصبه الأم ويحرقه الأب فى نار الأخشاب ، وهم عراة حفاة لوحت سحنهم عوامل الطبيعة القاسية .

ثم تراهم يضفرون الحشائش ويجدلون الفروع لزرائب الجاموس والبط والخنازير بشعرها المجعد

وهكذا تسير على مياه الدانوب اثنتى عشرة ساعة حتى تلمح فى عتمة المساء مظهرا قاطعا من مظاهر المدنية الأوربية ذلك هو قنطرة «شرنافودا» الضخمة التى تصل البحر الأسود بقلب أوربا ، فتحس بأنك ما زلت فى أوربا وأن ذكريات الكونغو والسنغال ما هى إلا خيال بديع

وفى شرنافورا تترك الدانوب قليلا ، لتأخذ القطار إلى أكبر بناء فى رومانيا الحديثة « كونستنزا » . . .



قنطرة شرنافودا

كل ما تبقى من زيارتى الأولى لكنستنزا منذ خمس سنين.
ذكريات مهوشة مظلمة ، فقد هبطت كونستنزا إذ ذاك فى عتمة المساء وخلفتها فى منتصف الليل وقضيت هذه الساعات فى جهاد ونزاع بين رجال المحطة ورجال الميناء .

وفى تلك الأيام هبطت كونستنزا بعد أن قضيت شهورا بين باريس ولندن وبرلين وفينا ، أما اليوم فانظر إلى هذه الميناء القانعة بعد ذلك التجوال بين برارى الدانوب الوحشية المنقطعة ..

وكونستنزا كما يدعوها أهل رومانيا اليوم ، أو قسطنجة كما يسميها أتراك اليوم وأسلافهم ، أو قسطنطينا كما لقبت عند ولادتها ، ليست بالمكان الذى تنفر منه إذا قضيت فيه أسبوعا لا سيما فى أيام الصيف .

وهذه الأسماء المتعاقبة التى تحملها هذه المدينة تحدث عن قصة من قصص التاريخ لا يعنى بأمرها إلا النذر القليل .

فهى قسطنطينا المدينة التذكارية التى أنشأها قسطنطين الأكبر تخليدا لاسم أخته عند نهاية سور تراجان العظيم .

وهى قسطنجة الميناء التركية كمثات مثلها من حواضر الاقاليم فى الامبراطورية العثمانية القديمة ..

وهى كونستنزا الميناء الرومانية بعد أن استولت رومانيا على ولاية دوبرجا .

ثم هى كونستنزا التى دمرها الرومانيون بأيديهم وخربوها بفؤوسهم وبنادقهم حتى لاتستولى عليها الجيوش الالمانية النمساوية الظافرة فى سنة ١٩١٤

وتحمل اليوم هذه الميناء كل هذه التذكارات : بآثارها الرومانية القديمة حين كانت منفى لحكومة روما يرسل اليها المغضوب عليهم من ساسة أو مجرمين ، وهى فى مكانها البعيد المنعزل على البحر الأسود مسيرة شهور طويلة من نبع الحضارة الأوروبية فى تلك الأيام.

وفى كونستنزا — أو فى تومى على مقربة منها على الأصح — قضى أوفيد الشاعر الرومانى سنى حياته الأخيرة منفيا مغربا ، وكونستنزا وإن كانت تأنف اليوم من أن تذكر كيف كانت فى يوم من الأيام سجنا للمجرمين وأشباههم ، بيد أنها تذكر فى مجال الفخر أنها آوت ثم أوفيد أقامت له تمثالا فى قلب المدينة كأنه أعز أبنائها كانت منفى لشاعر وأبرهم بها ، ولاعجب إذا كان التمثال الوحيد فى المدينة.

وهى كذلك عريقة فى نسبها التركى ، حافلة بالمساجد والمتاجر التركية وبكثير مما يمت لذلك العصر بصلة ، من بقايا اليونان والارمن ممن كانت تضمهم امبراطورية آل عثمان .

وكل ما كنت أذكره عن هذه المدينة فى زيارتى القديمة اسم على حسن الذى حمل حقائبى إلى الميناء وقد سرت معه على الاقدام مخترقا ميدانا فسيحا كان أروع ما فيه مأذنة باسقة تطل عليه ،



جامع كارول

فجعلت هذه الذكريات الاسلامية التافهة لزيارتى القصيرة إذ ذاك لونا ثابتا من الالوان .

أما اليوم فلكنستنزا قصص طويلة وحكايات طريفة أروع من تلك الصورة الليلية السريعة .

جان

عند ما وقفت على سلم الميناء بسروالى الاصفر القصير وقميصى ذى الاكمام المقصوصة بجانب حقيبتى الوحيدة وسلة السفر ، لم أرد وأنا فى الزى الرسمى للسياحة والرياضة أن أنادى على عربة أومركبة من مركبات الاجرة ، إذ على السائح الرياضى أن حمل حقائبه بنفسه تبريرا لهذا الزى الذى يلبسه أو لدافع الاقتصاد وهو تقليد معترف به بين هذه الطائفة من السائحين !

وعند ما قطع السائقون الامل فى أن أستقل عربة إلى المدينة ، وعند ما زهدت فى أن أشترك فى عربة بين فوج من أفواج اليهود الراجعين إلى بلادهم من فلسطين ، تلفت باحثا عن « على حسن » فوجدت فى جان الرومانى البديل الموافق ..

ولم يكن جان شيالا بل صبيا من العاطلين الذين يتسكعون حول الموانى والمحطات لاداء خدمة من الخدمات . فحملته الحقيبة

وحملت السلة بعد أن رسمت له بأصابعى باننى سأنقده عشر ليات أجرا لمهمته لأن جان يجهل كل لسان إلا الرومانى .

وهكذا سرنا جنبا إلى جنب ننتقل من فندق إلى فندق حتى كات أرجلنـا من السير . إذ كان ذلك اليوم موعدا لزيارة الملك كارول للمدينــة فغصت الفنادق المحدودة بكثير من الزائرين غير ما كانت غاصة بهم من المصيفين ، فارتفعت الاثمان والاجور ، فكان جان يستبهظها مرة و يشجعنى على التقدم والسؤال ، وكنت بدورى أراها فاحشة فأستحث جان على السير وأشجعه بمساعدتى له على حمل الحقيبة الثقيلة

ثم انتهينا إلى ميدان أوفيد وتركنا فنادقه وراءنا ، وطوينا مرحله ثانية إلى ميدان المحطة وقد اقترح علينا بعض السائرين (بعد أن نفحته بحفنة من تبغ الغليون) أن أنزل على عائله ألمانية تسكن فى طرف المدينة ، فكتبت العنوان على ظهر علبة الثقاب وسرنا مرحلة أخرى قطعناها بين وقوف وراحة وسؤال حتى وصلنا إلى البيت المنشود فى زقاق مترب وراء مخازن المحطة .

ومع ما كان يجيش فى نفسى من حماس لاستمتع بكل مايستمتع به السائح من تجارب المفاجئات ، فقد أحسست وأنا أقف فى فناء

هذا البيت المنبوذ بأن شجاعتى لم تبلغ بعد مداها المرغوب فيه .

لم يكن هذا البيت فى زقاق أو — بلفار فردناند — بالفلا الالمانية التى تخيلتها عند مادونت عنوانه على علبة الثقاب .

ولم تكن عائله كوفمان إلا عائله يهودية رومانية مهاجرة .

ولم يكن نزلاء هذا البيت من أهل فينا أو ميونخ أو برلين السائحين ، بل من يهود بولندا ورومانيا المهاجرين إلى فلسطين لضيق حالهم ، أو العائدين منها لضيق حالهم أيضا .

المساومة

وعند ما غاب جان خلف باب حديقة المنزل الجرداء الناشفة ووقفت عند ركن الشارع أرقب النتيجة من بعيد ، أطلت من وراء الباب وجوه خمسة أطفال من صبيان و بنات تفحص وجه الضيف النازل لتصدر أحكامها إلى مدام كوفمان عن قيمته وعن دائرة المساومة التى يمكن أن يتسع فى حدودها تقدير الاجر .

ومدام كوفمان ككل يهودية صميمة لا ترضى بأن تقدر أجرا بل تدعوك إلى الحديث فى فناء البيت ، والى رؤية غرف المنزل بادئة بأقبحها وأرخصها وأقذرها .

وأثناء الحديث تقف حولك حلقة من أولادها وبناتها تفحص

وجهك بدقة وملابسك جزءا جزءا ، وتتبع حديثك بالملاحظـة ، ثم تتبعك أو تتقدمك وأنت تزور غرف المنزل وتتفرج معك عليها كأنها لم ترها فى حياتها إلا هذه المرة .

وإذا أبديت امتعاضاً نظرت مدام كوفمان إلى أولادها و بناتها ونهرتهم وقد تضربهم ، وتعلق لك على سلوكهم بما تراه مناسبا للمقام وقد رأيت هؤلاء الاطفال بعـد ذلك يجتمعون حول كل زائر و يتبعونه إلى غرف البيت كل يوم ورأيت الأم إذا رأت امتعاض الضيف تنهرهم وتضربهم وتعلق على سلوكهم كذلك بمـا تراه يناسب المقام .

حتى إذا انتهينا من التنقل بين الغرف ووصلنا إلى ما تراه مدام كوفمان أنه آخر ما تقدمه لضيوفها بدأت تجربة المسـاومة القاسية ، ووقف الاطفال من بعيد يرقبون هذه المعركة وهم عارفون جد المعرفة أجر كل غرفة ، أو على الاصح سلسلة الاجور التى دُفعت للغرفة الواحدة !

ثم انى عفت المقام فى هذا البيت فتعنّتُ فى الاجر إذجعلنى أفكر حتى فى الهرب من المدينة بأسرها ، بيد أنهـا سدت على السبل والمنافذ حتى بعد أن حملت حقائبى الى الشارع ، فقد كانت

ترسل أولادها وراءنا يعرض كل واحد منهم عرضاً ، هذا عن الغرفة الأمامية وذلك عن الحجرة العليا وثالث عن حجرة ثالثة

ثم تكاثرت على عوامل التعب والاغراء والجوع وروح الاستهتار والمخاطرة لأرجع الى مدام كوفمان ، وأن أعيش تحت سقفها عشرة أيام كاملة . .



تذكار عائلة كوفمان . .

ثم لم أجد بدا من أن أخلع ملابسى التى أعددتها للسفر والتجوال

بعد أن ارتديتها أياماً وليالى طويلة هزنى فيها البحر ولوحتنى بفضل قصر سراويلها وأكمامها الشمس !

لقد اكتشفت فى المرآة بانى أقرب شبها الى المتشردين من الرحالة، وأن العيون ترمقنى اذا مررت على جماعة ، وتردد بلا شك كلمات « الدجل والنصب والاحتيال » باستخدام مثل هذه الملابس ثم الدعوى بالرحلة حول الأرض مشياً على الأقدام ؟! ولقد أحسست بزهو عندما ارتديت بذلتى الغامضة الأنيقة التى صنعتها عند برتون منذ سنين فى لندن بعد أن بللت ثنياتها بالماء ووضعتها تحت وسادتى ساعتين .

لقد أحسست بأنى أصبحت انساناً محترماً ، رغم ما كنت أشعر به من ثقل حاملة السراويل وضيق الحذاء ، كأنى بدوى يلبس ملابس الحضر للمرة الأولى فى حياته . ووددت أن آخذ بأوفر قسط من هذه الأناقة ، فاشتريت قرنفلة حمراء وخرجت — تحت عيون أهل البيت المحملقة المعجبة — وأنا أتحايل على رفع حذائى من شدة أوحال الطريق وترابه .

حياة الصيف

وللمرأة الحظ الأوفر فى حياة كونستنزا فى الصيف حتى تحس بأن حياة المدينة دائرة حول مباهج المرأة . فلا أظن أننى قد رأيت

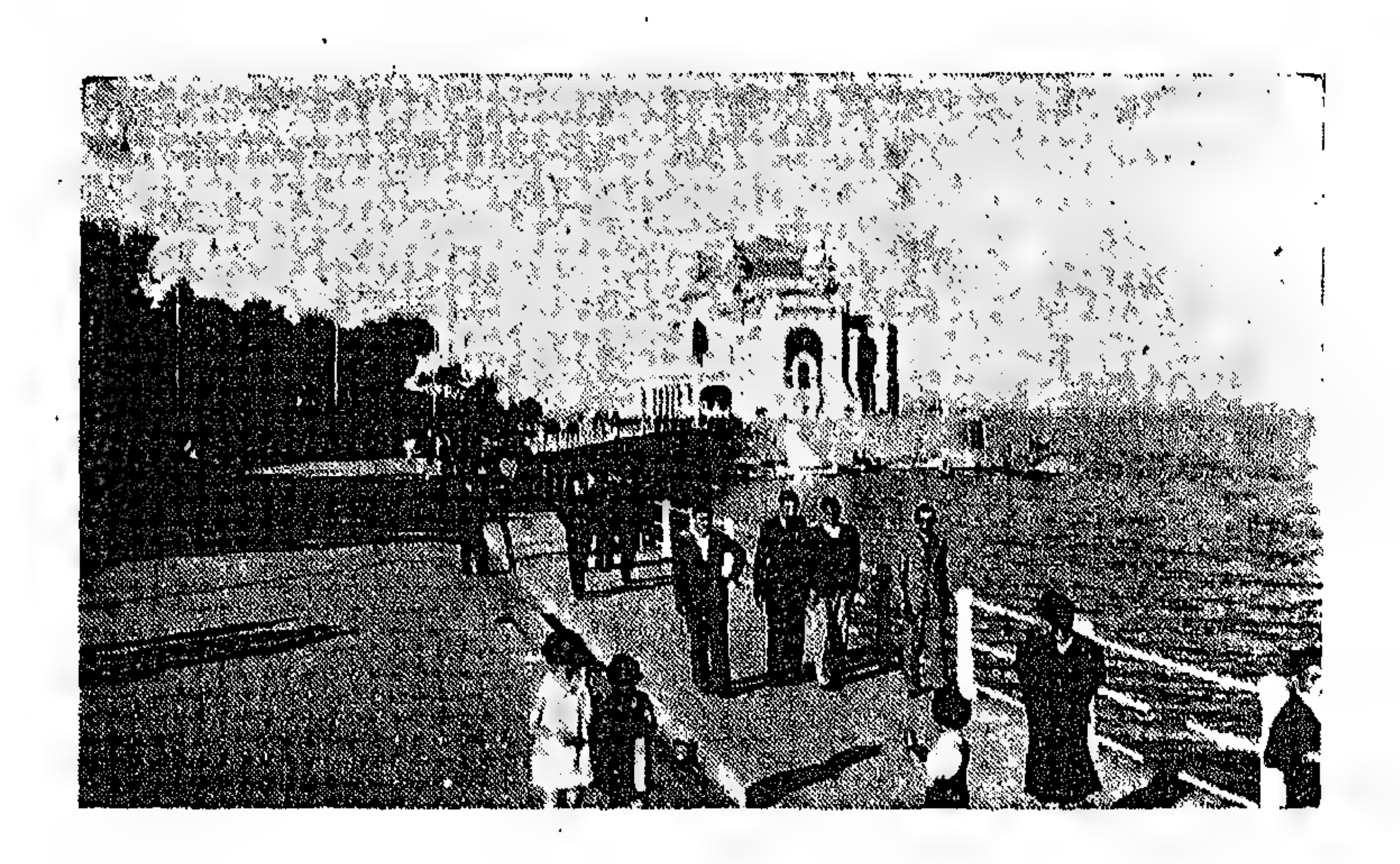
من دكاكين المزينين عدداً أوفر مما رأيته فى هذه المدينة ، وبين كل دكان ودكان من هذه الدكاكين مخزن لبيع أدوات التجميل والزينة . واذا كانت هذه الوفرة بسبب جموع المصيفات ، فلست أدرى ما يصنع هؤلاء الحلاقين ومن اليهم اذا رجع المصيفات الى بلادهم ؟

ولا شك أن الفتيات الرومانيات يملن إلى التجميل ميلا قد يعدو مدى المعقول ولولا ذلك لما كانت هذه الدكاكين مليئة بوفود النساء من عجائز وفتيات ، وقد اختلط بهن جماعة الرجال دون تفريق بين هؤلاء وهؤلاء كما جرت العادة . وأسخف مظاهر هذه الرغبة فى التجمل اصطناع الأسنان الذهبية بين طبقات النساء جميعها ، وكنت فى بادىء الأمر أحسب كل واحدة من هؤلاء من فتيات الشارع حتى عرفت سيدات من الطبقة الراقية زينت الواحدة منهن مقدم فمها بصف من هذه الأسنان الذهبية ، كما كان يفعل عندنا الفلاحون منذ عشرين سنة حين اعتبرت هذه الأسنان مظهرا من مظاهر الغنى وترف المدنية

وعند ما كنت فى انجلترا كنت أسمع بمبلغ التبهرج فى مصيف أوستند فى بلجيكا ، ولكننى لم أجد حين زرت أوستند ما يثير العجب . أما كونستنزا فقد رأيت المصيفات فى ملابس البحر ذات

الظهور العادية يسرن فى قلب المدينة ويجلسن على مقاهيها ومطاعمها ويترددن على متاجرها دون اعتبار تقليد من التقاليد .

ولا أظن أن هنالك من يعترض إذا ارتأى أحد من الناس أن يفتن ما شاء له خياله أو مزاجه فى لباسه أو متعته ، ولكن هذه كالحرية التى تحس بها فى باريس إذ بل أنك تشعر بأن هؤلاء الناس يفعلون ما يفعلون مساقين بدافع التقليد .



حياة الصيف فى كونستنزا

والمرأة الجميلة الأنيقة فى رومانيا لا تصادفها إلا فى المدن الكبيرة ، فنى الريف الرومانى وفى عشرات القرى والمدن الصغيرة لا أذكر انى قد رأيت وجها واحدا مثل هذه الوجوه التى رأيتها

فى مصيف كونستنزا أو بوخارست ، وجوه قد سحقها الاعياء والجهد فى طلب الرزق لا تكاد تحس بأن أصحابها فكروا يوما واحدا فى التجميل أو الأخذ بزخرف الحياة

و بينما هذه الفتاة الرومانية التى تصادفها على مياه الدانوب تحمل الفحم وتنقل الخشب وتعيش كما يعيش الرجل المجاهد فى الحياة ، تعيش زميلاتها فى بوخارست كما كانت تعيش الباريسية فى القرن الثامن عشر تقبل يدها اذا أقبلت وتقبل يدها اذا استأذنت . ولكنها فى عربة الترام قد تقف ساعة طويلة دون أن يتقدم أحد الجالسين حتى من الشبان و يمنحها مقعده ! عجيب هذا التناقض ، الذي أقل ما يدل عليه أن هذه التقاليد مستوردة من بعيد لم يكونها الشعب بنفسه لنفسه

ماماى

فى وقت ما كنت أحسب ان متعة السياحة لا تعرفها الا مصايف بلاك بول وبورموث وتوركى ؛ ثم اتسع هذا النطاق فشمل أوستند ثم تشعب فاتسع لرمال الليدو فى البندقية . ثم أستقر حكمى على أن من لم يزر فانزى عند برلين فهو جاهل بمتع الصيف ومباهج المصايف .

وفى كونستنزا مصيف من هذه المصايف وماماى — كما يدعون

هذا المصيف — قد جعلني حين زرته أن أنقض ما أبرمته من حكم على مصايف الشمال والجنوب ، ولم أستثن من ذلك حتى فائزى !

قد يثير فى نفسك الدهش وأن ترى فى هذا الركن البعيد من مراكز السياحة العالمية مصيفاً قد أخذ بأسباب الأناقة والابتكار حتى يجعلك تنسى أيام الليدو ومباهج أوستند ومتع بلاك بول وهكذا رأيت فى ماماى من مباهج الصيف شيئاً جديراً بالتسجيل دون املال فى وصف أو اسفاف فى تصوير .

كانت السيارات العامة المفتوحة بفتياتها الملاحظات وقد امتلأت بالمصيفين والمصيفات وقد تبارين فى أزياء البحر ومغريات العرى ، كانت هذه السيارات العامة بهجة فى ذاتها وكانت الرحلة ، ما بين المدينة والمصيف على ظهورها التى بلاتها نمال السائحين متعة أى متعة .

وفى صباح اليوم الثانى كنت فى الطريق الى ماماى بعد أن تزودت ببعض الدهانات والسوائل مما جرت عادة المترفين من السائحين أن يتجهزوا به ، كما تزودت بقصة ومجلة وجريدة لأدع لنفسى مجالا أوسع للاختيار فى القراءة . وقد عزمت على أن أقضى اليوم حتى المساء أو بعده فى هذا المكان الذى سمعت اسمه على كل لسان .

وكان أول من فعلته — أو ما طلب مني أن أفعله — بعد أن وصلت ، أن أخلف مامعي من نقود في خزينة المصيف وكنت لا أعرف بالضبط مبلغ ما معي من عملة مصرية وتركية وانجليزية ورومانية . .

أما الرومانيـة فكانت على كل حال بضع آلاف من الليّات ، وليس للقارىء أن تعتريه دهشة أو أن يخامره شك في ثروتي اذ أن اللي لا يزيد الا قليلا على المليم ، فهذه الآلاف على كل حال ليست مما تدعو على أن يقرن صاحبها بالغنى أو الوفر بل هي كالهشيم اذا سرت فيه شرارة أتت على آخره في غمضة عين .

وأخذت الفتاة تعـد هذه الودائع وترقمها في ورقة اعطيتنيها . حتى اذا قضيت بعض الوقت وحان موعد الغداء ذهبت لاسترد فلوسي فعرضت الورقة ولم أكن قد قرأت ما فيها ، فلمحت أن الآلاف الرومانية المدونة تزيد بضع مئات ولـكنني كذبت نفسي ومحوت هذا الشك ورميت نفسي بالخلط والسفه والتداخل في غير شأني .

وأخرجت الفتاة الوديعة وأنا أرقبها بنصف عين حتى اذا جاء دور الآلاف الرومانية أعادت العـدد وأخذت تدقق في فرك

الأوراق خشية التصاق واحدة على الأخرى ، ثم رجعت الى صندوق الودائع تنقب فيه علها تجد فيه ورقة منسية .

وأخذت أعد الأوراق من بعيد وأقارن بين ماهو مكتوب وما هو وجود فاذا بالفرق خمسمئة ليّا فوثقت من أن تقديرى كان صواباً . ولكننى سكتت وحولت وجهى الى الناحية الأخرى كأننى أتسلى بوجوه الذاهبين لأرى ما يتم من أمر الفتاة .

وأخذت الفتاة من جانبها تتهامس مع رفيقتهـا التى تركت القصـة التى تقرأها ، وراحتا تعدان الأوراق من جديد وتعيدان تنقيب المظروف مرة والصندوق مرة أخرى . ثم عرا الفتاة نوع من الفزع ، إذ فقدت خمسمئة لى واجرها ما بين الالف أو الألف والنصف .

عند ذلك حاولت أن أنبه نفسى الى ما يجرى ، فسألت الفتاة ببراءة مصطنعة عن سبب التأخير وسبب هذا الفزع فلم ترد أن تذكر شيئا ، بل رجتنى أن أصمت خوفا من أن يتنبه المراقب الى ما جرى فيكون خاتمة الفتاة .

ثم انى لم أرد أن أتزحزح عن موقفى ولم أقترح شيئا فهذه الورقة مدونة بخط الفتاة وهذا المبلغ ينقص خمسمئة كاملة ، حتى إذا

ما أعياها البحث جمعت هذا المبلغ من جيبها ومن صديقتها وكملت عليه من صندوق الودائع وقدمت الى المبلغ هى وتكفكف دموعها وتستعيذ بالله من وجه هذا السائح المشئوم

عند ذلك بدأت أمثل الفصل الختامى للقصة فصل البطل المنقذ ، فرفضت أن أقبل هذا المبلغ ، إذ كيف يقبل بطل الرواية مالا من فتاته الباكية ؟ والفتاة لا تريد الا ان أغرب عن وجهها ، حتى اذا آمنت ببطولتى قبلت المبلغ شاكرة معتذرة .

وهكذا مثلت دور البطل بحكم الظروف . وظننت هذه البطولة خالدة . إذ بعد ثلاثة أيام عاودت الكرة ايداعا واسترجاعا . وما كان أشد عجبى حين رأيت الفتاة تطلب منى أن اترك عشرين ليا « بقشيشا » لايداع المبلغ ، كأنما تلك الخمسمئة لم تدخل فى حساب ؟ ؟

وعند ما أعدت ذكر الحكاية وأبديت هذا العجب اشاحت بوجهها كأنما قد نسيت تلك الحكاية ، حتى أحسست بأن بطولتى قد رسبت الى أصابع قدمى ...

مصريون !

كان جمع المصريين الذين قابلتهم فى ذلك اليوم فى ماماى مصادفة عظيمة ، اذ كيف تؤمل أن تجد عشرة من المصريين — تكتشفهم واحدا — أثر واحد فى وسط هذا البحر من الناس ؟

اذ عندما نخلع ملابسنا تضيع مميزات الوجوه فى مميزات الجسم نفسه بعد أن عرض جميعه للعيون كما تضيع الشجرة فى الغابة ، وتبدو من مخبوء التكوين الانسانى عجائب تسترها الملابس فتجتمع العيون حولها حتى ننسى تقاطيع الوجه ، وما قد تدل على صاحبها من خير وشر ...

وما ان رحت أعرض جسمى للهواء وأدوس بقدمى العارية متمأرجا على رمل الشاطىء حتى صادفت وجوها ثلاثة اعرف بعضها حق المعرفة ، ولكنها بدت الى عينى غريبة متنافرة . وبعد مناورة وتردد شاركنى فيه هؤلاء الرفاق عرفت فيهم ثلاثة من الاصدقاء كثيرا ما كنا نتقابل فى مصر ، ولكن مفاجأة المكان وغرابة الزى جعلت هذه المقابلة غير منتظرة .

وعلى القنطرة الأنيقة الممتدة فى قلب البحر وقد أصبحت

معرضاً لأزياء السباحة ، قابلت صديقى الدكتور ج وتبادلنا السلام كأننا على موعد ، لاننا اعتدنا أن نتقابل هكذا فى أوربا وجها لوجه بدون سابق موعد ، فآخر مقابلة لنا كانت فى شارع تواتزين فى برلين فى صيف العام الماضى .

وفى صيف سابق قضينا سوياً شهراً كاملا فى لندن نجتمع فى النادى المصرى ونتمشى فى هايد بارك نسمع خطب الخطباء ثم نتعشى عن ليونس من اللوبيـاء المحفوظة على (التوست) . ثم تفرقنا بعد ذلك كل فى طريق ، وعندما هبطت باريس كان أول من أقابله فى محطة المترو بوليتان الأرضية الدكتور ج . كأننا على موعد مضروب !

وبعد أن غمرت جسمى بالماء — ولا أقول سبحت لأنى أجهل السباحة — جلست على رمال الشاطىء واذا بمنظر طريف عجيب .

زائر مطربش يلبس ملابس الكشافة ويتحلى بعـدد من الاوسمة والشارات اللامعة البراقة ويحمل فى يده حقيبة لصقت عليها عشرات من بطاقات السفر ، ويحمل على كتفه آلة مصورة ويحمل غير ذلك الكثير . وكان صاحبنا يشق صفوف الجالسين والجالسات على الرمال بخطى وئيدة ويحس بمـا يفعله هذا العرض

العجيب من الأزياء فى نفوس المتفرجين وهو مغتبط فى سريرته أشد الاغتباط .

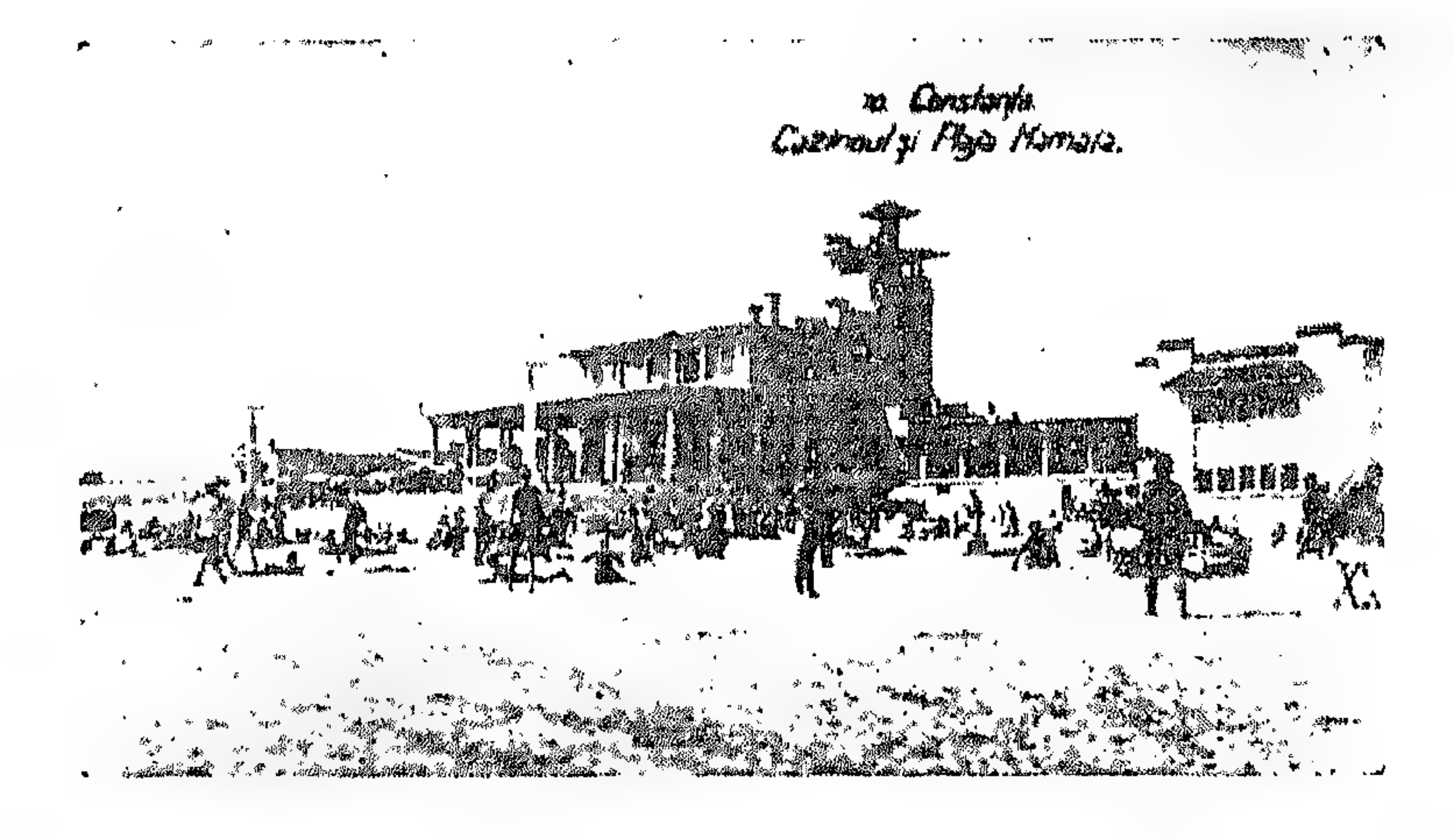
لقد عرفته مصريا أيضا وكرهت أن يظهر زائر مصرى بهذا التمثيل المجوج . وتحاشيت أن أجتمع به — ولكننى كنت متغاليا فى الحكم عليه . لأنى حين عرفته عرفت أنه معترف بهذا التهريج بيد أنه يقره لاسباب يراها لازمة فى الحياة التى اراد أن يعيشها فى هذا المصيف .

وعند ما جلست للغذاء تقابلت مع البرت — رفيقى المصرى اليهودى من الاسكندرية — وكانت معه رفيقة من صديقات الشاطىء اشتركت معى على مائدة واحدة وكان لألبرت هذا منطق غريب فى الضيافة اذ أراد أن اشترك معه فى دفع نفقات اكل هذه الفتاة بشروط عرضها ! . ولكننى عند ما رفضت هذا العرض استدان منى خمسين ليا على أن يردها فى المساء ، وبالطبع جاء المساء ولم أر ألبير حتى قابلته بعد ذلك بثلاثة اشهر فى شوارع القاهرة ولا شك أن كلانا تناسى ذكر هذا المبلغ فلم اطلبه منه ولم يحاول هو أن يرده .

وفى مساء ذلك اليوم تقابلت مع شخصين ظريفين من مواطنى الكرام . هما شقيقان رأيا أن أمتع ما فى رومانيا كؤوس النبيذ فراحا يرشفانها عند كل مقهى يمران عليه . وفى منتصف

الليل مررت بهما على أحدى مقاهى ميـدان أوفيد وقد زينا المائدة: بطاقات من الزهور وبكومة من الجوز واللوز وراح الشقيق الاصغر يعلق بنكتة مصرية صميمة على كل سائر وجالس ، وراح الشقيق الاكبر يؤمن على نـكات شقيقه و يضحك بصوت مرتفع جمع حولنا الجالسين .

ثم قابلت مصريا آخر، وشخصية جديرة بالوصف والتسجيل.. لم يكن الدكتور ع . بالرجل الذى لم يألف الاسفار وحياة الغربة بل إنه رأى كثيرا وسافر كثيرا . وعرف من الدنيا اكثر مما أعرف . ولـكن لست ادرى كيف ابتلاه الله بهذا التردد الشنيع ، التردد الذى يجعلك تسأم الحياة وتسأم أن تقدم على شىء .



داماى ..

وأنا الذى لايرى الحياة الا فى المجازفة ، اكاد أختنق اذا جالست واحدا من هؤلاء المترددين فما بالك اذا صحبته أياما ؟ كان الدكتور ع . يتردد فى كل شىء ، هل يشرب شايا أو قهوة ، وهل يمشى أو يستريح ، وهل يبتسم أو يظهر الغلظة والبأس ، وهل يتكلم أو يصمت فى مجال السمر والحديث ؟

وكان يحرص فى مصروفه . وكان حذرا شديد التشكك . ولكنه مع ذلك لم يكن بخيلا بطبعه بل أن تشككه جعله يتردد فى إخراج القرش من جيبه حيث لامجال للتردد ، حتى أظهره بمظهر الشحيح القبيح . ولكنه مع ذلك كان طيب النفس طريف الحديث اذا لم تعانده فى اقتراحاته أو لم تقطع عليه حبل التفكير حين يتشكك فى أمر من الأمور .

هؤلاء كانوا رفاقى فى رومانيا . ولم تدم رفقتهم إلا اياما معدودة حتى رجعت الى الدانوب وبقيت أياما وأسابيع طويلة قبل أن أصادف مصريا أو أن اتكلم العربية لمخلوق .

الرشوة

لست أدرى من أصاب هذا البلد المسكين بداء الرشوة ، الرشوة فى أفظع مظاهرها ؟ وهنالك فرق بين أن تسمع عن شىء

تستهجنه و بين أن ترى هـذا الشيء رأى العين ، فرق بين أن تسمع عن حكاية رجل مشنوق ، و بين أن تقف أمام هذا الرجل متأرجحا فى الهواء !

وهكذا رأيت الرشوة لاول مرة فى حيـاتى رأى العين فى رومانيا . إننى لم اكن اتصور كيف يتحايل موظف على الرشوة ، وادهى من ذلك كيف يجرأ انسـان على أن يخرج من جيبه قرشا ليضع حدا لاشكال خلقه هذا الموظف ، وهو يعرف جد المعرفة أنه اشكال مصطنع مقصود !

بعـد ليلة ذهبت لوداع هؤلاء الرفاق المصريين فى منتصف الليل على ميناء كونستنزا وهم فى الطريق الى مصر .

كانت قاعة الفحص الجمركى غاصة بعـدد وفير من المسافرين الى الشرق اكثرهم من يهود بولندا فى طريقهم الى فلسطين، وهؤلاء اليهود موضع عناية رجال الجمرك فى رومانيا وغير رومانيا حيث يفتحون عيونهم لاساليب التهريب !

لم يكن فى فحص حقائب رفاقنا المصريين ما يستحق الذكر ، اذ لم تـكن تحوى غير الملابس التى كانت فى حاجة الى الغسيل والجوارب التى كانت فى حاجه الى الترقيع بعد سياحتهم الطويلة .

وجاء دور تأشــير الجوازات فبدأت المشكلة الــكبرى اذ اكتشف موظف الجمرك أن هؤلاء الرفاق قد تعدوا القوانين المالية الموضوعة للسائحين وأخذوا يصرفون ما معهم من عملة أجنبية فى غير البنك الحــكومى ، ومعنى ذلك أن عليهم أن يدفعوا الفرق بين النقدين وهو ما حسبه العامل بنحو بضع الآف من الليات !

وكانت المفاجأة عظيمة ، وكانت المشكلة مما لا تقبل حلا من من الحلول اذ القانون صريح والاعذار غـير مقبولة ، وجيوب المسافرين خالية الا من بضع مائة لى فما بالك بألف و بعــدة الآف مجتمعة ؟

أعلن الموظف انذاره وترك الجماعة تفكر ، فأخذت الاراء تقدم وتناقش حتى اقترح بعض المودعين بان لا سبيل الى دفع هذا البلاء الا بالرشوة ، ولــكن كم يدفعون ؟ وكيف يدفعون ؟ ومن يقوم بالدفع ؟

لقد كان ذلك من أمتع المناظر ! لقــد أخرج المال و بدأ على عين الملاحظ الرضاء كما بدت على وجوه الآخرين الرغبة ! ولــكن كيف يضعون الجلجل فى رقبة القط ، مع أن القط وديع مقلم الاظافر ؟

واخذ كل واحد يشجع زميله على أن يقوم بتسليم الامانة فيأخذ المبلغ ثم يتهيب الموقف فيعطى الرشوة الى زميله حتى حرنا فى الأمر . ثم اقترح من اقترح أن نضع القطعتين الفضيتين بين ملابس الحقيبة المفتوحة عند فحصها وهكذا كان ، فوضع المبلغ وسرعان ما اكتشفه الواقف أمامها فدس يده وأخرج المبلغ ووضعه فى جيبه بهدوء واطمئنان عجيب ثم قفل الحقيبه وأشّر على الحقائب بالمرور ! فحملناها ونحن لاتصدق عيوننا الأمر !

لقد كان هذا المنظر رائعا ألهانى عن كل شىء حتى عن مرافقة أصحابى الى الباخرة ، اذ وجدت فى مراقبة فحص الحقائب وما يدور بين الملاحظين والمسافرين متعة ليس بعدها متعة ! لقد كان اليهود موضع عناية هؤلاء الملاحظين عناية لا يرجوها مسافر ولا يرغب فيها قادم !

وقفت انظر الى فحص حقائب عائلة يهودية ، فتصورت حينذاك كيف تكون مهارة المهربين وكيف يكون حذق البوليس ، وكيف يكون الجلد فى البحث والتنقيب ، خمس وأربعون دقيقة كاملة ، جاست فيها أصابع الملاحظ خلال كل ركن من أركان الحقائب . لقد أخرج الاحذية القديمة ودس يده فى داخلها ودس يديه فى

الجوارب القذرة التى تفوح رائحتها من بعيد .

ثم إنه أخرج المعاطف وقرأ كل ورقة فى جيوبها وتلمس الاكمام وفحص حشوها وقلب ظهر السراويل . ثم إنه فتح علبة من الحلوى وسكب ما فيها . ثم إنه فحص غلاف كل كتاب وقلب أوراقه . ولم يترك شيئا حتى قلبه وفحصه بعين ناقدة عارفة .

حتى اذا مل البحث وأحس بالفشل ترك هذه الحقائب كومة من الملابس والاوراق والاطعمة على منضدة الفحص مفروشة ومبعثرة على الارض .

لقد كان واثقا جد الوثوق بان هنالك شيئا مخفيا يحاول هذا اليهودى ذو الشعر الاحمر تهريبه ، لقد كان واثقا من أن معه بضع الآلاف من الليات ومئات من الجنيهات يحاول الهرب بها الى فلسطين .

نعم إنه شعر لايخطأ تقديره ، بل بأن مهارة غريمه قد فاقت قدرته فى البحث والتنقيب ، فاكتفى من بحثه بقطعتين من الحلوى المبعثرة و بضع لفائف من التبغ !

ولكن أعجب من هذا كله طبيعة اليهودى وهذه الصلابة فى شخصيته ، شخصية تستحق الاعجاب ولا شك . لقد بقى هذا

اليهودى الشاب ذو الشعر الأحمر وبجانبه زوجه الشابة بقى صامتا ساكتا لا يتكلم ولا يجيب إلا مبتسما ولا يثور عندما يرى ملابسه تلقى إلى كل جانب ، ولا يتضجر عند ما رأى حوله حلقة متراصة من المتفرجين والمتطلعين الى مكنونات حقائبه يفحصونها بنهم كأنها ملك مشاع للجميع .

انه مهما قيل عن أسباب انتشار الرشوة فى رومانيا فليس فيها مايجيزها أو يبررها، مهما قيل عن تلاعب اليهود ، ومهما قيل عن أثر العناصر الأجنبية من يونان وأرمن ، ومهما قيل عن قلة أجور الموظفين ، فان شيوع الرشوة الى هذا المبلغ المريع المنكر ليس بالذى يحسن بسائح صريح التجاوز عنه فى وصف أو نقد مهما كان صديقا حبيبا لهذه البلاد .

* * *

كانت أول مفاجأة صادفتنى عند مدام كوفمان ، ان وجدتها قد استبدلت غطاء السرير الأبيض النظيف وهو الذى وضع عند اتفاقى على أجر الغرفة ، بغطاء سبق استعماله .

وكنت حيال هذا التلاعب العجيب حازما ، فخلعته من مكانه كما خلعت غطاء الوسادة وناديتها وأعطيتها درسا جافا عن الذوق والنظافه أمام الجميع .

ولم تكن مسألة الغطاء المفاجأة الوحيدة التى صادفتنى تلك الليلة ! مثال ذلك انى اكتشفت أن الغرفة التى استأجرتها لم تكن غرفة بالمعنى الصحيح المفهوم ، لأنى لم أكد أنام حتى رأيت الباب يفتح و يغلق و يدخل داخل أو يخرج خارج . لم تكن غرفتى إلا ممرا يقود إلى غرفة داخلية وكان على سا كنها أن يشق غرفتنا فى غدوه ورواحه .

ثم جاءت مفاجأة ثالثة : النور ؟ لم تكن غرفتى مستقلة بمصباحها لأنى عند مارجعت مساء بحثت عن مصباح النور حول النوافذ والأبواب كما جرت العادة فلم أجده ، حتى إذا حرت فى أمرى فتح رفيقى فى الغرفة نصف عينه وأشار إلى دولاب الملابس فكان على أن أمد ذراعى بأكملها لأصل إلى المفتاح ، حتى إذا ادرته لم يسطع نور باهر أو خافت بل بقيت الحجرة فى ظلامها .

فرحت إلى مدام كوفمان التى استعارت مصباحا من حجرة أخرى ، وكان اعتذارها على هذا النظام انها تحذر عبث الأطفال بالمصابيح وانارتها أثناء النهار مما يكلفها الشىء الكثير .

حتى إذا آويت إلى سريرى ، ورحت أتقلب على كل جنب بسبب شدته وصلابته ، أحسست بأن لصا يفتح الباب بهدوء و يتجه

إلى هذا المصباح المسكين ويقطفه من مكانه ، وكان هذا اللص مدام كوفمان أيضاً !

لم تضايقنى مفاجأة من هذه المفاجئات بقدر ما ضايقنى الذباب الذى تجمع خلف نافذة الحجرة من الحديقة (مع استعمال هذا اللفظ مجازا) ورفضه ان يسكن أو يسكت أو أن يكف عن الطنين حتى أصابتنى أزمة نفسية جامحة لم ينفع فيها قفل الآذان أو دس الرأس تحت الوسادة ، وكان أول ما استقبلت فى الصباح هذا الذباب الهائج الذى لم يغمض الليل عيونه فهب على ضوء الشمس يوقظ النائمين الغافلين . .

وكان رفيقى فى الغرفة أكثر من الذباب نشاطا ، لأننى وجدته مضطجعا فى سريره يقرأ ويدخن .

كان رفيقى فى الغرفة

يهوديا ، بولونيا ، مهاجرا . .

وكان قزما

وكان أحدب

وكان اسمه استفاسكى أو نحو ذلك .

وكانت رفقتى لهذا القزم الأحدب من أبدع مفاجئات السياحة وكنت اتقرب اليه بكل الأساليب والوسائل لأننى شعرت بأن وراء هذا الاستفاسكى كنزا زاخرا من مادة الكتابة والوصف والتعليق ، سوف استغله فى كتابى هذا وفى كتابى القادم وفى كل مجال للكتابة تعوزنى فيه المادة . .

وكان هذا الاحدب منافقا عظيما . ولهذا شجعنى نفاقه على الاقتراب منه ، والميل إلى أن أحوز ثقته ورضاءه فكنت أقدم له الجرائد الألمانية التى اشتريها كل يوم ، وكنت أقدم له السجائر وكنت ادعه يسرق علبة الثقاب ، وكنت أشركه معى فى الشاى الذى أصنعه بيدى كل مساء ، وكنت أبحث معه شئون السياسة العامة ، وكنا نعرج فى الحديث كل مرة إلى الكلام عن فلسطين التى يعد العدة للهجرة اليها .

وكان ككل قزم أحدب زكيا نبيها فطنا يتكلم البولونية والألمانية و يجاهد الانجليزية والرومانية ، وكان كذلك دميم الخلقة ذا أنف طويل مدلى وشعر أحمر منفوش ، وكان يتفنن فى زيادة هذا القبح بسترة أرجوانية يلبسها فتغطى ركبتيه وتخفى أكمامها أطراف أصابعه . . لقد كان غوريلا بيضاء !

وكنا نكثر الحديث عن مباهج ماماى ، وفتنة الشاطىء والحقيقة أننى كنت أدفعه الى الحديث عن غرامياته متناسيا شعره الأحمر وأنفه الطويل المدلى وسترته الأرجوانية الواسعة الفضفاضة .

وكان يتكلم عن غرامياته تلميحا ، وكان يترك التعليق والتوسع فى الوصف . حتى فاجأته مرة يقرأ خطاباً مطولا ، فاثبت له (دون ارادته) بأنه خطاب غرام ، وأنه خطاب من حبيبته المسكينة فى بولونيا . فهز رأسه الشعبانى ابتهاجا بهذا المنطق السليم ، وابتسم بزهو وهو يعلق على ثرثرة صاحبة الخطاب وكيف أنها لا تريد إلا أن تحكى له كل شىء وتقص عليه ما جرى لها منذ أن تركها مكسورة القلب والجناح فى بولندا العزيزة . .

وفى اليوم الثانى دخلت حمام البيت — وهو حجرة مظلمة يطلقون عليها هذا الاسم من الأسماء — لأغسل قدمى من رمال الشاطىء ، ولما لم تكن من وسيلة سوى حوض الغسيل جاهدت فى رفع احدى قدمى ، بيد أننى ما كدت أدوس على قاع الحوض حتى هوى بحنفياته ومواسيره وكدت أقع على ظهرى لولا أن تداركت نفسى وسحبت قدمى من الحوض الهاوى !

وحمدت الله على أن الحجرة بعيدة ومنعزلة ومقفلة فلم يسمع بهذا

الحدث أحد الأطفال أو أمهم ، فعمـدت إلى ارجاع الحوض الى مكانه وجعلته يرتكز على قطعة خشب أو نحوها ، فأصبح كالمصيدة لايلمسها أحد حتى تهوى على لامسها . ثم خرجت وعدت فى المساء فسمعت بأن مدام كوفمان قد اكتشفت أمر الحوض وأنها اتهمت صديقى القزم بأنه هو الذى (تطاول) على الحوض بقامته القصيرة ودكه من أساسه ، وان مناقشة وجدلا وحوارا تبودل فى هذا الشأن !

* * *

ولسبب من الأسباب اقترحت أن أصور أفراد هذه العائلة ، ولعل السبب الغالب أنى أردت أن أحتفظ بصورة لهذا الأحدب . وما أن أبديت هذه الرغبة حتى غدوت موضع عناية الجميع أوقظ فى الصباح لأحدد موعد هذه الصورة المنشودة و يُقطع علىّ الطريق فى الخروج والدخول وفى الأكل والاغتسال لأضرب موعداً ، وأنا أتحـايل بالشمس والسحاب والظل والنور ، حتى اذا كان يوما من الأيام قبل سفرى عزمت على أن أجعل لهذا الأمر حدا فحددت الساعة وشروط التصوير . فكان يوماً حافلا تركت فيـه مدام كوفمان شئون البيت وامتنع زوجها من الذهاب الى السوق لشراء

الفراخ والبطيخ ، وتعصب الأطفال عن القيام بأية مهمة خارج نطاق البيت .

واختفت مدام كوفمان بضع ساعة تتزين وتصفف شعرها المنكوش وتغير ملابسها وتضع شيئاً من المساحيق فى خفية من أولادها ، وساد الهرج والمرج فى البيت ، وجلس النازلون فى ظل جدار المطبخ ينتظرون اتمام هذه الحكاية . وجلست والأحدب فى غرفتنا ، وأخذ الأطفال يمرون علينا و يرمقوننى باعتبار واعجاب عظيم ، وكنت أثير فيهم هذا الدهش فامسك بآلة التصوير وأقلبها وأدقق النظر فى بعض أجزائها أو ادوس مسمارا من مساميرها كأنما أدرس أمرها قبل أن أقدم على هذه المهمة الجليلة !

حتى اذا سئمت المهزلة ناديت على الام العجوز فتجمع الاولاد والاطفال والاقارب ، الا أن الاحدب الخبيث أحس بسوء القصد بسبب الحاحى والحافى عليه فأبى أن يتزحزح من مكانه وان تصدر الصورة كما أردت .

ومرت ثلاثة أشهر حتى رأيت هذه الوجوه مسجلة على الورق فى القاهرة

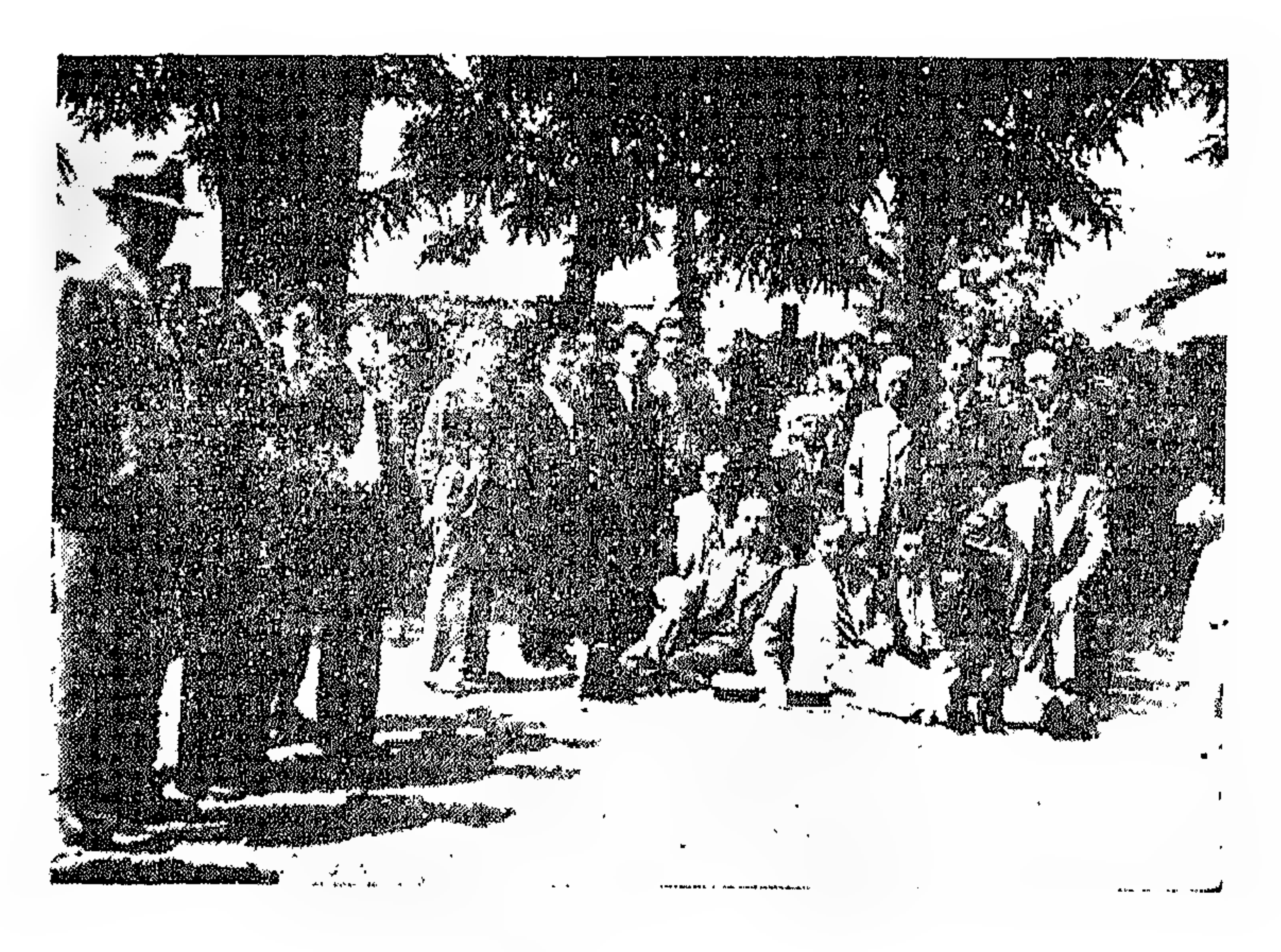
جامع كارول ..

جامع الملك كارول !

كما تقول كتدرائية السلطان عبد العزيز !

لعل أروع ما فى هذا الجامع اسمه ، مثل بديع لمابلغه التسامح الدينى فى العصور الحديثة ، فكارول الأول مجدد رومانيا لم يردالا أن يتوج اسمه على جميع منشئاته : على القناطر وعلى الحدائق وعلى المدارس ثم على الجوامع !

وجامع كارول (أو قارول كما يريد الشيخ حافظ أن ينطقه) من



جماعة من المسلمين الرومانيين

أفخر بدائع الأبنية فى كونستنزا ، وكما انك لا ترسم صورة للقاهرة بدون القلعة وللبندقية بدونه سان ماركو كذلك ليس لك أن تخفى مأذنة هذا الجامع إذا سجلت صورة لكونستنزا .

زرت هذا الجامع ليلة ان تركت هذه المدينة فى صحبة الشيخ حافظ . وقبل أن أزور معك هذا الجامع دعنى أقدم لك الشيخ حافظ

الشيخ حافظ هو : الشيخ حافظ بن عبد العزيز بن عبد الرحمن امام جامع حنكار بقسطنجة .

والشيخ حافظ من الشخصيات الممتعة ، من الشخصيات التى تتميز بها المدن ، والتى تترك خلفها فراغا إذا مارحل عنها أو بعد منها . تراه فى كل مكان من المدينة ، ويعرفه كل مواطن فى المدينة ، ويندمج بين جميع الأوساط والجماعات .

وله من خلقه مايدعو للاحترام ، جسم نحيل وقامة ممدودة ووجه مهضوم وذقن صغيرة بيضاء وعين فاحصة وثغر باسم . يلبس بدلة غامقة رمعطفا أسود ، وطربوشا عليه عمامة بيضاء ناصعة هى لباس رجال الدين من المسلمين على الدانوب .

لايهبط مصرى كونستنزا حتى يعرفه الشيخ حافظ وحتى يصف

اله جامع حنكار ، وحتى يربط معه موعدا هو عادة أحد مقاهى ميدان أوفيد .

لقد اكتشفت الشيخ بعد ساعة من وصولى هذه المدينة ، ولم يمض يوم حتى عرفته وحتى ضربنا موعداً ، كان هو أحرص عليه منى فقبل عذرى عن التأخير عشرين دقيقة . وسرعان ما دلفنا إلى الحديث وتشعب بنا الكلام وتبادلنا السؤال والجواب وهو يتدفق ولا تفرغ له جعبة فى الحديث . وهو فى سؤاله كطالب العلم الحريص على كسب المعرفة ، وهو فى جوابه عاطفى متحمس كأنه يدلى بشهادة أمام القضاء .

والشيخ لا ريب يتكلم العربية الفصحى ! العربية الفصحى التى يتكلمها غير أبناء العروبة ! والتى قد يتشكك فى فهمها كثير ممن ليس لديهم الصبر أو تعوزهم المقدرة على فصل أجزاء الكلام ومراجعة معانيه واستنباط مراميه ، وعدم التدقيق فى فهم كل لفظة وكلمة تبدو فى الحديث بدون معنى أو غرض .

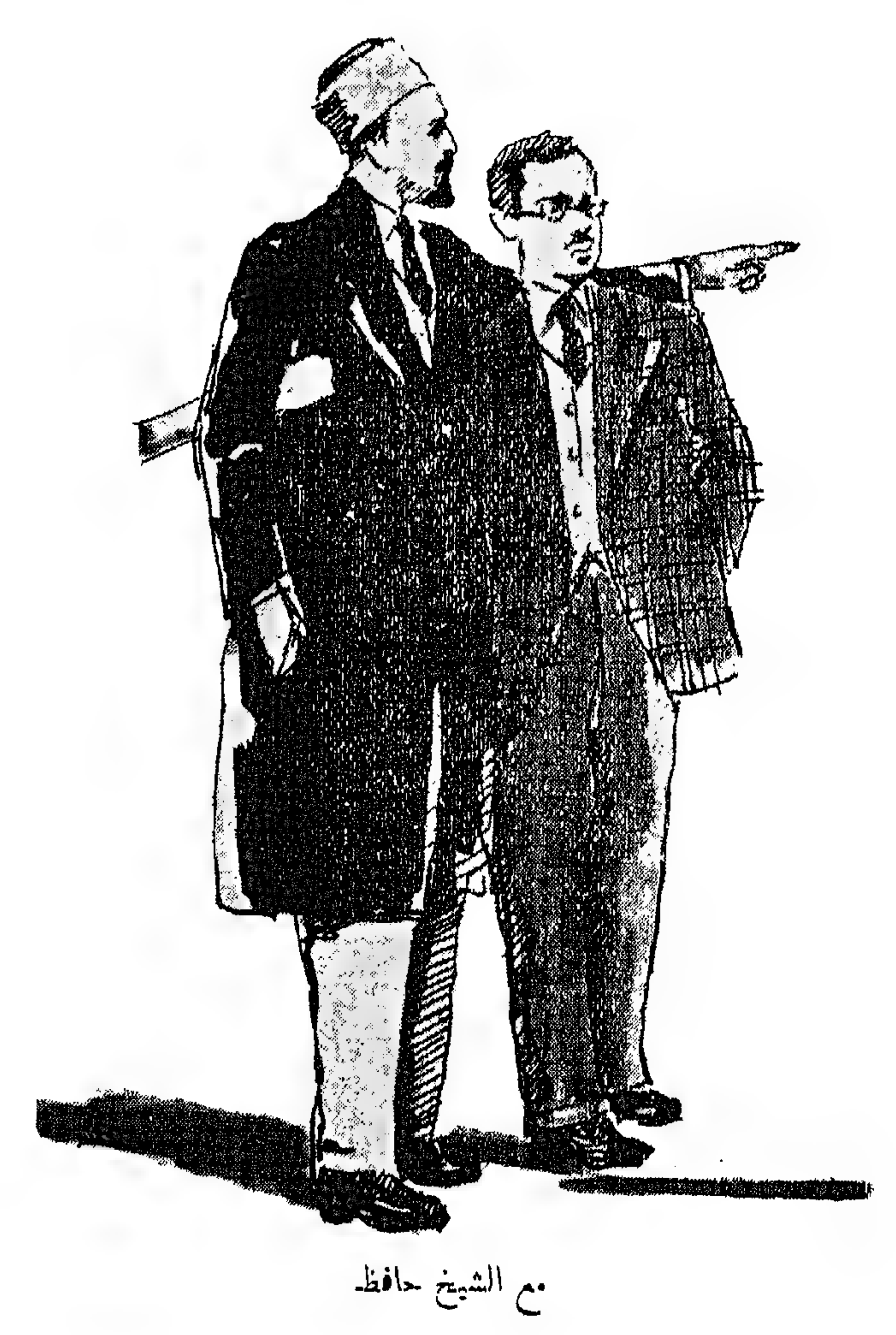
والشيخ حافظ واثق بعربيته كل الوثوق ، فهو لا يفصل بين كلماته وجمله بل يتدفق كالبحر ، وعلى سامعه أن يلتقط ما يستطيع فهمه منه . وهو كغيره من رجال الدين فى البلقان قد درس العربية فى اسطنبول حين كانت اسطنبول عاصمة الخلفاء ، وهذه العربية

التركية التي فعل بها الزمن وقلة المران فعلته ، فتداخلت الواحدة في الأخرى واستعيضت فيهـا اللفظة العربية المنسية بأخرى تركية ، حتى برزت من هذا الخليط لهجة جديدة لا هي بالعربية ولا بالتركية !

ولا شك أن الضمائر العربية قد تسرب بعضها من ذهن الشيخ فاختلط ضمير الخطاب بضمير المتكلم ! فكان إذا ما ردد في معرض المجاملة جملته العزيزة « حظرتنا مسافر ونحن مقيم » كنت أظن أن الشيخ قد عقد النية على السفر ، حتى تبين لي المقصود بضمير المتكلم هذا . ومن عادته إذا سمح لمستمعه بالحديث أن يردد كلمة أخرى من كلماته العربية التركية « تفظل ، تفظل » يكررها حتى تبدأ في الـكلام فعلا .

وحب الشيخ حافظ للزائرين من المصريين حب عميق كما رأيت يكلفه في بعض الأحيان المال والوقت والجهد في تحقيق رغبته هذه أو القيام بواجب الضيافة، ولـكنه يرى أنه خير صلة بين هؤلاء الضيوف وأبناء جلدته فهو لا يعمل على توسيع دائرة هذه المعرفة بل يكتفي بنفسه راضيا أن يقوم وحده بأعباء المجاملة !

وحب الشيخ العميق للضيوف يساويه حبه لجامعه هنكار . وإذا عرفت أن هذا الجامع ليست له الروعة التي لجامع كارول



مع الشيخ حافظ

الآنف الذكر ، واذا عرفت أن الشيخ لا يذكر اسم هذا الجامع الا اذا تورط فى الكلام اذاً لعرفت مبلغ الحب عند بعض النفوس .

وجامع حنكار هذا مسجد أثرى قديم ، لهذا يطلقون عليه اسم الجامع العتيق ، وقد بناه السلطان عبد العزيز لهذا يطلق عليه الشيخ (أيضا) اسم الجامع العزيزى . فالجامع كما ترى له ثلاثة أسماء وجملة اشتقاقات .

وقد تمر على الجامع عشرات المرات ولا تعرف طريق الدخول اليه مع انك ترى منارته من الطرقات المحيطة به ، ذلك لأن مدخل هذا المسجد يقع بين أبواب متاجر شارع كارول فلا تكاد تميز الكتابة التركية المنقوشة على رأس هذا المدخل بين لوحات المتاجر الملونة .

حتى اذا قطعت السرداب استقبلتك حديقة أثرية كالبناء ورأيت المسجد قائما فى وسطها لا يلتصق به شىء ، تعتلى درجاته الى صحنه ، وقد زينت جدرانه بزخارف عربية وآيات من القرآن مرسومة وليست منقوشة ، ورأيت بعض الثريات وقناديل الشمع وكراسى القراءة . وهو فى قدمه وفى بساطة نقوشه و بنائه كبعض مساجد القاهرة المحلية الصغيرة .

زرته عصرا والشمس الغاربة قد أرسلت خيوطها الصفراء والحمراء الى المصلين فى المسجد من خلال نوافذ المسجد العالية ، فمنحت صحن الجامع روعته القديمة التى ذهب بها العفاء .

* * *

أما جامع كارول فقد بنى فى القرن الاسبق ، ويخبرك الشيخ حافظ بأنه كلف سبع ملايين من الفرنكات الذهبية ؛ وكان فى مقام هذا المسجد جامع ومكتب وحمام من أيام السلطان محمود منذ نيف وخمسين ومائة سنة .

والجامع مبنى من الحجر ومكسى بالرخام الملون البديع ومزخرف بالنحاس والمعدن ، أثاثه من الخشب المطعم والفضة المنقوشة والحرير الشرقى ، وفرشت أرضه بسجاجيد فارسية رائعة وتدلت من سقفه الثريات .

وفى نظامه يحكى أيا صوفيا وغيره من مساجد اسطنبول وقد نقشت على أركانه أسماء الخلفاء الراشدين ، وزخرفت قبلته بآيات رائعة من الخط العربى .

وهذا الجامع تنفق عليه الحكومة بخلاف جامع هنكار الذى يعتمد على أوقاف المدينة الاسلامية ، وهى تبلغ كما أخبرت مليونا من الليات . والصلاة فى جامع كارول ليست الا فى أيام الجمعة

والأعياد وما اليها . وفى مدخل المسجد صندوق للنذور بجانبه دفتر مفتوح للزيارة وهو تقليد معروف فى جميع بلاد البلقان .

* • *

بعد ذلك صحبت الشيخ حافظ الى المدرسة الاسلامية فى كونستنزا أو (مكتب اسلام) كما يطلقون عليه . وهى بناء عربى جميل بعض الشيء ، جلنا فى طبقاته الثلاثة ، وكانت حجرات المدرسة مغلقة اذ كنا فى أخريات الصيف ثم استرحنا فى غرفة ناظر المدرسة (وقد زينت بصورة لمصطفى كمال فى زيه القديم) كما زينت كل حجرة من حجرات المدرسة بصورة لملك رومانيا ، وختمنا هذه الزيارة بصورة سجلتها للشيخ حافظ أمام المدرسة ، وقد أخذت الشمس الغاربة تختفى ، فجاءت الصورة حزينة ، وان لم يكن الشيخ قد رآها وشاهد فيها هذا الحزن .

وفى مساء ذلك اليوم قضيت الليل الى منتصفه فى كازينو المدينة وهو بناء جميل حديث يشرف على مياه البحر الأسود تعزف فيه موسيقى راقصة. وفى ذات ليلة جرت فيه مأساة من مآسى الشباب، ومجمل الخبر أن بعض أصدقائنا ممن ترجمت لهم فى صدر الكلام، قد أوقع فى روع بعض الزائرات — والحقيقة أن رفقاءنا الأفاضل قد أوقعوا فى روع هذه السيدة — أن هنالك حبا أو شبهة حب

بينها و بين هذا الصديق وانه قد أجمع رأيه على الزواج منها قبل أن يرحل فى غده إلى مصر ، وانه صمم على أن يصحب هذه السيدة معه !

لقد كان عجبا أن صدقت هذه السيدة كل هذا ومن العجب أن صديقنا لم يجد فى نفسه جرأة لتكذيب هذا الادعاء فتعقد الأمر واتخذنا ذلك فرصة للهو ، حتى تركنا هذا الصديق فجأة دون سلام أو كلام ليضع حداً لهذه المأساة المضحكة .

***

وفى قاعة الكازينو الكبرى عرض بعض المصورين نماذج من فنه نثرها على جدران القاعة الدائرة ، تنقلت بينها وتنقل خلفى مصورها ليستطلع رأى هذا الغريب عن فنه . والحقيقة اننى جاهدت نفسى لأتريث قليلا أمام بعض هذه اللوحات ، التى لم يكن يؤخذ عليها إلا انها محاولات تلميذ فى القسم الليلى لمدرسة من مدارس الفنون التجارية !

ولهذا الكازينو ذكرى ثالثة فى نفسى هى مغالطة جريئة لخادم من خدمه لم أرد أن أحاسبه عليها إلا من بعد ليلة كاملة إذ لم يكن المجال ليتسع للجمع والطرح ومراجعة قائمة الأثمان ليلتئذ . وهذه المغالطات هينة كما رأيت فيما بعد .

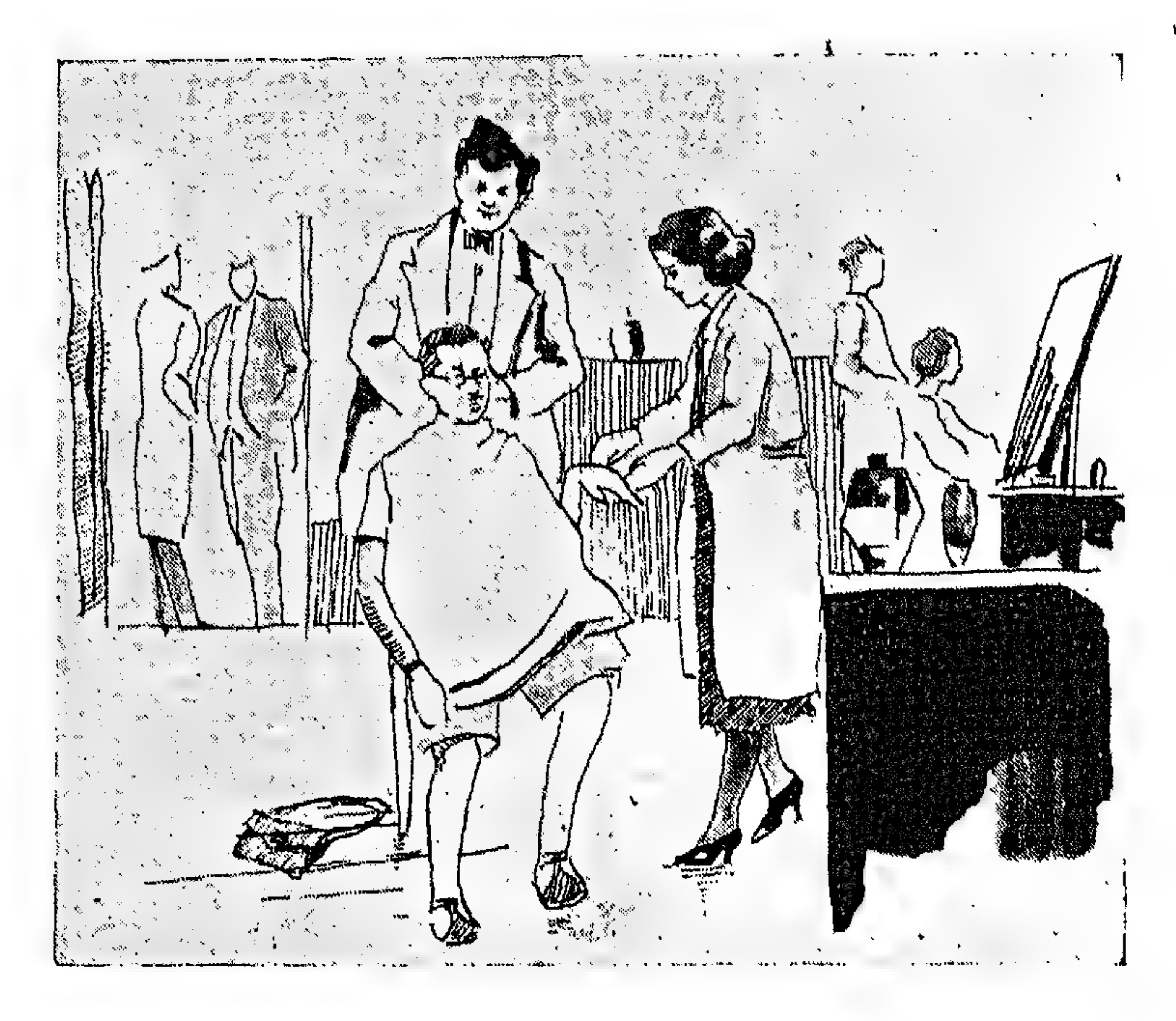
وهذه المغالطات الصريحة ليست مما تشرف صاحبها ، اذ تنقصها البراعة والكياسة و يعوزها الابتكار

ومن الشخصيات الطريفة التي عرفتها في كونتزا في هذا الصدد شخصية المعلم محمد أو الأسطى محمد صاحب صالون للحلاقة لا بأس في شارع المدينة الأوسط .

مررت به ذات يوم فأقبل على دون معرفة سابقة وصافحني بشوق ولهفة ، اذ عرف بعينه الواثقة بأنني مصرى أو عربى مسلم . وأقبل على يسألني عن مصر وعن شئون الشرق ، وقدمني الى أخيه ولم يرد الا أن يضاعف في اكرامي فاقسم الا أن يسقيني فنجانا من القهوة التركية البديعة .

ولم يقبل عذرا أو رجاء حتى أبدل ملابس البحر وأعود اليه ، بل جذبني الى بعض الأحواض ودفع رأسي تحت الماء حتى اذا انتهيت لف رأسي بمنشفة كبيرة ورش شعرى ببعض العطر . ثم نظر الى صدغى وهرش بيده على مؤخر رأسي وأغمض عينا وفتح الأخرى كما يفعل الفنان عند ما يقف موقف الناقد لفنه ، ثم طلب مقصا وآلة الحلاقة وراح يهذب و يزخرف ماشاء له ذوقه بعد رأى استكانتى إذ شعرت بعجزى فى اقناعه .

وأجمل ما أذكره له بالخير سرعة أصابعه ، فكان مقصه



دعوة بالاكراه

يعمل فى كل اتجاه دون هوادة أو تباطؤ كما عودنا المزينون . فلما انتهى أو كاد أسلمنى الى فتاة قبضت على يدى لتقلم أظافرها كمن يحاول صيد فريسة تمعن فى الهرب ، وانتهى التقليم الى الدهان والتلميع . حتى اذا فرغت عاودت تعطيرى وأسلمتنى الى صبى راح يساعدنى على ارتداء ملابسى وتنظيفها

وكانت هذه الاجراءات متلاحقة مشتبكة حتى لم احس بالملل يتسرب الى نفسى أو الوقت لأرفض واحدا منها . حتى اذا استويت على قدمى لحت القهوة فى انتظارى بجانب مقعد السيدمحمد فأقبلت عليه شاكراً وهو يزور عنى حياء وانصرف الى زبائنه وعمله ، فقلت فى نفسى نعم المضيف وحبذا الكرم الذى يورث الحياء فى النفس ويجعل الضيف سيد البيت !

وكان لى أن أرد صنيعه فأخذت أفكر فى أن أجزل العطاء الصبيانه ، وأخذت أعد الصبيان وأعد ما فى جيبى بأطراف أصابعى وما كدت أنتهى الى رأى ، حتى أقبل على السيد ودفع الى قصاصة ورق دون فيها :

« .. أربعون ليا أجر تواليت.. »

أسرعت دون كلام وأخرجت النقود التى كنت أعدها فى جيبى ووضعتها على القصاصة . وخرجت وأنا أبتسم من الدهشة أو الغيظ لا أعرف ...

كانت ليلتى الأخيرة فى كونستنزا حافلة بزيارات ومقابلات محورها الشيخ الحافظ عبد المجيد، ولم أعد الى مدام كوفمان الا فى ساعة متأخرة من الليل فاعددت حقيبتى ورتبت أوراقى ، ثم انى رجوت مدام كوفمان أن توقظنى فى الساعة الخامسة صباحا وهكذا كان ، فكان ذلك خير ذكرى لها فى نفسى ، ولعله كان وعدها الوحيد الذى أخلصت فيه وبرت به . بيد أنها لم ترد أن تجعل هذه الذكرى حبيبة إلى نفس ضيفها النازح ، كما تقضى بذلك تقاليد الضيافة أو تقاليد التجارة المحضة . وذلك انى عندما أعددت حقيبتى فى الصباح تفقدت المرآة فلم أجدها !

وهل هنالك من شك فى أن مدام كوفمان أو احدى بناتها قد أخفتها ؟ لقد علمتنى التجارب أن التردد معناه ضياع ما أبحث عنه . لهذا لم أسأل مدام كوفمان عندما أيقظتها مرة أخرى فى هذه الساعة المبكرة عما اذا كانت قد رأت المرآة بل انى طالبتها بها بعنف كأنما قد رأيتها وهى تخفيها فى حجرتها ! وقد صدق حدسى اذ أنها سرعان ما فتحت نافذة الحجرة وناولتنى مرآتى الضائعة !

أما صديقى الأحدب فقد استيقظ منذ أن بدأت أعد حقيبتى

ولكنه لم يتحرك وراح يراقبنى بعين نائمة علنى أعتدى على شىء من أثاث الحجرة أو من مخصصاته ، وأكبر ظنى أنه كان يراقبنى لكى يتحقق من أنى نسيت بعض أوراقى أو ملابسى

ثم أنى لم أتركه فى تنوامه بل أيقظته لأطلب منه عودا من الثقاب ، وماذا تنتظر من هذا البولونى الشريد الا ان يتعذر بدلا من أن يقدم لك عودا من الثقاب لأنك على سفر ؟ ! وهو الذى كان يستعير منك علبة كاملة كل صباح وكل مساء ! !

ثم خرجت الى ساحة البيت وقد بدأ الصباح يتفتح وأنا أتمايل من ثقل حقيبتى التى لم أجد من يحملها حتى وصلت بعد جهد الى المحطة المجاورة .

شارنافودا

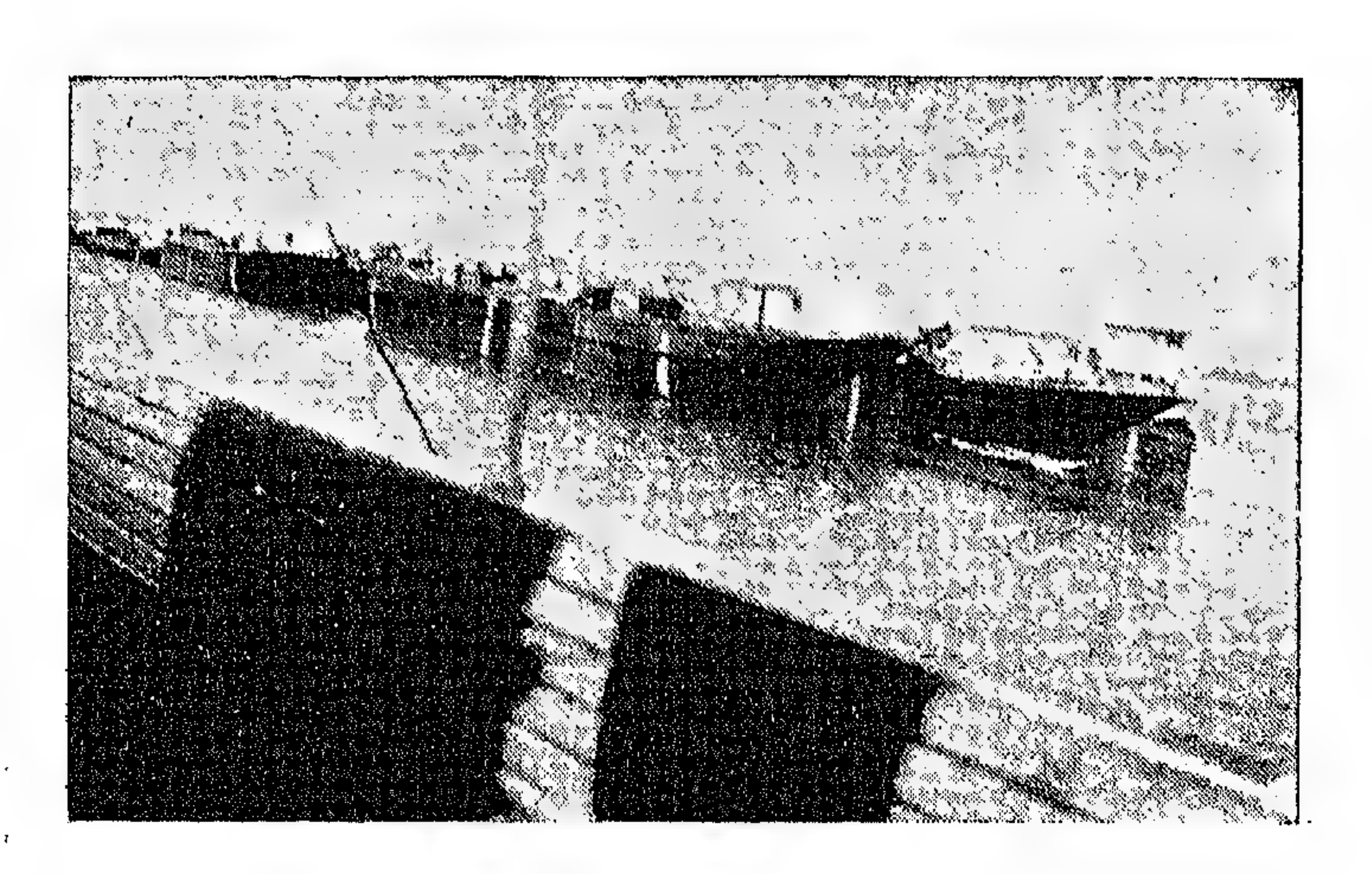
كانت رحلة القطار من البحر الأسود إلى الدانوب أو من ميناء كونستنزا الى قرية شمارنافودا ممتعة بعض الشىء فى هذا الصباح الباكر ، بيد أنى كنت مجهدا متعبا فحاولت النوم بعد أن تناولت قدحين من الشاى الساخن الذى أعددته فى البيت .

وليس فى القرى التى تمر عليها فى الطريق الى الدانوب مايستأهل الذكر ، اذ ما يعنى القارىء أن قطارنا وقف فى ميكافورا أو سالنجى

أو غيرها مما يجهله الرومانيون أنفسهم ! ولعل هذه القرى حديثة العهد بالانشاء اذ أن اسم هذه المحطة الأخيرة قد كتب بهجاءين مختلفتين على رصيف المحطة ؟

ثم بدأ الدانوب يقترب ، ثم بدت قنطرة كارول ، القنطرة الوحيدة التي ترتفع على مياه الدانوب فى رومانيا جميعها ؟ ثم بدت شرنافورا فى سفح الوادى تكتنفها غابات خضراء من كل مكان ، وتتوسط بيوتها البيضاء مأذنة بيضاء تبدو كالأسهم الدقيق تحت أشعة الضحى .

لم يتخلف فى شرنافودا أحد سواى من المسافرين ، اذ أن هذا القطار الذى يسير فى الصباح المبكر لا يحمل عادة الا المسافرين



الدانوب من الباخرة النهرية

الى بخارست وبالطبع لم نجد كذلك من يستقبل هذا القطار فى محطة شرنافوده الضيقة التى كانت خلوا حتى من حمال لمساعدة النازلين .

وما أن تركت القطار ووضعت حقائبى على رصيف المحطة وأخذ القطار يبتعد بضوضائه حتى بدأ سكون شامل فلا تحس صوتا ولا حركة اللهم الا حفيف أشجار الغابات التى تكسو الدانوب فى هذه البقعة. ولما لم تكن لدى فكرة معينة عما أنا صانع ، حاولت أن أتخذ من عامل المحطة صديقا ورفيقا أو دليلا لهذه الزيارة .

وكان ذلك سهلا ميسورا اذ أن الرجل فى وحدته كان يبحث بدوره أيضا عن سمير ، ولا شك أن هذا السمير مرغوب فيه اذا كان أجنبيا محملة جعبته بالأحاديث والأخبار الطريفة ، وما أن سألت هذا الموظف من وراء نافذة التذاكر عن موعد سفر البواخر النهرية حتى رجانى أن أزوره فى حجرته

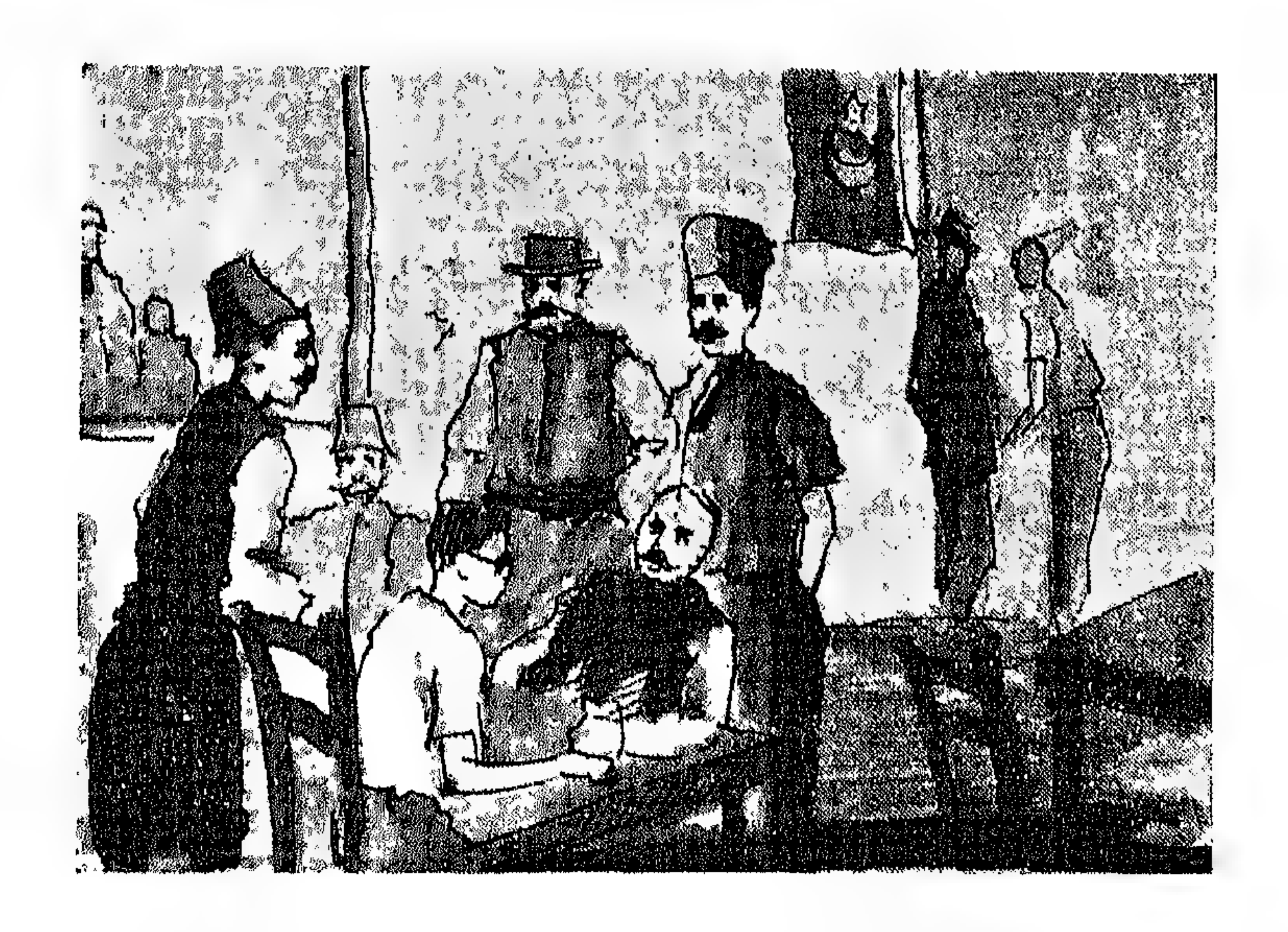
فحملت حقائبى الى باب الحجرة الخلفى حيث استقبلنى ورحب بى وأفرد لى مكانا ثم بدأ كما هو منتظر — فيضا من الأسئلة ككل غريب تصادفه فى مثل هذه الرحلة ، وبعد أن قضيت بضع ساعة خلفت المحطة بعد أن استودعت صاحبى الحقيبة حتى المساء .

كان الطريق الى القرية منحدرا حتى لا تكاد تثبت قدمك في النزول، فالمحطة في قمة الوادي بينما شرنافوده في باطنه، وكنت حريصا أن أدون كل مشاهداتي عن هذه القرية وأن أجمل دراستي عن الدانوب كاملة شاملة، فسألت عن مصنع الحديد الذي مررت به وعن أصحابه وعن منتجاته بل فكرت في أن أزوره، كما دونت في مذكراتي شيئا عن صناعة القلابق من الجلد وعن معمل البترول وغير ذلك مما يعني الاقتصادي ولكنني وجدت أن هذه الذكريات سقيمة لا تعني القارىء ولا تلذ حتى لنفسي .

وكان أول ما فكرت فيه أن أتصل ببعض المسلمين من سكان شرنافوده وكانت غايتي أن أتقصى عن نوع الحياة التي يعيشونها في هذه المنطقة من الدانوب . أما عن سبيل ذلك فقد تشبهت بابن بطوطة الذي كان اذا كان هبط بلدا جديدا راح الى جامع يصلي العصر ويتخذ ذلك وسيلة للتعارف من أهل هذا البلد . ولم يكن الوصول الى مسجد القرية بالأمر العسير اذ لا يوجد في شرنافوده الا شارع رئيسي واحد به بعض المقاهي وبه مكتبة ومحل حلوى ومخبز وحوانيت أخرى . ولكن اكتشاف باب هذا المسجد كان مشكلا حقا لأنني بعد أن ذرعت شارع القرية مرات عدة وطفت

حول الأبنية التى ترتفع عليها مأذنة المسجد لم أتمكن من اكتشاف بابه .

ولما كان الوقت ضحى وكنت واثقا من خلو المسجد لذلك رأيت أن أعرض نفسى على بعض الجالسين أمام حانوت من حوانيت الشارع وكانت تدل هيئتهم على أنهم من الأتراك ، وكان الجالس ولا شك أمام المسجد بمعطفه الأسود وطربوشه المعمم فسلمت عليهم فردوا السلام وتقربت من الشيخ مرحبا فصمتوا وصمت وهم ينظرون إلىّ فى ملابسى القصيرة نظرة استغراب



فى قهوة امين شريف

كانت نظرة الشيخ تبدو عليها مظاهر الريبة والشك من أمرى فلعله قد ظننى أفاقاً أو متسولا ..

ولما كانت الجماعة تجهل اللغة العربية وكان الشيخ لا يعرف إلا القليل منها مما يتصل مفرداته بشئون الدين لذلك استعصت بيننا المحادثة ثم أننى أحسست بأنه قد تذكر فجأة شيئا مجهولا وراحوا يرددون اسم (شعبان) و ينادون عليه من القهوة المجاورة ثم أنهم أرسلوا رسولا أو رسولين فى طلبه ففهمت أن شعبان هذا لا شك من العارفين باللغة العربية.

شعبان السورى

كان شعبان هذا لبنانيا بيروتيا ، لا أعرف كيف ساقته رجلاه منذ ربع قرن مضى إلى البلقان و إلى هذا الركن المجهول من الأرض.



(أمام مكتب إسلام)

فعاش شعبــان في شرنافوده وتزوج من أهلها ورزق أولادا و بناتا؛ وزوج أولاده وبناته ثم إنه ولا شك نسى الشام ولبنان وأخذت تتلاشى ذكرياته عن وطنه حتى لم تعد سوى أحلاماً

بعد قليل جاء شعبان هذا حافى القدمين إذ أنه يشتغل حمالا على ما أظن ، جاء فى وسط حلقة من الرسل أو المطاردين على الأصح تتبعهم طائفة أخرى من المتفرجـين والأطفال . وتقدم إلى هاشا باشامسلما مرحبا بلغة عربية ولهجة سورية كادت تضيع معالمها و يذهب طلاؤها اذ أنه لم يستعملها منذ سنين طويلة

وأخذ شعبان يقوم بالترجمـة بينى و بين الجماعة ، و بينى و بين إمام المسجد الذى أخذت شكوكه تضعف وتبدد شيا فشيئا ، ولما طلبت منه أن أزور المسجد قام متثاقلا متباطئا ودار حول زقاق يوصل الى حديقة يتوسطها هذا المسجد

أما المسجد فمبنى على النمط العربى يتـكون فناؤه من حجرة واحدة مربعة قد نقشت على جدرانها كتابة عربية وزخرفت بنقوش اسلامية، وتدلت على حيطانه لوحات عليها آيات قرآنيــة وأسماء الله، ومحمد والخلفاء الراشدين مماجرت عليه العادة فى المساجد التركية . والى جانب المسجد المـكتب الإسلامى وهوكذلك حجرة واحدة واسعة يتعلم فيها أربعون بنتا وولدا ،وكانت على سبورة

المكتب بعض أسماء هؤلاء الأطفال كزينب وفاطمة وعائشة وحسين ومصطفى وعصمت وقدرى من الأسماء المحبوبة بين الأتراك . وبجوار المكتب مقبرة لضحايا الحرب من المسلمين وفى وسط الحديقة ميضأة عربية أنيقة بطل استعمالها من زمن . ولم أرد أن أبرح المكان حتى سجلت صورة للشيخ حافظ محمد وأنا الى جانبه أما مصورنا فكان كذلك شعبان السورى . كما طلبت من الشيخ أن يدون اسمه فى مذكرتى فكتب بالحروف العربية (جرنا و وده أمام حافظ محمد)

في قهوة أمين شريف

بعد أن استأذنت من الشيخ خرجت بصحبة شعبان لنجوس خلال القرية اذا كان فيها مايستحق الذكر . ولم يكن فيها فعلا ما يستحق الذكر لأننا بعد عشر دقائق وصلنا نهاية الطريق فعدنا أعقابنا الى قهوة أمين شريف .

وما أعلن شعبان كعادته جماعة الجالسين بقدومى ، حتى أقبلوا يسلمون ويرحبون بل أن صبيان القهوة تركوا عملهم ووقفوا الى جانبى ينظرون و يتعجبون و يتساءلون وهكذا أصبحت محورالحديث وبطل الساعة ، ولم يكن ذلك فقط بل أخذ السائرون يتجمعون حول الباب و يسألون الواقفين حولى عن حكايتى .

وفى هذه الأثناء كنت أرقب شرطيا ، أو شرطى القرية الوحيد — إذ أننى لم أر شرطيا غيره — كنت أرقبه يتبعنى بنظره كلما سرت . وما أن جلست فى القهوة حتى راح يتخطر و يفحصنى بنظره مليا كلما مر ببابها ، وقد أحسست بأنه يريد أن يفعل شيئا أوأن يقول شيئا لكى يبرر وجوده و يظهر مكانته . وكأنه أحس بأنه حامى السلام فى القرية وإن وراء هذا الغريب ولا شك سراً من الأسرار ، حتى إذا ما وجد من نفسه الشجاعة الكافية نادى على شعبان وأخذه إلى جانب يسأله و يستوضحه عن أمرى شيئا .



(سعادة الصيت . .)

ثم عاد شعبان واختفى الشرطى ولم تمض دقائق حتى رجع من جديد وعاد ينادى على شعبان مرة أخرى ، واحتدمت بينهما المناقشة

والجدل . ثم رجع إلى شعبان يطلب منى جواز السفر ليطمئن الشرطى عن حقيقتى فأعطيته اياه وذهب به الشرطى ساعة ثم رجع وطلب من جديد شعبان إلى الباب ، وأخذا يتناقشان و يتجادلان مرة أخرى وأنا أنظر اليهما بطرف عينى كأن الأمر لا يعنينى .

وعند ما عاد شعبان أخبرنى بأن الشرطى يطلب أن أصحبه إلى مخفر البوليس ، لكى أدفع له مبلغا من المال ضريبة إقامة فأظهرت له العجب وغرابة هذا الطلب ، إذ أننى قد استكملت كل شىء منذ وصولى إلى رومانيا . كما أفهمته أن هذه الضرائب لا تجبى الا عند الحدود أو فى الموانى ، وما شرنافودة إلا قرية فى صميم قلب رومانيا.

ثم أبديت للشرطى الامتعاض من سخافة طلبه ، وأفهمته بأنى لا أبرح مكانى حتى إذا انتهيت من راحتى لأنى كنت على يقين من أن هذه ليست الا محاورة شرطى قروى يحاول أن يخلق لنفسه عملا فى مكان هادىء آمن مثل هذه القرية لا يعرف طريقها غريب أو زائر.

و بعد أن انتهيت من مجلسى قمت بصحبة شعبان الى حيث مخفر البوليس، فأخبرنى الشرطى بأنه خال اذ أن الضابط خرج للغذاء ، ثم دلنى على مكان ذلك الضابط فاذا هو مقهى فى طرف الشارع قد توسطته مائدة للبليارد وكان الضابط يلعب مع بعض الجالسين . ولعل انهماكه فى لعبته كان أشد من عنايته بأمر الجواز لأنه سرعان ما رده الى شاكرا .

ولما لم أجد ما أفعله بعد أن جست خلال القرية فى عشر دقائق تناولت الغذاء فقدمت الىَّ نصف سمكة كبيرة لا يقل وزنها عن رطلين ولم يزد ثمنها عن عشر ليات أو ما يزيد قليلا عن قرش واحد.

و بعد ذلك بساعة رجع الى شعبان لنجول جولة أخرى فى القرية ، فذهبنا الى السوق واشترينا بطيخا وعنبا و بيضا ثم عدنا الى قهوة أمين شريف حيث انتظرت شعبان ليسلق فى بيته البيض فغاب ساعة حتى بدأ الشك يتسرب الى بأن شعبان قد هرب بالبيض ، وأخذت أعجب لسوء بصيرته اذ انى كنت مزمعا على نفحه ضعف ثمن هذا البيض . حتى اذا ما بدأ الشك يستحيل يقينا وفكرت فى مغادرة القهوة الى المحطة اذا بشعبان يعود بالبيض وقد تبعه طفلاه ، وكان الفرح عظيما بقدومه و بالبيض الذى كنت فى حاجة اليه .

و بعد أن نفحت كلا من ولديه بضع ليات (كما نفحت أطفالا له اخرين فى الصباح) سرت واياه الى المحطة لحمل حقائبى مودعا الجالسين فى القهوة . ثم أننا بعد أن استرجعنا الحقائب من المحطة انحدرنا الى الدانوب فى طريق ضيق ملتو تحفه الغابات حتى وصلنا الى ضفة النهر وقد ارتفعت عليها قنطرة كارول بقامتها الشاهقة ، حتى ان القطار الحديدى كان يبدو فى قلبها لعبة من لعب الأطفال .

وفى الساعة السادسة وقد بدأت الشمس تختفى وراء مرتفعات شرنافوده وغاباتها أخذ دوى الباخرة النهرية يبدد سكون الوادى ، وأخذت طوائف الفلاحين والقرويين تتجمع عند المحطة النهرية الصغيرة لتأخذ طريقها الى بلاد الدانوب الجنوبية .

الدانوب فى الليل

كان وداعى لشعبان سليمان أروع وداع ، فما وضع حقائبى فى الباخرة النهرية وأقبل يسلم على حتى أحسست بأنى أودع صديقا قديما عرفته منذ طفولتى ، وأحسست بأن الدموع كادت تنفطر من عينى وهو يتمتم بكلمات الشكر والدعاء والسلام . وعندما تحركت المركب خلع قبعته وراح يلوح بها فى الهواء بحركات لا شك فى أنه لم يعمل على تكييفها أو اصطناعها

و بدأت حركة حمل البضائع ورفعها من المركب الى الشاطىء وأخذ الفلاحون والفلاحات بثيابهن الفضفاضة و بسراويلهم القذرة يحتلون أماكنهم حول حواجز المركب ، وكانت الى جانبنا أرفاث لحمل الماشية والعربات يديرها عمال بواسطة مراوح كالطنبور المعروف فى مصر ،وكانت الى جانب ذلك مراكب لحمل الأخشاب والفحم يعمل فيها فتيات لبسن على رؤوسهن قلانس سوداء تنزل على

أكتافهن وتلطخت أيديهن بسواد الفحم حتى لا يكاد يميز الرائى أنهن من الجنس اللطيف



(رفاق السفر من شرنافوده)

ثم بدأت أجراس المركب تدق فى بلاد طال النزاع فيها بين الرومانيين والبلغاريين والترك ومازالت تعيش فيها هذه الجنسيات الثلاثة متنازعة متنافرة — هذه هى دبرجا

ولما كنا فى أخريات شهر أغسطس فقد كانت مياه الدانوب حمراء كأنها مياه النيل الفائضة ، ولم يكن الدانوب اذ ذاك قد بلغ

نهاية فيضانه ، ولعل أشعة الشمس الغاربة قد زادت من حمرة المياه المتدفقة . وكان النهر فى ذلك المكان يشق عالمين و يفصل بين دنياوين احداهاجرداء مقفرة والأخرىعامرة آهلة، فكان الشاطىء الغربى من النهر سلسلة من الجزائر المتصلة مغطاة بأشجار خضراء داكنة ، وكانت هذه الجزائر بجروفها الطينية السوداء أشبه شىء بجزائر اليونان عند ما تمر عليها فى ظلمة العشية . أما الشاطىءالآخر فكان أجرد بتربة حمراء زاهية اللون ، ولاشك أن هذا الاختلاف بين عبرى النهرقد زاد من جماله، وقلل من سآمة المسافر لمرآى مناظر الشاطىء المتكررة المتشابهة .

و بعد ساعة وصلنا الى قرية نهريةتشرف على تل منحدر

وعندها ترك المركب عدد كبير من النازلين ولم يأخذ مكانهم أحد فهدأت بعض الأصوات والجلبة التى كانت مرتفعة بين جوانب المركب منذ أن تركنا شرنافوده . ولم يكد النازلون يتركون المركب حتى سرنا مرحلة أخرى الى قرية حيث هبط علينا عدد وافر من الوافدين بصناديقهم ولفائفهم .

والى جانب هذه القرية يخرج فرع من فروع الدانوب فكان يبدو وكأنهقد رسم أو شق بيد مهندس لاأن الطبيعة قد شقته على

طريقتها المألوفة . وكنت منذ أيام المدرسة الابتدائية عند ما كنت أدرس الاصطلاحات الجغرافية أفكر فى مدى صحتها ومطابقتها للحقيقة والواقع فكنت أقبلها على حذر وشك اذ ما كنت أظن أن الطبيعة تدقق فى صنعها كما فعلت فى شق هذا النهير وقد رسمن على جانبه مثلثين منتظمين خضراوين . وعند ما بدأت ظلمة المساء تطغى على النهر تحولت بناظرى من النهر الى المركب والى رفاق المركب

وهذه المراكب النهرية التى تسير فى رومانيا ذات درجتين وكانت نصيبى الدرجة الثانية فى هذه المرحلة من النهر ، ولا شك أن ما وجدته من ضيق بين هؤلاء الفلاحين المسافرين ، قد أتاح لى فرصة ومنحنى مادة فائضة للكتابة عن أهل رومانيا .

كان أول ما أثار عجبى منذ وطئت المركب ، تلك الأقفاص والصناديق المحملة بالدجاج والأوز والبط ، وأكثر من هذا صناديق الخنازير الصغيرة ولعل حمل هذه المخلوقات مهمة من مهمات هذه المراكب ، إذ خُصصت لها ناحية من نواحى المركب لم تفصل بينها وبين حجرات المسافرين ، ليس لك أن تتحاشى أقفاص الأوز وصناديق الخنازير إذا أردت أن تجول جولة حول أركان المركب .

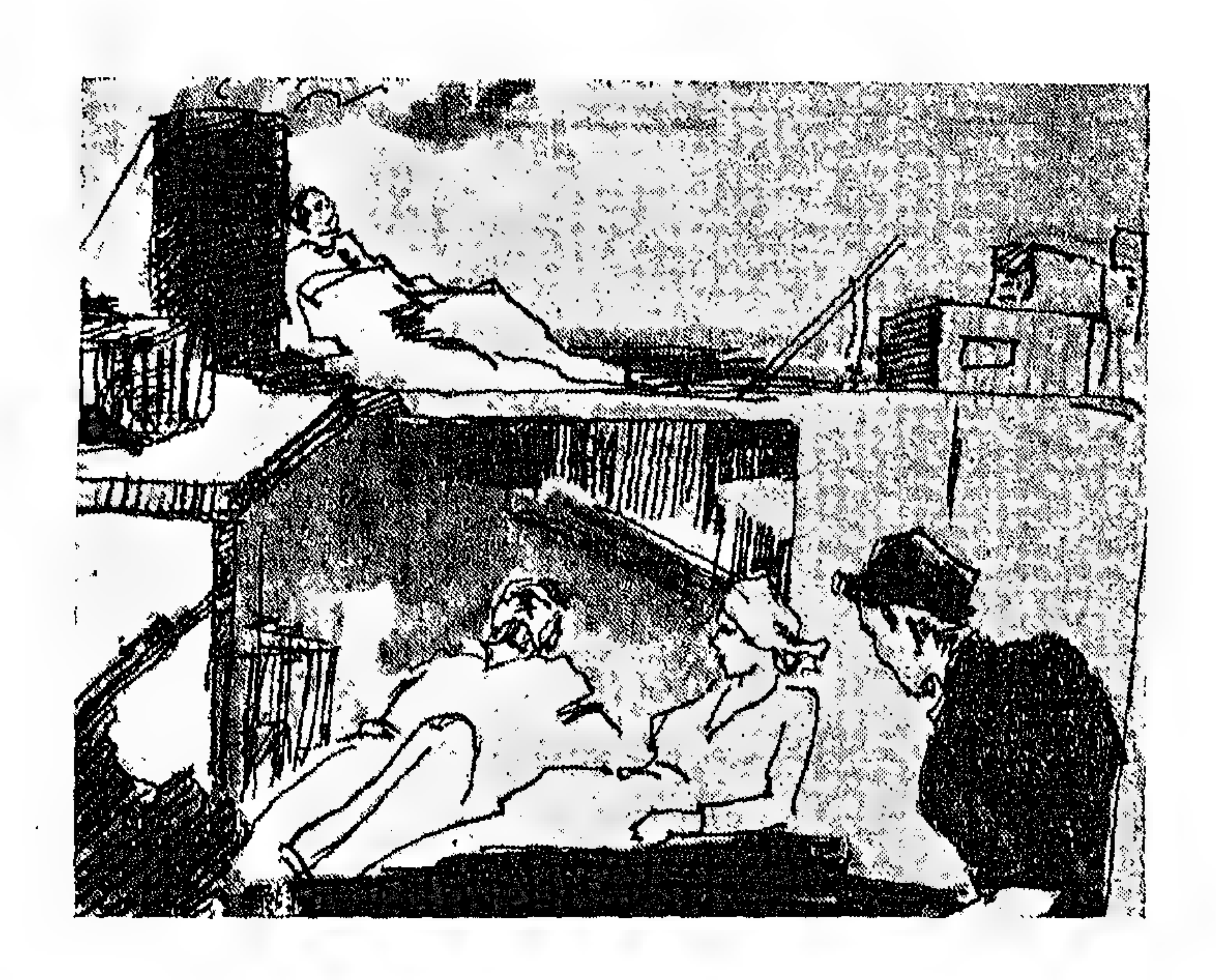
وما كاد يتقدم المساء حتى أخذ البرد يشتد بعنف ، فلم أجد

بدا من أن أبحث عن مقعد فى الحجرة الواسعة التى قد امتلأت مقاعدها ومناضدها بالخلائق من رجال ونساء وأطفال يقظى ونائمين، وكان هذا الخليط من الناس ، وكانت الرائحة المنبعثة مما يحملونه فى أقفاصهم وصناديقهم ولفائفهم من ألوان الأطعمة وما اليها ، لم يكن ذلك كله بالشيء المرغوب فيه أو الذى يمكن احتماله .

ولما كان تعب ذلك اليوم قد أخذ منى مأخذه لم أرد إلا أن أريح قدمى ولو الى حين ، على أن أنزه عن خاطرى بقراءة ما أحمله من كتب ومجلات وصحف ، فوضعت بعضها على المنضدة تحت عيون الجالسات النائمات وجمع من الصبيان الذين وجدوا فى ذلك فرصة للتقرب منى ، فراح بعضهم يستعير شيئا من هذه المجلات الألمانية ليقلب صورها أو يقرأ عناوينها ، ثم تعاقبت المحطات وتوالت حركة الصاعدين والقادمين واشتد الحر من تجمهر هذا الجمع من النائمين حتى أحسست كأننى أختنق فلبست معطفى وتزودت بملحفتى الصوفية و بقفازى الجلدى وخرجت الى أعلى المركب ، وكانت الساعة اذ ذاك منتصف الثانية صباحا وقد بلغ البرد درجة الصفر أو كاد . بيد أننى وجدت ملجأ من هذا البرد الشديد فجمعت ما بين طلاقة الهواء ودفئه، ذلك أننى اكتشفت أن مدخنة الباخرة ما هى إلا مدفأة هائلة لا تبرد ولا تهدأ ، وأن الجلوس

الى جانبها متعة من المتع الغالية فى هذا الصقيع وعجبت من أن أحدا لم يكشف هذا السر، فخلعت معطفى وفرشته على أرض المكان وتمددت الى جانب المدخنة فى راحة وهدوء بال، ولا أذكر انى قد نمت مرة بمثل هذه الراحة ولم أستيقظ الا عند الفجر الأول .

وكان أول ما فعلت أن بحثت عن حقائبى لأعد نفسى للافطار فاغتسلت وأخرجت أدوات الحلاقة وكان المنظر ولا شك غريبا بين هؤلاء الفلاحين ، الذين لا تعرف ذقونهم الحلاقة الا فى



هكذا نمت إلى الصباح ..

المواسم والأعياد ، لذلك لم يكن غريبا أن كانت عيونهم ترمقنى بشيء من الدهشة ثم طلبت قدحا من الشاى وأخرجت شيئا من الزبد والمربى والخبز الأبيض ولعل ذلك قد أثار عجب رفاقى المسافرين أكثر مما أثارهم اهتمامى بأمر الزينة والحلاقة .

وفى ضوء الصباح تفحصت أزياء هؤلاء المسافرين ، فتذكرت ما كنت اقرأه فى قصص تشيكوف وترجنيف عن حياة القرية الروسية ، فهذه الوجوه الصلبة والذقون المسترسلة والخدود الحمراء وهذه القلايق الشعرية السوداء ثم هذه هى المعاطف المصنوعة من جلد الماعز والتى تركت دون صباغة فبدت مقبضة كأنها بعض ما يلبس الجزارين .

ولم أر خلطا فى طعام الافطار لما رأيته عند هؤلاء المسافرين فمنهم من كان يأكل بطيخا ومنهم من كان يفطر على جبن يأكله بسكين كبير مما يستعمله الطهاة والطباخين ، ثم كان الى جانبى طفل رضيع تأكله أمه بيضا مسلوقا . أما ذلك الفلاح ذو المعطف الجلدى فقد حمل حلة كبيرة وراح يشرب منها مرقا يطفو فيه البصل واللحم وتفوح رائحته من بعيد . أما الماء فكانت تحمله السيدات فى زجاجات كبيرة كما يفعل سيداتنا من الطبقة الدنيا ، اذا ما خرجن لنزهة فى بعض الحدائق .

لا تقرأ فصلا عن حياة أهل رومانيا ولا عن طعام أهل رومانيا ، الا وتقرأ شيئا عن المماليجا فكأن الحياة الرومانية لا يمكن أن تصفها باختصار الا بهذه اللفظة المماليجا .

والمماليجا هذه هي الغذاء الوطني لأهل رومانيا الأصليين ، واذا قلت ذلك فانني أقصد أن أنبه القارىء الى أن رومانيا اليوم ليست الا عصبة من الشعوب جمعتها رابطة سياسية وفصلتها عن بعضها قوميات متنافرة وثقافات متباينة ، وألسنة مختلفة وديانات متعددة فالمجرى فى اقليم بنات ، والألمانى فى أرّاد والروسى فى بسارابيا والتركى فى دبرجة كل هؤلاء وان كانوا رومانيون اسما ولفظا ، بيد أنهم لا يدينون بهذه العقيدة السياسية . واذا ذكروا الرومانى الصميم فى معرض القدح والذم ، عيروه بأنه الفلاح الفقير الذى عاش يدا عاملة فى الحقل طول حياته وانه هو الذى يعيش على المماليجا .

أما المماليجا فقد رغبت فيها دون أن أسأل عن اسمها ، اذ كنت يوما جالسا فى مطعم فى كونستانزا وكان الى جانبى جمع من الرومانيين يأكلون لحما وسمكا وخضرا ، والى جانب ذلك طبق به شىء يشبه (الفريك) المعجون . وكان كل واحد منهم يتناول منه

قدرا فى طبقه ويخلطه بألوان الطعام الأخرى . هذه هى المماليجا ، عجين من الذرة المجروشة يؤكل بدلا من الخبز . وليس فى المماليجا ما يؤخذ عليها ولا ما يسوغ أن تكون وسيلة للحط من قيمة شعب أو حضارة أمة ، ولكن هكذا جرى الناس عند ما يتلمسون نواحى النقص ومواطن الذلة

ويأتى فى الصف الأول من ألوان الطعام فى رومانيا الفلفل ثم الباذنجان . أما الفلفل فله حكاية طويلة عريضة سوف أعود لها عند ما أعود للكلام على بخارست . اذ الفلفل فى رومانيا طعام شعبى كأنما الطبيعة قد فرضته فرضا على أهل هذه البلاد ، وكأنما باركت الطبيعة أرض رومانيا بغراس الفلفل فنبتت شجيراته وأينعت وأثمرت وتعددت ألوانها. فالفلفل فى رومانيا مملكة نباتية مستقلة فيها الصغير والكبير ، والأحمر والأخضر ، والحريف والبارد ، والمستدير والملفوف والمنبعج .

ولم تقصر همة أهل رومانيا لاستغلال هذا الكنز فراحوا يتفننون فى اصطناع ألوان الطعام من هذه الصنوف الوفيرة من الفلفل فيقدمونه على موائدهم وفى مطاعمهم مطبوخا ومشويا ومقليا ومسلوقا ومملحا ويصنعونه بالزيت والدهن . وكذلك يفعلون بصنوف الباذنجان

وإذا كان الاحتلال التركى قد تقلص ظله من بلاد الدانواب الشرقية وان كانت الثقـافة التركية قد اضمحلت بعض الشيء فى هذه البلاد التى عاشت فى ظلال العلم التركى مئـات من السنين فان الشيء الذى لم تتقلص له ظل ولم يتلاشى له أثره ذلك هو فن الطهى التركى . فأنت على ضفاف الدانوب أينما حللت فى بخارست أو صوفيا أو بلغراد حتى فى بودابست تجد تلك الألوان التركية التى تستطيبها فى اسطنبول شائعة معروفة بين جميع هذه الشعوب بل وانها تعتبر طعامهم الوطنى .

فالخضر المحشوة بالأرز واللحم المفروم وهى التى تعرف عن استنبول،هذه الخضر المحشوة لون معروف من ألوان الطعام فى رومانيا وغيرها . أما اللحوم المقـددة التى تشوى على الفحم فمن ذا الذي لا يشتهيها فى بخارست ومن ذا لا يطلب (الشيش كباب) كما يدعونه فى تلك البلاد ويرى مواقده وقد نصبت أمام المطاعم وحانات النبيذ على أرصفة الشارع .

والسائر فى شارع الراهوثا فى بخارست يمر على موقدة إثر موقدة نصبت عليها سنافيد اللحوم وأسياخ الشيش كباب .

أما فى عالم الحلوة فالبغاشة التركية طعام أهل استانبول المحبوب لها مكانة ممتازة عند الرومانيين ، ولست أدرى كيف أصبحت

صناعة هذه البغاشة التركية من اختصاص اليونان والأرمن ثم الأتراك ، فما دخلت مطعما من مطاعم البغاشة إلا وكان صاحبه يونانيا أو أرمنيا . وهذه البغاشة التركية المحشوة بالجبن الأبيض من ألوان الطعام التى يتناولها القوم فى الصباح . أما صنوف البقلاوة والحلوى التركية الأخرى فهى معروفة حتى فى مطاعم الدرجة الأولى التى تأخذ فى أساليبها بتقاليد الشعوب الأوروبية الأخرى .

والهلفا أو الحلوى ، فذلك ما يطلقونه على الحلاوة الطحينية ولا يخلو منها مطعم أو محل من محال بيع الحلوى بيد أنهم فى رومانيا تفننوا فى صناعتها فتنوعت ألوانها بعد أن خلطت بالكاكاو والبن واللوز والقشدة وغير ذلك . ومن الغريب أنهم فى بلغراد يأكلون هذه الحلوى فى الصباح مخلوطة بشىء من الفالوذج .

وقد أفطرت يوما على هذه الحلوى المخلوطة بالفالوذج فلم أستطبها ولم أر ذوقا فى هذا الخليط حتى أنى تناولت قدحين من القهوة لأغير من طعم هذه الوجبة .

والجبن الرومى صناعة محلية من صناعات البلقان وهو النوع

الشائع من أنواع الجبن فى رومانيا و بلغاريا والصرب .ولست أدرى لماذا أطلقنا عليه فى مصر هذا اللقب اللهم إلا أن تجّاره من الأروام الذين يجلبونه من قرى البلقان . وهو بطبيعة الأمر رخيص الثمن ولا يزيد ثمن الأقة منه عن سبعة قروش أو نحوها . و يعرف هذا الجبن فى البلقان باسم (الكاشكافال) .

والجبن الأبيض ليس مجهولا فى شرق أوروبا وان كانت أجود أنواعه لا يأكلها المسافر إلا فى اسطنبول . و يطلقون على الجبن باللغة الرومانية اسم (برنزا) وعلى الجبن الأبيض برنزا ألبا .

ومن طريف المآكل فى رومانيا أنهم يقلون الشمام فى الفرن فاذا مررت على مخبز من المخابز ألفيت لوحا من الصفيح على شاكلة ما نصنع فيه الكعك وقد نشرت عليه شرائح الشمام المشوية على النار . ومع أنى أرغب بطبيعتى فى تذوق كل غريب بيد أنى لم أجرأ على شراء قطعة من هذا الشمام .

ودعانى مرة صديق مصرى حين كنا فى كونستانزا لأختبر لونا طريفا من ألوان الشراب فصحبته إلى مقهى لا بأس بوجاهته ونظافته وقدم لنا شرابا أبيض عرفت أنه البوظة ، وكان ثمن القدح منه ليّين أو ما هو دون ربع القرش .

الوصول إلى جورجو

كان العجيب فى الرحلة من كونستانزا إلى جورجو أننا لم نصادف مركبا أو شراعا مرفوعا على مياه الدانوب حتى ضحى اليوم الثانى ، ولم يكن ذلك مركبا بالمعنى الصحيح بل أننا قابلنا قافلة من السفن قد ربطت بعضها ببعض فبلغت الثمانية عددا . وفى مقدمة هـذا الأسطول باخرة تجر هذا العدد من المراكب الحديدية الثقيلة التى كادت تغوص فى المـاء من ثقل ما تحمله فى جوفها .

وكان منظر هذه القافلة عندما اكتشفتها فجأة طريفا عجيبا حتى أننى أسرعت إلى آلة التصوير لأسجل صورة لها . ولـكن المسافر على الدانوب يعرف بعد قليل أن هذه القوافل النهرية من المناظر المألوفة .

ومما زاد دهشتى أن اسم الباخرة التى كانت تقودهذا الاسطول هو اللورد بيرون — فالأسطول كما ترى انجليزيا ولـكنه لم يكن بالاسطول الأجنبى الوحيد الذى تشاهده على الدانواب بل إنك لترى الأعلام الألمانية والمجرية والهولندية والأمريكية وغيرها رفرف على مياه النهر وقد أرسلت قوافلها هذه لتحمل البترول

من رومانيا الى بلادها .

فبواخر البترول الألمانية تسير من برايلا وجالاتز عند دلتا النهر إلى أن تصل إلى بافاريا . فالدانوب نهر دولى تجتمع على ضفافه وترفرف على مائه كل الجنسيات والقوميات . وكان منظر شاطىء النهر متباينا كما كان فى المساء فالشاطىء الشرقى طينى منحدر ، والغربى تكسوه الغابات الكثيفة . وعند الضفة الشرقية المرتفعة تمر على آلات لرفع الماء أشبه شىء بالساقية المصرية بقواديسها المربوطة على شكل حلقة كبيرة تغرف الماء من النهر المنخفض ، وترمى به فى مجرى خشبى محفور يوصل إلى الحقل .

وفى منتصف الساعة العاشرة وصلنا ميناء جورجو النهرى فى الموعد المضروب لوصولنا ، وهناك تركت الباخرةالنهرية واستقلبت القطار إلى بوخارست .

جورجو

وليست جورجو بالمدينة الكبيرة ولكن أهميتها أكثر من حقيقتها . فعند جورجو يبتدىء خط الملاحة النهرى الذى يصل بين رومانيا وفينا وما بعدها ، « وجورجو » ميناء بوخارست إذ لا تبعد

عن عاصمة رومانيا أكثر من ساعة و بضع ساعة .

ثم انها ميناء هامة من موانى الحدود إذ أن الحدود البلغارية النهرية تبدأ عند جورجو ، فالواقف على رصيف مينائها الصغير يشاهد بلغاريا على الضفة الأخرى و يشاهد ميناء « روس » أو « روشتك » البلغارية على الشاطىء الآخر .

ولا شك أن هذا المنظر من أمتع المناظر فى الدنيا ، منظر لايشاهـده السائح على ضفاف نهر آخر ، فمياه الدانوب تفصل مملـكتين متجاورتين لكل منهما لغتها ونظام نقدها وتقاليدها . فاذا عبرت النهر عند جورجو تنتقل بعد دقائق من رومانيا إلى بلغاريا ، وعلى كل ضفة من ضفتى النهر تشاهد الجنود والحراس ببنادقهم ، ومهما كانت أمانة هؤلاء الحراس فان وسائل التهريب ميسرة بين بلدين لايفصل بينهما إلا ماء نهر من السهل أن يسبحه سابح فى نصف ساعة وهو فى مأمن تحت جنح الظلام

لهذا كثيراً ما تسمع عن أخبار هؤلاء النازحين وعن حوادث التهريب المنظمة وتبـادل التجارة غير المشروعــة المعروفـة (بالـكنترابند) بين رومانيا و بلغاريا فينقـل المهربون التبغ البلغاري الرخيص إلي رومانيا و يستبدلونه بالسكر الروماني لاسيما

وأن للسكر مصنعا كبيرا فى جورجو هذه .

وجورجو الميناء ليست جورجو المدينـة . وهناك سيارات وعربات تنقل المسافرين ما بين الميناء والمدينة — ولما وجدت أن لدى فسحة من الوقت تركت النهر إلى المدينة مشيا على الأقدام فبلغتها فى نحو نصف ساعة .

وجورجو أكبر من أن ندعوها قرية فهى تذكر الزائر بأنها مركز تجارى للمنطقة التى حولها . فمخازنها ومتاجرها تفيض بأدوات الزراعة وبمطالب الفلاحة كما تفيض دكاكينها بما يحتاج إليه الفلاح من الملابس وأدوات الزينة القروية .

وأخبرنى صديقى من العارفين بشؤون الصيد أن جورجو فى وقت ما من فصول السنة تصبح مركزاً لصيد الأسماك يحج إليها صيادو الدانوب من الدلتا وينصبون شباكهم فى خيرانها وبركها حتى إذا انتهى فصل الصيـــد وهو قصير بطبيعته اختفى هؤلاء الصيادون فجأة كما هبطوها فجأة .

وعند ما حاولت ترك حقيبتى فى المحطة لم أجد من يقبلها ، إلا بعد الإلحاح الشديد . وعند ما حملتها إلى حجرة هذا الموظف سألنى عما إذا كانت مقفلة فأمّنت على كلامه مع أننى لا أقفل

حقائب السفر ولا أحمل لها مفتاحا وإن كنت أصحب ربطة من المفاتيح لا علاقة لها بالحقائب التى أحملها ، فحاول صاحبى أن أن يتأكد من اغلاق الحقيبة فما أن أدار القفل حتى فتح ، فاظهرت العجب واعتذرت بالنسيان وأخرجت ربطة المفاتيح ، وأردت بذلك تطمينه وأن أبدو أمامه حريصا على حقائبى ، ولكن المحاولة لم تقنع هذا الرجل الاحوح فلم يقبل الحقيبة حتى ربطناها بحبل .

وفى ميدان المدينة الأوسط ، جلست أتناول شيئاً من القهوة فى فنجان صغير ، مزخرف بهلال ونجمة و بصورة ملونة للاهرام وأبى الهول ونخلة باسقة تظللهما . وفى وسط الميدان برج وساعة حديثا العهد بالبناء . وتتفرع من هذا الميدان سبعة شوارع تجمع أطراف المدينة .

وكان أشد ما استرعى النظر متاجر الجلود والفراء حيث تصنع القلابق التى سبق ذكرها . والقلبق هذا مخروط أشبه شىء بالطربوش مصنوع من جلد الخراف على ما أظن ، يشد على قوالب من الخشب و يثبت على الأرض بالمسامير حتى ينشف الجلد ويأخذ شكل القالب الخشبى . فاذا تم ذلك لف القلبق فى الورق على فى سقف الدكان انتظاراً لبيعه . والقلبق هذا معروف على شواطىء

الدانوب الشرقية وفى شماله لا سيما فى المناطق الجبلية الباردة ، وصلته بروسيا معروفة ، ولا شك أنه لباس مفيد مريح إبان الشتاء .

وبعد أن اشتريت صورة لجورجو وتزودت لرحلتى بشى من العنب والكعك قفلت راجعاً إلى الميناء . وفى الطريق التقيت برجل سرعان ما عرفت أنه ألمانى الجنس ، فقطعنا الطريق بالأسئلة والأحاديث وعلمت منه بأنه يعمل على قافلة ألمانية من قوافل البترول تسير بين الدلتا وريجنزبرج وأنه يذرع الدانوب صعوداً وهبوطا ثلاث مرات كل عام ، وأنه ليعرف الآن جوانب هذا النهر كما يعرف أزقة قريته بعد أن قضى فى رحلاته هذه عشر سنين ، ولم تكن القافلة الألمانية الوحيدة فى ميناء جورجو ، بل كانت هنالك كذلك قافلة أخرى لشركة شل الهولندية .

إلى بوخارست

يسير القطار بين جورجو وبخارست فى منطقة كثيرة المرتفعات والمنخفضات والسهول والوديان تكثر بها الخيران والمستنقعات . ولكنها لم تكن مغطاة بالغابات كضفاف الدانوب بل ان تربتها الطينية قد جعلتها صالحة للزراعة لذلك انتشرت بين وديانها وسهولها القرى والدساكر .

ولما كنا فى أخريات السنة كانت حقول الأذرة قد نضجت واصفرت سيقانها وأوراقها . وفى وسط هذه الحقول ازدهرت شجيرات عباد الشمس بأزهارها الضخمة الفاقعة اللون



بائع البصل والثوم فى بعض شوارع بوخارست

وكان قطارنا يقف من حين لحين فى محطات صغيرة ليس فيها

ما يستحق الذكر ولا أريد أن أجهد القارىء فى مطالعة أسمائها .

والفلاح الرومانى شديد التدين إذ ما كاد القطار يبرح المحطة حتى رسمت الفلاحه التى جلست بجانبى علامة التثليث على صدرها، وما كنا نمر بقبة كنيسة حتى تعيد هذا الرسم وتتمتم بكلمات الدعاء

وأبدع ذكريات هذه الرحلة القصيرة بائعات الفاكهة بزيهن الوطنى المزخرف المزركش الذى يستلفت بلا ريب نظر الغريب ، وكن يحملن فى أطباق صغيرة ألوانا شهية من الفاكهة ، وأبدع هذه عناقيد العنب البيضاء والسوداء الصغيرة . بطعمها الغريب وثمنها الزهيد إذ كان العنقود منها يباع ب « لى » واحد أو ما يقرب من مليم .

كما كانت تباع فى هذه المحطات كيزان من الأذرة المسلوقة والجوز الأخضر المقشور ، كما يباع البطيخ الصغير ، والبرقوق فى عناقيده وأقداح اللبن الطازج وكل ذلك بأثمان معدودة .

كان شوقى للوصول إلى بوخارست عند ما اقتربنا عليها كالشوق عند الوصول إلى باريس لا لسبب سوى الرغبة فى اجتلاء بعض مظاهر المدنية بعد أن كدت أنساها بين مجاهل الدانوب ولاشك أن الاثر الذى فعلته فى نفسى محطة « جارا دى نور »

الحديثة كان بالغا ؛ فهذه المحطة بمبانيها الحديثة و بمتاجرها الداخليـة الأنيقة ونوافذها المضيئة و باعلاناتها الملونة الجذابة كان لـكل ذلك أثر بالغ فى نفس القادم . فلم يكن ينقصها مطلب ممـا يحتاج اليه المسافر ففيهـا مكتب للسياحة ومحال لبيع الصحف والمجلات والحلوى واللعب والهدايا والزهور وفيها مطعم واسع أنيق

وهـذه المحطات الحديثة أوضح مظهر للعواصم الحديثة التى نشأت فى أوروبا فى السنين الأخيرة منذ الحرب العظمى ، فكثير من محطات لندن وباريس ولندن وفينا قبيحة مقبضة للنفس لاتجوز مقارنتها بمحطة حديثة أنيقة تعيش فى معزل عن قلب أوروبا الصاخب كمحطة بوخارست هذه مثلا .

وهـذا التجديد تشاهده بوضوح فى رومانيا وفى جميع البلاد التى نشأت حديثا بعد الحرب أو التى اتسع نطاقها وتمددت حدودها على حساب جاراتها . فرومانيا اليوم بعد أن بلغت مساحتها و بلغ سكانها و بلغت ثروتها أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب أصبحت كالغنى المحدث فى ثراه ينفق على سـعة لإرضاء نفسه التواقة الى مباهج الحياة الراقية . وهكذا لا نعجب أن ترى فى بوخارست العمائر الأمريكية ذات الطباق المتعددة التى لايزيد عمرها عن بضع سنين

ولا تعجب اذا ما سمعت عن أن بعض هذه الأبنية قد حفر أساسه وأقيمت جدرانه فى بضع شهور ليس الا ، كأن الناس من أهل بوخارست يسابقون الزمن ويخافون أن تفوتهم الفرصة السانحة لتعمير هذه العاصمة التى امتد اليوم سلطانها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

ولعل أيامى الطويلة التى قضيتها فى تجوالى على الدانوب ، جعلتنى أنظر الى وجوه السيدات والى زينتهن نظرة الريفى الغريب عن مظاهر المدنية ؛ والحق أن الفرق كان شاسعا عظيما بين وجوه هؤلاء الفتيات اللائى صادفتهن فى أرجاء محطة بوخارست وبين وجوه أولئك الفتيات اللائى عرفتهن على الدانوب يحملن الخشب وقد تصلبت أذرعهن وتفلطحت أقدامهن وتشققت من السير على الأحجار . نعم كان هذا الفرق واضحا صارخا حتى أحسست كأن شعبين مختلفين يسكنان رومانيا ، ولكن الحقيقة أن بوخارست لا تعطى الزائر الا فكرة خاطئة عن الشعب الرومانى والحياة الرومانية الأصيلة .

وعندما وقفت على باب المحطة بعد أن أودعت حقائبى فيها واغتسلت ، وثقت من أن ذكرياتى السابقة عن بوخارست منذ

خمس سنين قد اضمحلت أو كادت ، فلم أعرف طريقا كنت أتخيله من قبل .

وسبق أن عرفت عند مدام كوفمان خياطا يهوديا من أهل بوخارست استخدمته هذه السيدة فى قص بذلة لزوجها ولكنها لم تستأمنه فكان يأتى كل صباح ويقوم بعمله تحت سقف بيتها وتحت نظرها :

وشاء هذا الخياط أن يمنحنى نصيحة عن السكنى فى بوخارست فى جو عائلى و بين اناس يعرفون اللغة الألمانية وأكثر من المدح والثناء حتى أحسست بأنه صادق فى دعواه وأن الحياة التى وصفها لى عند هذه الأسرة هى نوع من الحياة التى أبحث عنها والتى أريدها ، لا سيما وأن الى جانب البيت الذى دلنى عليه فندق يحمل اسم مصر فكان ذلك مشجعا لى على البحث عن هذا المكان .

فأخذت الترام إلى قلب المدينة وهناك بدأت بحثى وتجوالى من شارع « فكارشت » حتى إذا وصلت إليه أخذت أبحث عن الرقم المطلوب . ولكننى لم أسر طويلا حتى أحسست بأننى قد خرجت من عالم إلى عالم وأن هذه الوجوه التى كنت أمر بها لها صبغة مميزة خاصة .

كان شارع فكارشت هذا تجارياً مائجا بتجاره وزواره وكانت



بائعات الفاكهة

بضائع متاجره تملأ الجدران والأبواب وكان أصحاب متاجره يقفون على أبوابها وعلى طوار الشارع يبحثون عن زبائنهم . وكلما كنت أتقدم خطوة فى هذا الشارع الطويل كانت توضح هذه الظاهرة وتنجلى عن مظاهر أخرى يعرفهـا كل ما يعرف خبيئة هذا الشارع . فالنساء البدينات بشيلانهن وميادعهن والأطفال الحفاة بشعرهن الأحمر وبائعو الحلوى والفاكهة والأدوات الرخيصة وبائعو الخضر والسمك يقفلون الطريق على السائرين . ومن ذا الذى لايكتشف بعد هذا ولو كانت تعوزه التجارب بأنه يسير الآن فى

قلب الحى اليهودى وان كان لم يفطن بعد إلى الكتابات العبرية المنقوشة على النوافذ والأبواب التى بدأت تحتل مكان اللغة الرومانية وان لم يكن قد فطن إلى الشيوخ ذوى الذقون الطويلة المسترسلة والشعر المجدول تحت القلانس الصغيرة السوداء .

فيهود بوخارست كيهود منشستر كيهود فرنكفورت كيهود القاهرة لايريدون إلا أن يعيشوا جماعة وعصبة وأن يستقلوا بحى من أحياء المدينة التى يسكنونها . والغريب الذى تقوده قدماه إلى مثل هذا الحى اليهودى يحس بعد دقائق بأنه غريب عن جوه ولو كان من صميم أهل المدينة . لذلك لم يكن عجيبا أن أرى الوجوه والعيون تحملق إلىّ كلما سرت خطوة فى ذلك الشارع وأن الأطفال بشعرهم الأحمر وأقدامهم العارية راحوا يتبعوننى ليروا مايكون من أمرى فى حيهم هذا ، الذى اذا ماولجه غريب كان فى موضع الشك والريبة من أهله .

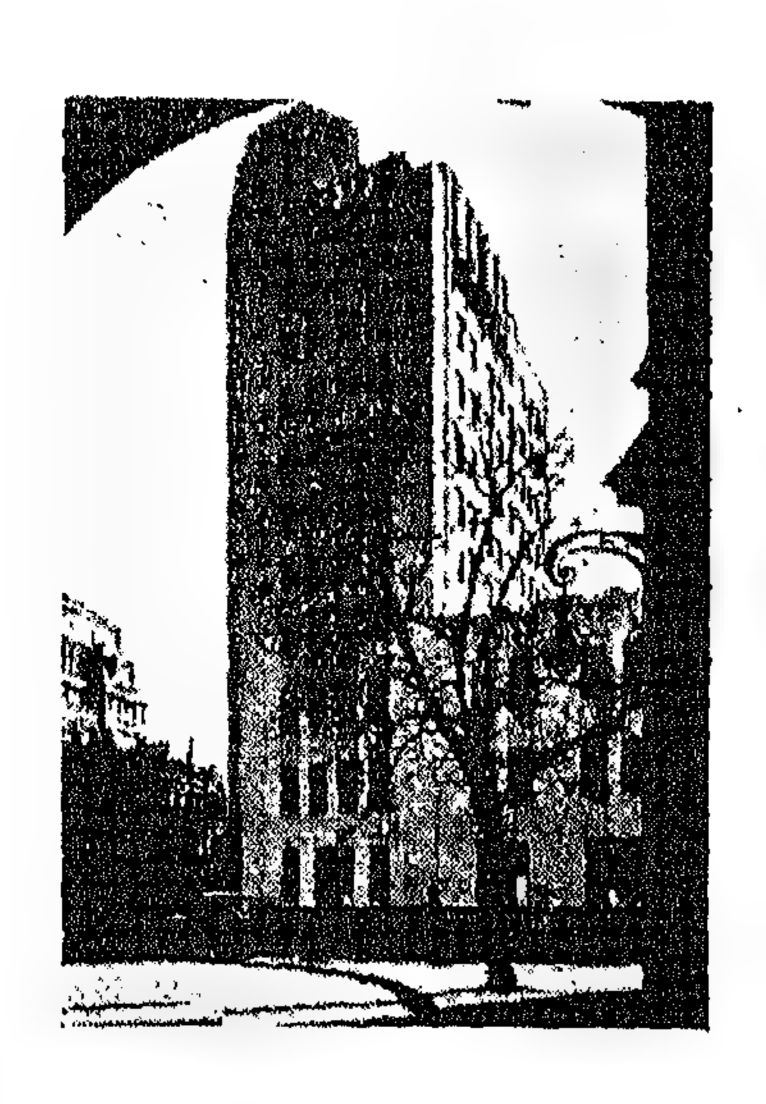
ثم أننى لم أسترح لفعل هذه العيون والى همس العجائز ولم تكن لى رغبة فى أن أتزعم صبية هذا الحى ، فأدرت ظهرى وعدت راكضا مهرولا من حيث أتيت .

وأردت أن أبيح لنفسى أمتع ماتصبو اليه من راحة الجسم

والحس ، فتخيرت فندقا أنيقا فى وسط المدينة حيث اغتسلت وارتديت ملابس المساء الغامقة استعدادا للسهرة .

وعندما خرجت استقبلتنى بوخارست بصوب من المطر .

بوخارست



الأبنية الحديثة فى بوخارست

اصبحت اليوم فى بوخارست وقد عقدت العزم على أن أبدأ دراستى عن هذه المدينة بطريقة اجمالية يتبعها تفصيل عما تروق لى الافاضة فى الكتابة عنه .

وفيما أنا بين شوارع المدينة الوسطى طرأ على خاطر كان من

أثره أن قطعت هذا الدوران للبحث عن عنوان معين . فقد كان من بين معارف البحر من اسطنبول رجل يونانى من أولئك اليونانيين الذين يهاجرون الى أى ركن من أركان الأرض اذا ما أغراه الأمل فى الثراء والكسب ، فقد كان هذا اليونانى فى مصر منذ نيف وثلاثين عاما ، ثم إنه زهد فى مصر لسبب من الأسباب فرحل الى البلقان وألقى رحله فى رومانيا .

ولأبناء اليونان فى رومانيا مكان فى حياة هذا البلد الاقتصادية فقد كانوا فى يوم من الأيام حتى من رجال السياسة ! يوم أن كانت بوخارست اقليم من ملك آل عثمان ، وما فتىء هؤلاء اليونانيون يديرون شئون التجارة لمضيفيهم من الرومان بذلك الحذق وتلك المثابرة التى نعرفها عن هذا الشعب .

عرفت هذا اليونانى الذى مازال يذكر مصر بالخير ، و يذكر من اللغة العربية مايتعلق بالبيع والشراء من أسماء الموازين والمكاييل والمساومة والنقد ، وشاء أن يدعم هذه المعرفة الطارئة برابطة أقوى فأعطانى اسمه وعنوان متجره فدونته على هامش ورقة من ورق الاعلان .

وحدث أن احتفظت بهذه الورقة فشجعنى ذلك على البحث

عن هذا اليونانى لأضع حدا لهـذا التجوال بين الشوراع دون قصد أو غاية .

وفى طرف من أطراف المدينة انتهى بى المطاف أمام متجر من متاجر البدالة يجاوره مطعم وحانة قدتوجت جميعها باسم صاحبنا الرومى . وكان استقباله حافلا قلبيا ، فصار يبتسم و يضحك و ير بت على بطنه غبطة و يشرح لمساعديه وز بائنه خبر قصتى ، حتى إذا انتهى من كل جملة راح يحيينى بهز كتفى والسلام علىّ من جديد ، و يحاورنى بكلمات لها بعض مميزات العر بية دون أداء معانيها ؛ حتى إذا أحس بأنى فهمت مايقصده زاد طر به وراح يتلفت يمنة و يسرة ليشاهد مبلغ الدهشة والاعجاب على وجوه زائر يه !.

ثم إنه قدم لى قنينة من النبيذ مما لايقدمه إلا للخاصة فشكرت له عطيته ، ورغبت فى أن أتناول طعام الغذاء إذ انتصف اليوم فراح يصف ألوان قائمة الطعام بهذه العر بية المهجورة فلم أفهم من أوصافه إلا اسم (الفاصولياء) إذ يستعملها أهل البلقان من رومان و بلغار ويونان كما نعرفها ، وهذه الأسماء المشتركة لاسيما لالوان الطعام تراث من العصر التركى ، مما سأعود للـكلام عنه بعد قليل . ثم أن صاحبنا جرنى إلى داخل المكان حيث المطبخ وراحت

الفتاة الطاهية تكشف لى مستور القدور وهى فرحة مزهوة .

وكانت مقاعد المطعم المحدودة قد امتلأت فى تلك الساعة بروادها ؛ وكانت كثرتهم من الفتيات ، اذ يجاور المطعم مصنع كبير من مصانع الحرير يعمل فيه عدد كبير من الفتيات كثير منهن من المجريات وغيرهن من الشعوب الدخيلة ، وراح صاحبى يسر فى أذنه هذه وتلك حكايتى ، وراح يسأل عمن يعرف الألمانية أو يتكلم الانجليزية أو الفرنسية ، فسرعان ما عقدت الألفة مع بعض هؤلاء العاملات ثم مع شاب يعمل محاميا . ثم إننا ضربنا موعدا فى المساء عند دار البريد لقضاء السهرة ولزيارة بعض الأندية الخاصة .

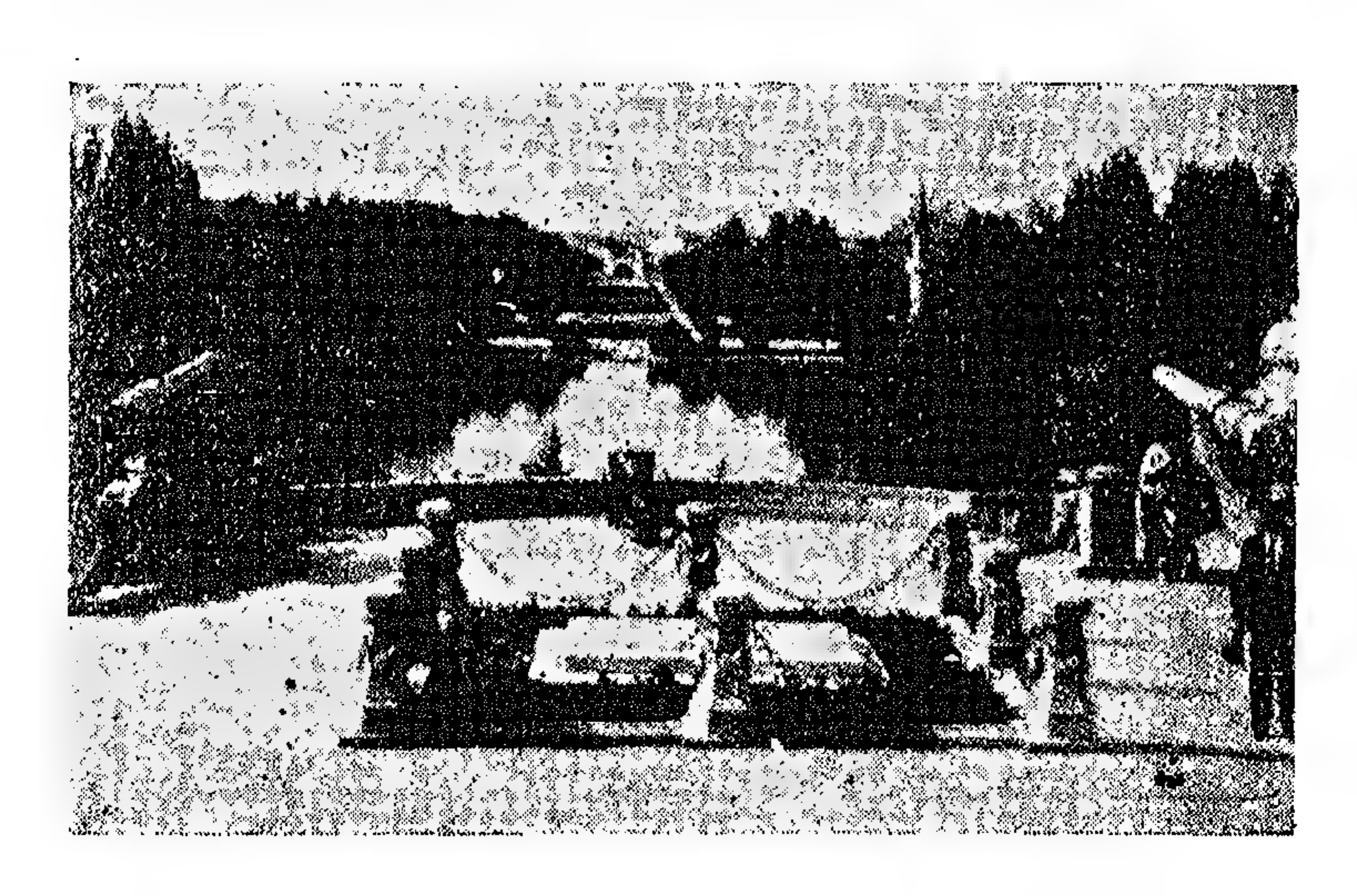
اليهود أيضاً

لقد بلغت موجة الجفاء لليهود فى رومانيا حدها الأعلى ، فصدرت الكتب والنشرات ثم الصحف لمحاربة اليهود فى رومانيا ، ثم أنشئت الجمعيات والأندية التى جعلت من محاربة اليهودية فى رومانيا غاية وغرضا ، ولا يتورع هؤلاء الثائرون عن التشهير بغرمائهم ، ففى قلب المدينة وعند نادى الجيش لوحة كبيرة عن مقر جمعية لمحاربة اليهوديه فى رومانيا .

وفى هذه الليلة لم يرد هؤلاء الشبان إلا صحبتى إلى رابطة أخرى من هذه الجمعيات فدلفنا عند وزارة المواصلات الى بعض الدروب الخلفية حيث تشاد عمارة كبيرة من تلك العمائر التى تنبت ما بين يوم وليلة فى بوخارست ، والتى لا يبطل العمـل فى بنائها فى ليل أو نهار . ولم يكن فى ذلك ما يؤخذ عليه ، إلا حين تعلم أن هؤلاء الفعلة والبنائين ومن اليهم ممن يعجنون الأسمنت ويزرحون تحت حمل الأحجار ليسوا من العمال بل من أعضاء هذه الجمعية التى نزورها الليلة ، وإن هؤلاء الاعضاء من طلاب الجامعة والمدارس العالية وإن هذا البناء الذى يشيدونه بأكتافهم سيكون مكانا لهذه الجمعية وناديها ومتاجرها .

وقفت وقتا أشاهد هؤلاء الشبان يعملون فى الطين ويزرحون تحت حمل الاحجار فى ضوء المصـابيح ، فأحسست بأن إيمانهم بدعوتهم لا حد له أيا كانت هذه الدعوة ، فالشـاب الجامعى الذى يقف هذا الموقف جدير بالاعجاب والتقدير . وهكذا تجمهر حولنا جمع من المتفرجين ينظرون مدهوشين الى هؤلاء الفتيان وبينهم من يرميهم بالهوس لا لصدق أو كذب فى دعوتهم هذه ، بل لغرابة فى أسلوب الدعاية .

ثم أننا ولجنا بابا مجاورا لقاعة كأنها متجر من المتاجر غصت رفوفها بالعلب والصناديق والاكياس وبالفاكهة يبتاع فيها أعضاء هذا الحزب حاجاتهم كما يفعل رجال الجيش فى المعسكرات ، ثم أننا دخلنا قاعة رحبة استحالت الى مطعم يحوى مئات المقاعد احتلها جمهور لاغط من الشبان ورجال الدين وصغار الضباط



حدائق كارول ومسجد بوخارست

وقبل أن نجلس رأى أصدقائى تقديمى إلى رئيس هذا الحزب وهو شاب يمتلىء رجولة وفتوة بقامة مديدة وذقن مسترسلة كبعض الفنانين ، وقد بترت احدي ذراعيه فى الحرب الاسبانية حيث

ذهب متطوعا مع جمع من الشبان فرجع بعد أن خلَّف أكثرهم في تراب تلك البلاد . وراح هذا الشاب يحدثنا عن أهوال تلك الحرب وعن مصائب اليهود فى بلاده وعن النهضة الجديدة لمدافعة هذا الاستعمار الداخلى ، وكان فى حديثه لبقاً ظريفا يتهدر حماسة ، وهو ابان ذلك يحيي كل طارق و يجيب على سؤال كل راغب بهذه الروح المرحة المحبو بة .

و بعد أن انتهيا من العشاء لم أجد ما أحمله تذكارا لهذه الزيارة إلا بطاقة من بطاقات الا كل وقد دونت بالحبر الاخضر وهو اللون الخاص بهذا الحزب .

ثم أننا قضينا السهرة فى قهوة رويال ، احدى القهوتين الكبيرتين فى كالا فكتوريا لنقرأ الصحف الاجنبية،ثم افترقنا على موعد عند صديقنا اليونانى على الغداء ، وقد وعدنى بالبحث عن غرفة فى عائلة ألمانية أو نحوها .

ولأجل هذا حزمت حقائبى وحملتها من الفندق بالترام الى مطعم هذا اليونانى ، وقد بر بوعده فحضرت فى غبشة المساء فتاة شقراء كانت مضيفتى المنشودة بيد أنها اعتذرت فى قبولى تلك الليلة ببعض الاعذار فوجدت من كرم اصدقائى الشبان ما يسر

الأمر ؛ فصحبتهم حيث يسكنون فى دار أنيقة مجاورة فقضينا ليلتنا
الماطرة فى أحاديث من كل لون .

وعندما اويت الى فراشي الانيق الوثير ، لم يدع لى البق فرصة
للراحة فلم اجدا بدا من التمدد على ارض الغرفة والتدثر بمعطفى .
والبق كبعض الأوبئة فى بلاد البلقان ، إذ أن داراً تخلو منه
من الندرة بمكان ، فقد رأيت مرة سيدة فى بوخارست تنظف هذا
البق بمكنسة كبيرة والبق يتناثر على السلم دون أن تأبه للتخلص منه
بطريقة أمثل من ذلك . وأذكر إننى عند ما ذهبت إلى بودابست
للمرة الأولى منذ سنين نصحنى ناصح فى أن أتثبت من الفندق
الذى أنزل فيه إذ أن المدينة كما يعرف موبوءة بهذا البلاء ، وإن لم
تكن فى الحقيقة فظيعة الى هذا الحد .

الرحبة

وفى اليوم الثانى عادت مضيفتى لتدلنى على بيتها ، وكانت
رحلتنا طويلة من حيث هذا المطعم اليونانى الى حى « الراهوفا » ،
وكانت مضيفتى فى الثلاثين من عمرها المسانية القامة والسحنة ،
وبدت عليها ملامح حزن دفين حاولت تكتمه بابتسامة مصطنعة

من جانب فمها أثناء حديثها المتقطع الى حيث تسكن ؛ بل كانت على الأصح مترددة بعض الشيء عند ما تركنا الترام فى شارع الراهوفا ودلفنا الى بعض الطرقات الجانبية فى ذلك الشارع .



مبيضة النحاس فى أحد شوارع بوخارست

وعند ما وصلنا الى الدار المنشودة أدركت سر ذلك التردد فقد كان المنزل من بيوت الدرجة الثالثة أودونها ، وقدكانت دهشتى عند ولوجه غير خافية على الفتاة حتى أنها أحست به فبدأ الاضطراب على حركاتها والتلعثم فى كلامها . ثم انى أحسست من جانبى بأن الذوق يمنعني عن التعليق أو التردد ، فاصطنعت الرضاء والقبول

كان هذا البيت أنموذجا للبيوت الشائعة فى رومانيا ، فهو صفان من الحجرات المتجاورة تفتح أبوابها ونوافذها على ردهة طويلة بها شبه حديقة وينتهى طرفها بدورة المياه ، ويستقل كل ساكن فيه بغرفته ، ويتجمع السكان فى الردهة الواسعة للسمر والحديث أو للغسيل وغير ذلك من الأعمال البيتية .

ومن العجب أن كل صف من هذه الغرفات يتميز بطابعه ، فالصف الأيسر أرضى قديم والآخر مرتفع بعض الشيء ويتميز بحداثة بنائه وبأنه يضاء بالكهرباء . وكان نصيبى فى القسم الأول حيث مصابيح البترول التى لم استعملها منذ أن تركت الريف الى القاهرة منذ أعوام طويلة . وكانت دورة المياه فى ذلك البيت أقذر ما رأيت ، حتى كنت أعاف التردد عليها ، وكانت ڤالى قد عرفت ذلك فحاولت الاعتذار والرجوع بى إلى حيث كنا فلم أشأ أن أكفر بعطفها ، لا سيما وإن غرفتى كانت نظيفة حافلة بمجموعة منوعة من الكتب والقصص والمجلات . وانتقلت مضيفتى الى الغرفة المجاورة مع رفيقتها المجرية « مجدا » وفى تلك الليلة قضينا ساعات طويلة فى الحديث والسمر .

والراهوفا حي كبير في أحد أطراف بوخارست يتوسطه

شارع واسع يحمل هذا الاسم، أو اسمه الحقيقى «الرحبة»، وهو بقية من تلك الاسماء التركية العربية التى أطلقت عليه منذ العهد التركى ، ويتميز بمقاهيه ومطاعمه الوطنية الأصيلة التى تراها مزدحمة إذا أقبل المساء بروادها يستمعون الى الموسيقى الوترية ويتجرعون كؤوس النبيذ بدون حساب ، وعند باب كل مقهى جلس صانع الشواء أمام سفوده يذكى لهيب الفحم والخشب .

وليست الرحبة بالاسم العربى الفريد الذى يذكره الزائر فى هذه البلاد التى كانت يوما من الأيام فى ظل العلم التركى والثقافة التركية بنزعتها العربية الاسلامية . بل إن هذه الكلمات لتدل على أن معانيها كانت مجهولة حتى غزاها الأتراك بمدنيتهم الجديدة فى ذلك العهد .

فالثقاب لا يعرفه أهل رومانيا إلا بالكبريت ، والحساء « بالشوربا » ، كما ينطقون اسم القهوة كما نعرفها لا كما يحرفها أهل أوربا ، كما يطلقون « المحلة » على كل حى منفصل عن المدينة الكبيرة مما تسكنه طوائف العمال والغجر ومن اليهم ، وكلمة الجامع تطلق على المساجد بأنواعها وملحقاتها كما يستعملها الأتراك .

ويعتور بعض هذه الأسماء التحريف على مر الزمن ولكن



القديم والجديد

أصول هذه الكلمات لا تزال متميزة للاذن الفاحصة فان اسم لوكما كاديس الذى نسمعه فى بلاد اليونان مطلوقا على لون معروف من ألوان الحلوى الشرقية ليس الا تحريفا لاسمه العربى الصميم وهو (لقمة القاضى)

وهذه الموسيقى التى نسمعها فى مقاهى الراهوفا موسيقى رومانية صميمة ، وإذا قلت ذلك فلابين أن الفرق بين هذه الموسيقى الوترية الخفيفة وما يتبعها من أساليب فى الانشاء والغناء واستخدام بعض الآلات الموسيقية ، ان الفرق بينهما وبين الموسيقى التركية والشرقية على وجه الاطلاق من فارسية وعربية ليس بعيدا . وان السامع إذا التقط هذه الانغام من بعيد دون تفسير لالفاظها وكلماتها لا يعتقد أنه يسمع موسيقى مصرية أو نحوها

حدائق كارول

قضيت هذا اليوم — وكان من أيام الاحد — فى حدائق كارول وهى لاتبعد الا قليلا من الحى الذى اسكنه . وهذه الحدائق بهجة من مباهج بوخارست وليس للزائر لهذه العاصمة لاسيما فى أيام الصيف القائظة الا ان يزورها لهذا السبب أوللاستمتاع بالموسيقى

أو لزيارة أكثر متاحف بوخارست المبثوثة بين أركانها ، والا فلزيارة المسجد الانيق الذى يرتفع على بعض بركها . ويوم الاحد هو يوم الاستمتاع بمثل هذه الزيارة اذ أن متاحفها على غير عادة تفتح فى هذا اليوم دون غيرها .

وعند النافورة الكبيرة حيث المدخل الى هذه الحدائق اجتمع صغار الباعة يعرضون الأذرة المشوية على الفحم تجد سوقها رائجة فى رومانيا ، حتى لا تكاد تجد زائرا يدخل الحديقة دون بعض منها . وعرض كيزان الأذرة الخضراء وان كان معروفا فى غير رومانيا من بلاد شرق اوربا الا انها فى غير هذه البلاد تباع مسلوقة ومملحة ، كما ترى فى شارع كيرتنر أبهج طرقات ڤينا .

جلست فى الطريق الاوسط لهذه الحديقة ادرس الوجوه والأزياء ، وكان المشهد مما يدعو الى مثل هذه الدراسة لما فيه من طرافة . فوفود الزائرين فى ذلك اليوم كان جمّاعها من غير أهل بوخارست من الريفيين الذين يفدون فى مثل هذا اليوم على المدينة لاجتلاء مباهج المدنية وزخرفها ولقد كانت هذه الوفود أجمل ما فى الحديقة ، وكانت الأزياء معرضا أفخر من متاحفها ، تلك الأزياء الملونة البهيجة التى عرفتها عن شعوب الدانوب شرقا وغربا



أزياء رومانية

هذه الأزياء التى كاد أن تطغى عليها المدنية الغربية تخلق حول المرأة ذلك الجو الرومانتيكى البديع . المرأة التى تعيش لزينتها وأنوثتها التى تتعشق الألوان الخاطفة والتى تصيد العيون لا بما عرضت من سيقان وأذرع وأكتاف ، بل بما غطتها به من ثياب المخمل الأحمر اللامع والمسوح الحريرية والمخرمات الدقيقة ، والميادع الملونة المنشاة ذات اللفائف والتجاعيد ، وقد رزخ تحت ثقلها هؤلاء الفتيات حتى ضقن بها فى ذلك اليوم الصائف .

ولم تكن ملابس الفتيان أقل طرافة وأناقة من هذه الأزياء النسوية ، بل كانت ترجع بالعين الى تلك الرسوم التى نشاهدها فى الكتب المصورة القديمة من القبعات العريضة والمعاطف ذات الأحزمة والسراويل الضيقة والأحذية الصفراء الفاقعة .

وكان تيه هؤلاء الشبان بأزيائهم فائقا ، فكانوا يتخطرون فى قلب الطريق ويلوحون بعصيهم ويداعبون سلاسل ساعاتهم ، ولكنهم ما كانوا يعترفون بأناقة وجوههم ، فكانت كالحة انتشر فيها شعر الشباب واسترسلت شعورهم على أقفيتهم وآذانهم كالبلهاء ، ولكن هذه جميعها ولا شك تكمل الصورة التى ارتضوها لأنفسهم

* * *

وفى ذات ليلة قضيت جانبا من المساء فى مقهى الحديقة بموسيقاه العازفة ، وقد أطل بمقاعده على البركة الساكنة وانعكست أنواره على مياهها الداكنة فرسمت فيها الصور وكأنها حفرت فى قلبها حفرا ورسمت فى قاعها ظلال المتحف الحربى المجاور فذكرتنى بليالى الصيف فى أسوان وقد انطبعت على مياه النيل النائمة عند طرف المدينة هياكل جزيرة الفيلة فبدت رائعة قوية .

مليونير

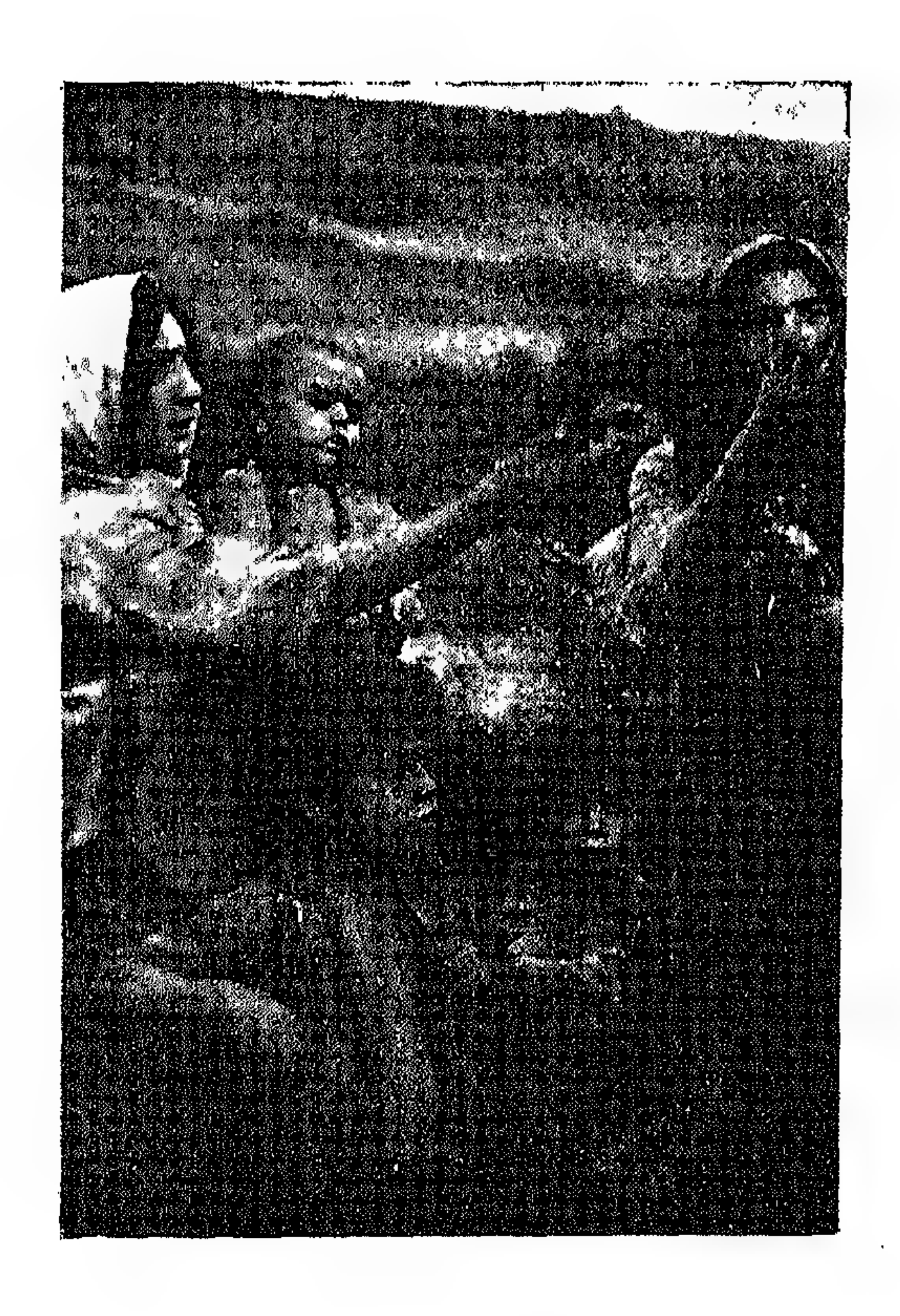
وفى هذه الحديقة عقدت صحبة مع المستر د . مراقب الحدائق فى بوخارست ، شخصية لا تمل صحبتها ولا حديثها ، وحديث هذا الرجل عجيب . فهو من أولئك المهاجرين الذين نزحوا جماعات من مجاهل البلقان إلى أمريكا ليس لهم من ثقافة أو ثروة أوعلم مايقودهم إلى النجاح ، ولكن عزائمهم التى لم تعرف الفتور فى مواطنهم الأولى قد قربت إليهم هذه الأمانى المعسولة فأصابوا خيراً عميما .

عاش مستر د . فى العالم الجديد نيفا وعشرين عاما فاستحال من ذلك الفلاح البلقانى إلى مواطن أمريكى تبسم له ولشبابه الدنيا ، فجمع المال وفيرا ، وتزوج فتاة الأحلام واقتنى ما تصبو إليه نفس

بلقانى نازح من طرائف الثياب والزينة فكان يملك كذا من المعاطف وكذا من الأحذية ويتجمل بالخواتم الذهبية ويحمل الساعات الثمينة ، والعصى وأشباه ذلك مما يحلو فى عين هذا الرومانى .

ثم تسأله ما باله قد ترك كل هذه النعم والغنائم ، فيجيبك كما يجيب كل مهاجر قفل من العالم الجديد ولم يعرف الطريق مرة أخرى إلى بلاد أحلامه ، راح هذا الرومانى يقص على حكايته بدقة وإطالة مع التعليق والشرح لعله وجد فى استعادة تلك الصور القديمة الحلوة سلوى لنفسه ، راح يقص على كيف حدثته نفسه قبيل الحرب الأخيرة وهو على قمة جاهه وثراه فى شيكاجو أن يزور وطنه ومهد صباه ، ثم أشار عليه من أشار أن يحمل ماله وذهبه ويبنى له مجدا فى بلده القديم ويعيش ملكا بين نفوس ما عرفت يوما الطريق إلى راحة الجدة ، فباع فندقه الكبير وأملاكه العديدة وقفل إلى هذا الركن من البلقان كبعض الدهاقنة العظام يحمل معه الذهب خالصا .

ثم أنه نشد سعادة النسيان فشيد قصرا فى صميم البرّية ولكن ذلك لم يرق لمن حباهم بهذا الجوار وهو الغنى وهم الفقراء فتواطأوا عليه فيما بينهم على استلاب ماله واستلاب حياته ففازوا بالأولى



بقشيش . . .

وكادوا يفوزون بالأخرى ، فتركوا صاحبنا نزيل المستشفيات حتى أتى على بقية ذهبه .

وهنا يقوم صاحبنا ليفتح عينه على الفاقة ويرى حوله شعبا وإن جمعه وإياه الدم إلا أنه غريب عنه فى كل شىء ، ثم إنه راح فزعا يصوب الوجه إلى ذلك العالم البعيد البديع حيث زوجه فاذا ببابه قد أوصد فى وجهه ، فيتلاشى أمامه أمل عرف مذاقه من قبل ، فحل السخط وحلت النقمة من نفسه فلا تراه إلا ثائرا غاضبا أو مستهترا ؛ بعد أن طرق كل باب ليستعيد مجده الدارس فلم يجد المليونير السابق إلا حدائق بوخارست يحرسها ويرعاها .

متاحف بوخارست

فى بوخارست متحف للحرب ، وأمام متحف بوخارست قبر لجندى مجهول ، وعلى هذا القبر المعلوم للجندى المجهول شعلة خالدة !

ولم لا يكون كل هذا لبوخارست وهى تلميذة باريس الصغيرة التى قد لا تدرى بخبرها باريس ؟ ولا يعرف مكانها أهل باريس ؟ ولكنها كباريس قد خرجت من الحرب فأعطيت شهادة النصر ، فحق لها تمجيد ذكر أبنائها من المجاهدين الكاسبين فحفرت حفرة على ربوة فى هذه الحدائق رصفت بالرخام ، وأوقدت فى وسطها

شعلة ثم راحوا للناس يعلمونهم رفع القبعات والدوران حولها وابداء الخشوع لها .

اعتليت الدرج إلى مكان هذا المتحف فى يوم عاصف ممطر ولمحت مكان اللوحة الرخامية والشعلة المتقدة فوقفت من بعيد كأنى أفحص بعض الأحجار التاريخية المصفوفة حول جدران المتحف أنظر إلى فعل هذه اللوحة والشعلة فى نفوس القادمين الذين وكأن عيونهم كانت تنظر ببله إلى هذا وتلك لتستكشف سر التقديس والرعاية فلا تجد ، فيدور الواحد حول اللوحة رافعا قبعته و بصره مبتسما للقادم الجديد ليشجعه على أن يحذو حذوه .

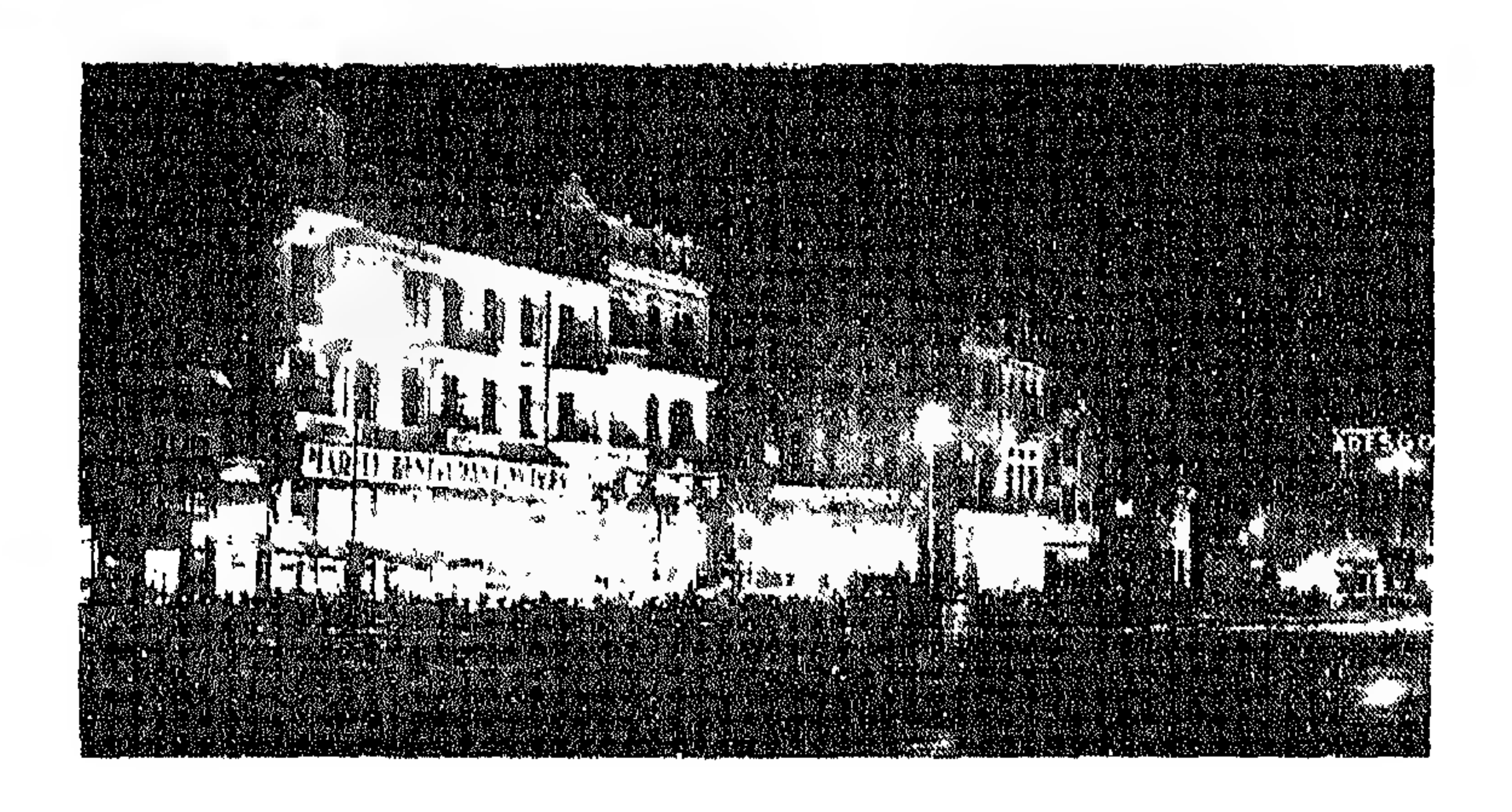
أما أنا — واصدق القارىء الحقيقة — فلم أجد وازعا من نفسى إلى أن أقف على هذه اللوحة أو أشبع العين بلهب الشعلة ولا أن أرفع قبعتى فى هذا اليوم الماطر الذى قد يجيب على تحيتى بنفحة من الزكام والعطاس أنا فى غنى عنه .

ومن ذا الذى لا ينشىء متحفا لذكريات الحرب العظمى ؟ ومن الذى لم يُبل بلاء فى تلك الأيام ، ومن الذى لم تصبه مصيبة فى تلك العواصف الهوجاء ، فهذه البنادق والسيوف والشارات والأعلام ، وهذه القنابل الفارغة وما إليها ألمانية كانت أم فرنسية ،

لم تعد فى جمعها ولا صفها فى مثل هذه القاعة متعة للعين ، ثم إذا انتقلتَ إلى تلك العشرات من الصور الفوتوغرافية الباهتة المتكررة تحس بأن واحدة منها كافية ، بل قد تحس بأن حتى هذه الواحدة ليس فى رؤيتها لذة ، صورة قائد يستعرض جنوده ، أو جندى فى خندق ، أو مدفع مأسور يحرسه حارس ، أو بيت مهدم أو عربة مقلوبة ، هذا كل ما هنالك . .

ليس فى هذا من جديد ، فتتركه إلى نماذج صغيرة لمراكب صغيرة صنعت لبوخارست فى برمنجهام ، وتترك هذه إلى نماذج طبية وصحية وغير ذلك من أدوات الحرب ، تترك ذلك إلى الطابق العلوى لتستقبل صورة حربية أخرى لرومانيا ، هذا التاريخ الذى لا يمتد حتى أخريات القرن الماضى حين ولىّ الجندى التركى ظهره وقفل راجعا إلى البوسفور . ولكن الطموح الانسانى ليس له حد حتى أنه ليسيطر على الماضى فراح الفنان يتخير من تاريخ بلده تلك الساعات المجلوة فيرسم لها الصور الرائعة كهذه التى وجدت مكانا رحبا على جدران هذا المتحف فخلدت أسماء أبطال لا يحفظ أسماءهم إلا تلاميذ هذه البلاد ، ومن يعرف إستفان سل مين مثلا ؟ وقد رسم فى موقف أبهى وأعجب من مواقف الأسكندر أو نابليون

وقد أدبرت أمامه الأعداء وتطايرت حوله الأشلاء فسبحان الله يعطى الملك من يشاء !



الليل فى ميدان أوفيد بكنستنزا

وفى هذا الطابق معرض لملابس الحرب القديمة من خوذات ودروع وأسلحة مما جلبه العارض من كل مكان حيثما تصل إليها يده فتركها كما وجدها دون أن يصفها بكلمة أو يحدد لها تاريخا أو ذكرى معينة ، و إذا دون شيئا كتب تعميما لا تخصيصا كما كتب تحت المعروضات التركية والعربية والفارسية وغيرها بأنها أسلحة شرقية ، كأن هذا تفسير قد يغلق على رائد مثل هذا المتحف .

في متاحف بوخارست

في بوخارست متحف للفنون الكنسية ، كان المتحف الوحيد الذى رغبت رغبة صادقة فى زيارته ولكننى لم أره ، لأن ساعات فتحه وإغلاقه معقدة فلم أوفق لمثل هذه الزيارة ، لذلك أترك وصفه لمن يتهيأ وقته لمثل هذا .

ثم أعود بالقارىء إلى حدائق كارول لأجول معه جولة فى المتحف الصناعى ، وأهم من ذلك لأقدمه إلى المسيو ... مدير هذا المتحف ، شخصية ممتازة تمثل الذوق والثقافة التى لو وجدت طريقها فى بلد غير هذا البلد المنزو المجهول لكان لها شأن غير شأنها ، ولكن هذه الشخصيات تعيش صغيرة لأنها نبتت فى بلد صغير ، ولا يصيبها من الشهرة مهما أجادت إلا ما يصيب هذا البلد .

زرت هذا المتحف فى مساء يوم من أيام الأحد ؛ لأنه لا يفتح أبوابه إلا ساعتين أو نحوها فى هذا اليوم لا ضنا بمعروضاته ولكن ضنا بزائريه . ولم يكن به إلا حارس يستقبل زواره ويقوم لهم مقام الدليل . وكان رفيقنا فى تلك الزيارة زائر مثلى له بالمتاحف صلة فهو يدير متحفا اثنولوجيا فى كلوج ، متحف لعلم لا يشوق إلا الخاصة ، فى مدينة لا يعرف مكانها إلا خاصة الخاصة ، فجهاد مثل هذا الرجل

مضاعف الجزاء . وحدث أنني عرفت هذا الرجل من قبل ، عرفته في لندن منذ سنين وقد كنت و إياه في مؤتمر لعلم الانثرو بولوجيا في لنـدن ، فأخذت و إياه نتذا كر أيام ذلك المؤتمر وأخباره وشخصياته فأصبحنا وكأننا أصحاب قدماء ، فتبادلنا البطاقات وتبادلنا الدعوة إلى كلوج والقاهرة ، فكانت مجاملة عارية .

أحسست وكأنني في معرض من معارض الاشغال اليدوية ، لا في متحف صناعي يثير في ذاكرتك صورة متحف الصناعة في سوث كنزنجتن في جنوب لندن بطياراته ومدافعه أو متحف فينا بقطاراته ومراكبه ؛ ولكنني أحسست كذلك بأن وراء هذه المجهودات المتواضعة شخصية صاحبها الذي وان كان يزحف كالسلحفاة إلا ان رغبته في النجاح لا تعوقها عقبة من العقبات ، وكان تقديري الصامت لصاحب هذا المعرض قد حفز دليلنا الحارس على أن يتصل به ويبلغه ان مصريا من المشتغلين بامور المتاحف يهديه التحية ، فما كان من صاحبها إلاَّ أن حدد موعداً للتعارف

ولعـل مصريتي كان لها عند مسيو س . صاحب هذا المتحف شأن خاص ، لأنني ما تلفتّ في أرجاء هذا المكان إلا ألفيت الكثير من تذكارات تاريخها القديم ؛ فما صوّر تاريخا

لصناعة من الصناعات حتى بدأ هذا التاريخ برسوم ونماذج وتحف وآثار مصرية قديمة ، فكانت للحضارة المصرية فى هذا المتحف مكانها اللائق لذلك تفتحت عيناى لجماله ، وأخذت أنظر إلى معروضاته نظرة التقدير والرضاء ؛ ولم أدر دورة فى هـذا البناء حتى تلمست مدى الجهد والبراعة فى اعداده ؛ فقصة البترول فى رومانيا قد عرضت عرضا جميلا رائعاً ، وحكاية الازياء الرومانية والمخرمات المزركشة والسجاجيد الشرقية ، وجدت مكانها فى هذا المتحف ، ومثلت فنون الصناعات والعمارة تمثيلا يستحق كل تقدير .

ولـكن من يسمع ومن يقدر ؟ هكذا تسمع شكوى هذا الرجل شكواه من حكومته التى كغيرها من الحـكومات الناشئة لا ترى فى مثل هذه المتاحف والمعارض حاجة ولا فائدة فى الاخذ بيدها ، وتسمع شكواه من الشعب وأبنائه الذى يعيش بعيداً عن هـذا «الترف» العقلى ، والرجل فى الحالتين يعيش ثائراً ، يحس بأنه يعيش فى غير وطنه ويعمل ويكد ويكدح فى ظلام شامل ، لهذا فقد كل أمل فى تقدير أو نحوه ولم تبق له إلا لذة البحث الخالصة.

نعم لقد عرفت الرجل بعد ان عرفت هذا المتحف ، فوجدت فى الرجل كنزاً يعتز به ؛ وانى لأذكر ذلك الوعد حين عقدت صحبته

فى حدائق كارول وقد جاء إلىّ مسرعا فى سيارة للاجرة من طرف المدينه حتى لا يضيع دقيقة من هذا التعارف ، وأذكر ليلتنا فى كافيه دى لابيه حين تبينت رغبته فى تعلم اللغة العربية ، ثم أذكر زيارتى له فى جناحه الخــاص بمدرسة الفنون والصناعات ، حيث تناولت الشاى والعشاء الذى أعده بيـده ، ثم انه عرض علىّ ما اشتراه من كتب المانية لتعليم اللغة العربية ، وأذكر كيف بدأتُ درسه الأول بتمرينه على نطق الحروف العربية والفروق بين الدال والضاد والطاء حتى كلّ لسانه وبدأت أتأثر بخلطه ومزجه فيها ، وأذكر تلك الساعات التى قضيناها فى مكتبه وفى بيته مكتبة كبيرة حافلة بمؤلفاتها الانجليزية وكتبها الالمانية ومجلاتها الروسية والفرنسية ، لقد كانت متعة روحية أحسست فيها بأننى فى جاور استريت ، ولست فى صميم البلقان .

وإلى جانب هذا المتحف الصناعى معرض أو متحف صغير للزراعة والغابات شبيه بمتحف بودابست الـكبير ولا شك ان لهذا المتحف الأخير فضلا فى انشاء هذه القاعة ، فروحها من روح متحف بودابست ؛ فغابات رومانيا المصورة فى هذا المعرض كانت فى يوم من الأيام فى صـميم الأمبراطورية النمسوية المجرية ،

فبودابست ما زالت تحتفظ فى متحفها الكبير برسوم هذه الغابات ونماذجها وهى لا تملك منها الكثير أو القليل ، وبوخارست تحتفظ بهذا التراث الكبير ولكنها لا تملك متحفا كبيرا لعرض رسومها ولكنها تكتفى بالحقيقة دون صورتها !



حدائق جشميجيو فى بوخارست

ولكن المجر يعيشون بالخيال ويستعذبون الامل ولا يعترفون بحقيقة أو واقع ، فخرائط المجر فى متاحفها ما زالت تلك الخرائط الواسعة التى تلتهم ممتلكات جاراتها وما الذى يدعوهم إلى تغييرها وتبديلها ؟ ولذة كل مجرى فى أن يراها كما يحب لا كما يراها غيره . وللمجر فى هذا الشأن حكايات وقصص ، نعود اليها عند ما نعود إلى أصحابها .

السفر من بوخارست

و بعد اسبوعين فى بوخارست شددت الرحال مرة أخرى إلى الدانوب ، فخلفت فى بوخارست أصحابا وأصدقاء عرفتهم فى الطريق ، وخلفتهم كذلك فى الطريق . فكانت صحبتى لمضيفتى الألمانية فالى ما كانت لتبدو قوية الا حين حزمت حقائبى شطر فينا . ولعل حنينها لتلك البلاد قد جعل لسفرى عندها صورة لوداع الأصدقاء القدماء .

استيقظت فى ذلك اليوم منذ الصباح الباكر أو اعتقدت على الأصح انى استيقظت كذلك ، فدفعت ديونى وحسابى للغاسلة ولبائعة اللبن التى كانت تترك إلى باب غرفتى كل يوم رطلا من اللبن وتخط على الحائط خطا كل يوم ، ولم تكن تتورع فى أن تسابق الأرطال فتضيف وتزيد فيها ماشاءت .

وعند ما ذهبت للافطار فى احد مطاعم هردان وجدت أن ساعتى العاشرة ليست فى الحقيقة الا الواحدة بعد الظهر فلم تبق لى الا ساعات معدودات فى بوخارست . وكما أن الزائر للندن لاينسى جلساته فى مطاعم ليونس والكورنر هاوس فان زائر بوخارست سوف يذكر هردان بكل خير . ولاشك أن صاحب هذه المطاعم

فى بوخارست قد عاش يوما ما فى أمريكا أو فى برلين ، فاناقة هذه المطاعم وذوقها لا يتهيأ لرومانى صميم . وانك لتلمح هذه المطاعم من بعيد مميزة بالرقم سبعة وقد رسم بحروف كبيرة على بابها فبـ « ليّات » سبع يقدم هردان كل ما يطلب الزائر من شاى أو قهوة وغيرها من صنوف الشراب والطعام .

وكان علىّ فى ذلك اليوم أن أزور البورصة السوداء . والبورصة السوداء فى بوخارست جماعة من اليهود والأرمن واليونان اتخذوا من بعض شوارع بوخارست الخلفية ومقاهيها الصغيرة مكانا مختارا للبيع والشراء غير المشروع فى العملة الرومانية . فاذا هبط غريب ذلك المكان تجمهر حوله هؤلاء المرابون يغرونه بالتفريط فيما يحمل من جنيهات انجليزية أو دولارات أمريكية ولهم فى ذلك حيل وأساليب . والعجيب أن بوخارست تعرف البورصة السوداء وتعرف أبطالها . فبينما تحرم هذا النوع الخطير من التجارة إذا بها تتجاهل وتتغابى وتصم الآذان وتسبل العين عنها . فهذه البلاد الموبوءة بالرشوة تتخبط فى النهوض بادراة شؤونها وهذا الفساد الاجتماعى متغلغل فى صميمها . فقد ذكر سائح انجليزى فى كتاب له كيف أنه صادف فى بعض القرى المجهولة عاملا من عمال الجمرك

الرومانى كان يعمل يوما ما فى نقطة الحدود ما بين رومانيا والمجر فى طريق قطار الشرق المعروف ، وكيف أن هذا الرجل أبدى شكه فى شخصية وزير من وزراء بلده قادم من باريس فلما أصر على تفتيشه عثر فى جيوبه وحقائبه بالكثير من المهربات . فكان



فى الريف الرومانى

من ذلك أن نفى هذا الرجل الى تلك القرية المجهولة .

وحكايات هذا الفساد الاجتماعى لا حصر لها تسمعها من الكبير والصغير ، فينصحك ناصح فى أن ترسل خطاباتك مثلا بالبريد المسجل لأن عمال البريد يستولون عادة على الطوابع البريدية غير

المسجلة و يبيعونها من جديد ، و ينصحك آخر بأن تعليمات البوليس الكثيرة المعقدة لا تحل الا بالرشوة . وليس فى ذلك افتيات على حقيقة بل رأيت ذلك وعرفته بنفسى .

ولرجال الشرطة فى رومانيا واجب غير محدود فرومانيا كغيرها من البلاد التى لم تتهيأ بعد لاحترام القانون ولم تثبت فيها تقاليد نقلتها بالأمس القريب من الغرب ، يعيش شعبها تحت صوت الأوامر وعصا رجال الحكم . فتجد فى بوخارست من يمنعك من السير فى طريق معين . ومن يمنعك من الوقوف بضع دقائق فى ركن معين من أركان الشارع بينما تجد العشرات حولك يقفون ساعة طويلة لا يتحركون ولا ينتقلون .

فتقليد الغرب وتقليد الحياة فى عواصم الغرب الكبيرة مرض معروف عندنا وتعرفه البلاد الناشئة الجديدة . فبينما تقلد بوخارست برلين مثلا فى منع أصوات السيارات والمركبات اذا بها تقود أهلها إلى الفواجع والاخطار ، هذا الشعب الذى لم يعرف بعد صوت السيارة إلا منذ عهد قريب .

ولكن هذه المظاهر البراقة تعجب ولا شك رجال الحكم الذين عرفوا الحياة فى باريس وفينا وتملأ قلوبهم بالفخار عند

ذكرها وعند توجيه عيون الغرباء اليها . وانى لأذكر مرة زرت فيها مديراً لمصلحة من مصالح الدولة الثقافية لشأن من الشؤون ، أذكر كيف استحال صاحبى إلى خطيب راح يلقى علىّ محاضرة طويلة عريضة عن بلده وعن مبلغ الحضارة الرومانية وعن مدى الثقافة ومظاهرها فى بوخارست ، وراح يلقى علىّ النصائح بأن أفتح عينى فى رحلتى على الدانوب إلى مباهج الريف الرومانى . اقد



الصيف فى ماماى

أحسست بأن مثل هذا الرجل مع ثقافته الاجنبية محدثا فى تعليمه مزهواً كالصغار بوطنه الجديد الذى تمدد مابين يوم وليلة إلى أضعاف ما كان عليه ، بفعل القضاء والقدر لا بعزيمة أهله ولا برغبة شعبه .

ومع ذلك فاننى أذكر ولا شك لرومانيا كل خير وأذكر لـكثيرين فيها حسن الضيافة والمجاملة ولـكن الحقيقة شيء آخر . فان هذه الشعوب الدخيلة التى تعيش مع الرومانيين تفسد على ساسة هذا البلد كل مجهود فى رقى أوتقدم . فالرومانى يعيش فى حذر من اليهودى فلا يرسله إلى الجيش ، والرومانى يخاف من المجرى الذى يعيش فى بلاده والذى يتحين الفرص حتى اذا نشبت حرب حمل عدته وعبر الحدود ليحارب رومانيا بأسلحته الرومانية .

على مياه الدانوب البلغارية

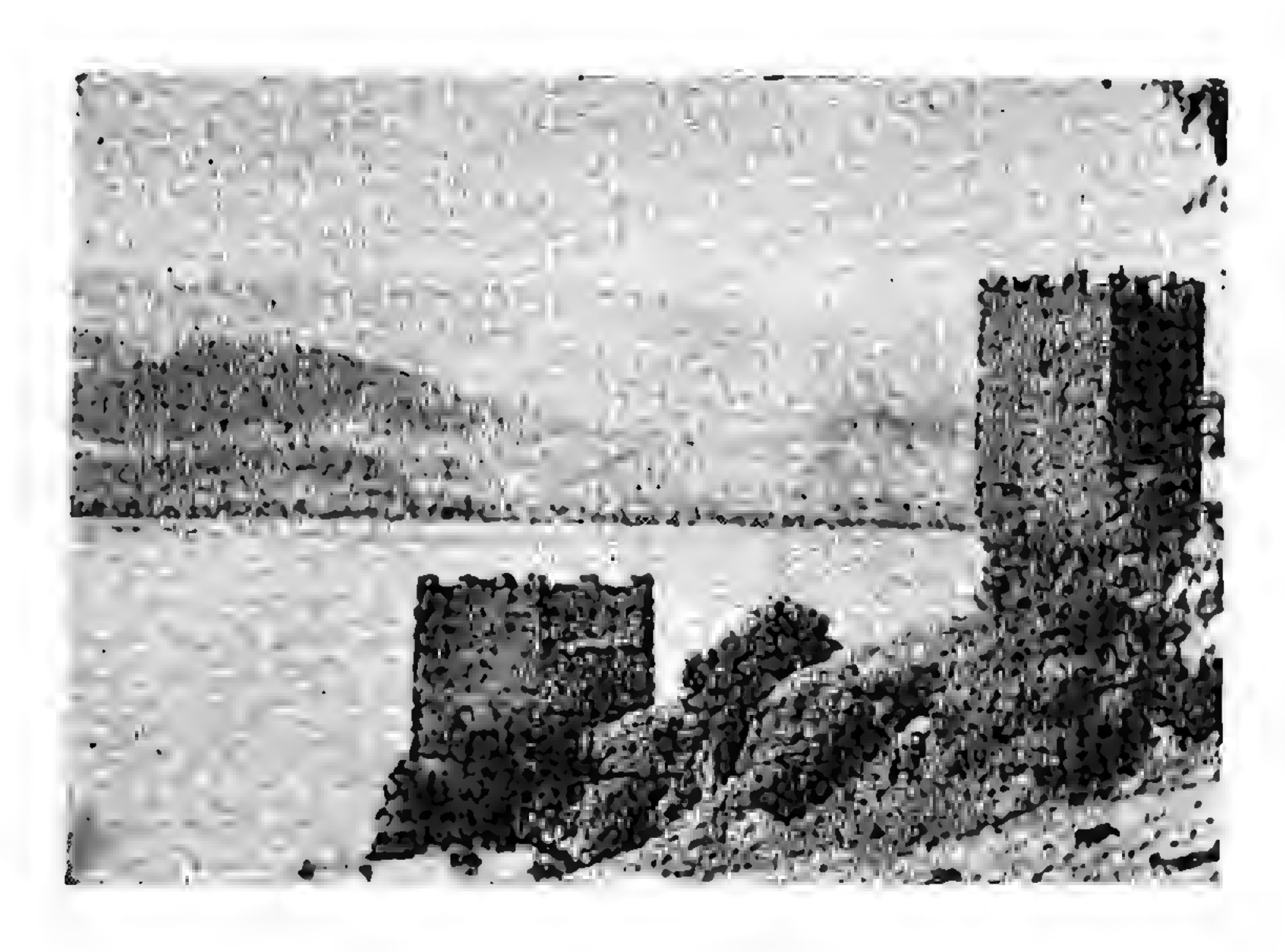
كانت باخرتنا النمسوية من جورجو كباخرة إنجليزية فى مياه فرنسية على بحر المانش ، وكان رفقاؤنا فى السفر إلى بودابست وفينا خليط من جميع الأجناس عدا الرومانيين . وسرعان ماعقدت صحبة مع صبى عرفت أنه ألمانيا من زيه التيرولى ثم من الحزمة الـكبيرة التى يحملها على ظهره ، وسرعان ما التأمت من بيننا حلقة كبيرة من المسافرين الألمان والنمسويين .

وكان نصيبي في هذه المرة الدرجة الأولى ، وقد عرفت السفر في هذه البواخر من قبل بقاعاتها وحجراتها الأنيقة المزخرفة فيجمع السفر فيها على مياه الدانوب الساكنة ما بين متعة البحر وبهجة السفر على الماء . وكان هؤلاء الرفاق ممن يكثرون التجوال على الدانوب فبينما يدرسون في فينا إذا بهم يقضون أجازاتهم بين آبائهم في رومانيا ، لذلك جاءوا محملين بكثير من ألوان الزاد والكعك والحلوى والفاكهة فاستعضنا بها عن موائد الباخرة بأثمانها الغالية بعض الشيء ، وعندما جاء المساء أخرج الواحد منهم فراشا من الصوف يدخل فيه كأنه لباس من ألبسة الغواصين ويقفله عليه فيغطي كل جزء منه إلا فتحة لأنفه وعينيه ، فينام في هذا الجولق حيث يريد فيجمع بين النوم في الهواء الطلق وبين الدفء والراحة حتى إذا أصبح الصباح جمع أجزاءه ولفه بحذق ومهارة .

* * *

وتركنا ميناء جورجو في الساعة العاشرة واتجهنا صوب العبر الآخر من الدانوب حيث مدينة روس البلغارية وألقينا مراسينا فيها حتى منتصف الليل . وروس من الموانيء البلغارية الهامة على الدانوب فهي حلقة الاتصال بين صوفيا والبحر الأسود وبينها وبين

رومانيا . ولو أن صلة المكان تجمع بين البلدين بيد أن السياسة والعداء القديم بين البلغار والرومان يعمل على توسيع الشقة بينهما فالمسافر لا ينتقل من شاطىء إلى شاطىء إلا فى وضح النهار ثم إنه ليدفع أجرا لما يحمله أضعاف ما يدفعه أجرا لنفسه ، تثبيطا لهمة التجار ومع ذلك فان تجارة المهربات بين البلدين رائجة واسعة النطاق .



آثار رومانية على الدانوب

وروس البلغارية أو روشتك من البلاد ذات التاريخ التركى الطويل وما زالت إلى اليوم مركزاً من مراكز الثقافة الاسلامية فى بلغاريا

وكانت في أخريات القرن التاسع عشر حاضرة تركيـة لمصلح معروف في تلك البـلاد يدعونه مدحت باشا ازدهرت في أيامه روشتلك أيما ازدهار . وفي الساعة الثالثة أو نحوها من الصباح وصلنا قرية بلغارية أخرى ثم غيرها في الساعة الخامسة ، بيد أني لم استقبل اليوم الجديد حتى وصلنا في الساعة التاسعة أُوريهوفا وهي من البلاد التاريخية التي كان لها شأن يذكر في العصر الروماني القديم وما زالت آثار قلاعهـا الرومانيـة تخبر عن شأنها القديم كمركز حربي .

وعند أُوريهوفا استقبل مركبنا مئات من صـناديق البيض البلغاري المصدرة إلى المانيا ثم اننا استقبلنا وفوداً من البلغار ومن الطلبة البلغار المسافرين إلى تشيكوسلوفاكيا وقد ملأوا المـكان ضجة بأغانيهم وأناشيدهم التي لم تكن غريبة عن الموسيقى التركية ، وقد وجدت أذنا صاغية من رفاقنا الالمان . وما زال البلغار يتعلقون بصداقتهم القديمة لالمانيا منذ ان دخلوا و إياها الحرب جنبا إلى جنب ، مع انني وجدت فيما بعد أن الثقافة الفرنسية بدأت تغزو صوفيا بشدة ونجاح . ولـكن ذكريات الحرب ما زالت لها روعتها في الآذان وما زال البلغار يحتفظون بذكرى صداقة حلفائهم ، فوفود

الطلاب الالمان إلى بلغاريا تقابل دائما بالترحيب .

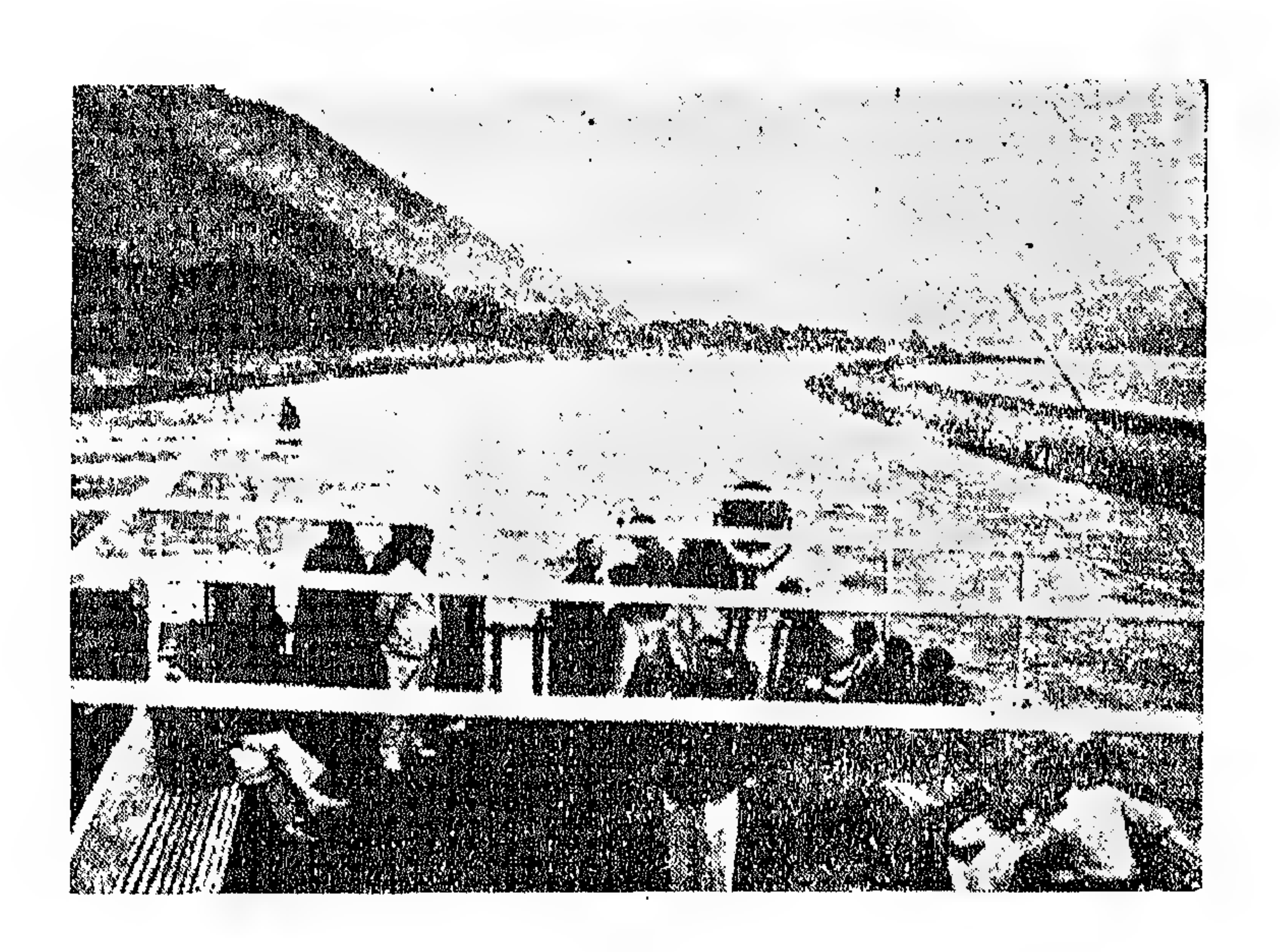
ثم اننا مررنا بقرية كزلوج ، ولها عند البلغار جميل الذكريات ، إذ ان عند هـذه القرية اعتصم بطلهم وشاعرهم كرستو بوتف على بعض مراكب هذه الشركة النمساوية التى ما زالت تذرع الدانوب منذ مئة سنة وذلك ابان حرب استقلال بلغاريا ، ولـكن البطل البلغارى لاقى حتفه من الاتراك إذ ذاك . بيد ان هذه الحوادث قد أصبحت تاريخا قويا لأهل بلغاريا فصاغ شاعرهم المعروف ايفان فاسف قصائد والحان شعبية خالدة عندهم .

وفى الساعة الرابعة من ذلك اليوم وصلنا مدينة لوم البلغارية وقضينا فيها بضع ساعات ومن ثم عاودنا السير إلى فيدين فوصلناها العشية وسنعود إلى الكلام على ذلك عند الكلام عن البلغار .

البوابة الحديدية

فى السادسة من الصباح ايقظنى صديقى النمسوى جزعا ملحاً إذ كنا نمر فى تلك الساعة بالبوابة الحديدية المشهورة .

مررنا ونحن نيام بمدينة تورنوسيفيرين بآثارها التى تحدث عن تاريخ قديم . فمنذ عشرين قرنا أو نحوها عبرت جيوش روما



نودع البوابة الحديدية

الدانوب من هذا المكان وأقامت عليه قنطرة مازالت أحجارها منثورة على شاطئه . فبينما تسير مئات الاميال من شرنافودا غربا على الدانواب ولا تعترضك قنطرة أو جسر كان لهذا المكان من الدانوب فى تلك الأيام شأن حربى يذكر . ومن هذا المكان او حواليه كانت جيوش الصليبيين تنحدر الى الشرق الادنى . وفى هذا المكان كانت مواقع فواصل بين الترك وشعوب البلقان المتجمعة . ولكن ترنو سيفيرين لا تعرف الآن بتاريخها الحربى بل بمدينة الورد لكثرة مابها من حقوله واحواضه وهى لا تبعد الا قليلا عن بلغاريا التى جعلت من الورد تجارة وصناعة رابحة .

ما كدت أرفع رأسى حتى الفيت ذلك الجمع من الشبان النمسويين يدخل علينا مابين صائح ومناد للخروج الى ظهر المركب للتمتع بروعة البوابة الحديدية ، حتى أننى ما كدت اعتلى الدرج ولمّا استيقظ بعد حتى انزلقت قدمى وهويت الى قاع السلم .

واستيقظ فى تلك الساعة جميع المسافرين ، هرعوا رجالا وسيدات للتفرج على البوابه الحديدية . ولقد فعل هذا الضجيج وهذه الثورة القائمة فعلها فى النفوس ، فما ان ادرت رأسى متلفتا بين ضفتى الدانوب باحثاً عن مكان هذه البوابة الحديدية التى

تخيلتها كأنها مارد هائل جاثم فى وسط الماء ينتظر مسيرنا الى جانبه لينقض علينا ، ما ان ادرت رأسى حتى احسست بالفراغ وصار كل واحد منا يسأل رفيقه اين هذه البوابة الحديدية ؟

وعند ما هدأت هذه الثورة وهدأت نفوسنا وتفتحت عيوننا أخذنا نكتشف سر هذه البوابة ، فلم تكن مياه الدانوب يعوقها مارد أو نحوه ولم تكن الجبال على شاطئه جاثمة على صدر النهر تخنقه بل ان ما هنالك ما كانت لتميزه إلا العين الفاحصة ، فمجرى النهر ليس مخنوقا كما تخليت ولم تكن الجبال مرتفعة على جانبه كالجبار ، ولا تكاد العين ترى الشعاب الصخرية المنبثة فى قاعه والتى كانت خطرا داهما على السفن فى هذا النهر ، فمجرى النهر قسم الى طريقين بحائط حجرى لا يرتفع إلا قليلا على سطحه تسير إلى يمينه المراكب فى أمن من هذه الشعاب . وليس هول البوابة الحديدية فى شعابها بل فى تيارات الماء المنحدر والتى أحالتها تلك الشعاب إلى دوامات عجيبة فائرة تهاجم القوارب حتى تعجز ملاحيها عن تسييرها فتتلقفها شعابه كالاسنان المحددة وسرعان ما تختفى فى جوفه .

وكان إلى جانبنا فى عرض النهر مركب غريق ما زالت ساريته وبقاياه طافية لا تجد من ينقذها أو لعلهم تركوها للعبرة والتذكرة .

ولم نسر طويلا حتى ازداد انفراج النهر وبعد شاطئاه وانعدمت شقشقة الماء المنحدرة وعلامات الخطر التي كانت مبثوثة بين كل خطوة وأخرى، وتركتنا الباخرة الصغيرة التي كانت تقودنا، و بدت في وسط الماء الفسيح كالبحيرة الممتدة جزيرة خضراء ترتفع أشجارها على النهر كأروع ما تكون فتنة الماء والشجر .

آطه قلعة

هذه جزيرة « آدا كاليه » أو كما يجب أن ندعوها آطه قلعة . ومن ذا الذي يسافر على الدانوب ولا يسمع بآطه قلعة ؟ ؟ سمعت عنها منذ وطئت أرض رومانيا وسمعت عنها في بلغاريا وبلغراد وفينا بل وفي كل مكان ، كان لمكانها الفريد في وسط الماء إلى جوار البوابة الحديدية وكان لتاريخها القديم العتيد ، وكان لصراعها الطويل مع أهل الشمال والجنوب ، كان لكل ذلك أثره في خلق شخصية ممتازة لهذه الجزيرة الصغيرة .

لم تكن الشمس قد أسفرت في الساعة السابعة عندما بدأ مركبنا يقترب من هذه الجزيرة ، فقد كان اليوم باردا ممطرا تشبع هواؤه بالضباب والندى ، ولكن ذلك لم يضعف من سحر هذه الجزيرة ، بدت أشجارها وكرومها وحدائقها رائعة في تلك الساعة

ثم بدت بيوتها وقصورها الفاخرة التى ترتفع على الماء وكأننا نسير على البوسفور تحت ظلال اسطنبول أو ذلك الجزء من جزيرة الروضة فى القاهرة بقصوره من آثار المماليك .

وعند ما اقتربنا من الشاطىء كانت سيدة فى حديقتها تغرف الماء بجردل معلق الى حبل طويل ؛ وكان ذلك منظرا من مناظر الشرق الفاتنة التى نفقدها فى الشرق نفسه .

* * *

فى العصر التركى كانت جزيرة آطه قلعة إمارة أوضيعة يحكمها أحد الباشوات ، وعندما بدأ التيار التركى فى الهبوط وأخذت



آطه قلعة

تنسلخ بلاد البلقان من امبراطورية آل عثمان ، حدث أن نسى المؤتمرون فى برلين منذ سبعين سنة أمر هذه الجزيرة عند ما قسموا شواطىء الدانوب بين شعوب البلقان ، فبقيت هذه الجزيرة الصغيرة تركية فى وسط عالم من الصرب والبلغار والمجر ، فأصبحت كأنها مستعمرة ضئيلة لاسطنبول ؛ و بقيت كذلك خمسين سنة كتذكار حى لتلك القرون الطويلة التى حكم فيها الأتراك هذا الجزء من أوربا . ولم تتقلص سيادة الترك منها إلا منذ حرب البلقان الأخيرة .

ولكن آطه قلعة مافتئت إلى اليوم تركية لحما ودما فسا كنوها الثمانمئة من صميم الأتراك يعيشون حياة تركية و يتكلمون التركية على مياه الدانوب . وعند ما خرجنا إلى الجزيرة فى تلك الساعة الباكرة استقبلنا جمع من الرجال والأطفال وسرنا فى طريق ضيق بين البساتين والحدائق طريق غطيت أركانه بالعرائش وأقبيته بالشجيرات المتسلقة على نسق ما نراه فى الشرق ، وقادنا هذا الطريق إلى السوق الضيقة — التى تحكى سوق خان الخليلى فى مصر — وقد فتحت فى هذه الساعة متاجرها للزائرين ، متاجر الدخان التركى والسجائر المذهبة والمعطرة ، ثم عطر الورد والياسمين ؛ وراحة الحلقوم المحشوة بالجوز وغير ذلك من تذكارات اسطنبول .

ثم أننا جلسنا فى بعض المقاهى المتجاورة فى هـذا الطريق الضيق نحتسى الشاى المعطر والقهوة التركية وطلب من طلب نرجيلة بقصد التجربة ، وطال بنا الجلوس نصف ساعة إذ السماء ما برحت مغلقة وما زال المطر يتساقط رذاذا ؛ وأولجت فى حديث مع صبى التاجر الذى اشتريت منه البطاقات التذكارية لآطة قلعة وهو يقيد حسابه بالحروف العربية ، وإن كان أهل هذه الجزيرة قد أخذوا بأساليب الكماليين فى لباسهم وحياتهم الاجتماعية على غير عادة أهل البلقان .

ثم أخذنا نجوب أطراف الجزيرة فاجتزنا قبوا ارتفعت عليـه شـبه قلعة أو قصر عتيد لا شك فى أنه كان لحـكام الجزيرة من البشوات وقد نقشت عليه قصائد شعرية تركية مذهبة ، بدأ البلى يلعب برسومها .

وما عبرنا هـذا القبو حتى بدا جامع الجزيرة بمئذنته الدقيقة الباسقة وقد بنى على ربوة عالية يرتفع إليها السائر بدرجات حجرية ملتوية ، حتى إذا وصل إلى قمة الربوة ألفى نفسه فى فسيح من الأرض تكتنفه الأشجار وقد توسطه «سبيل» من الرخام المزخرف نقشت عليه الآية القرآنية : « وجعلنا من المـاء كل شىء حى ».

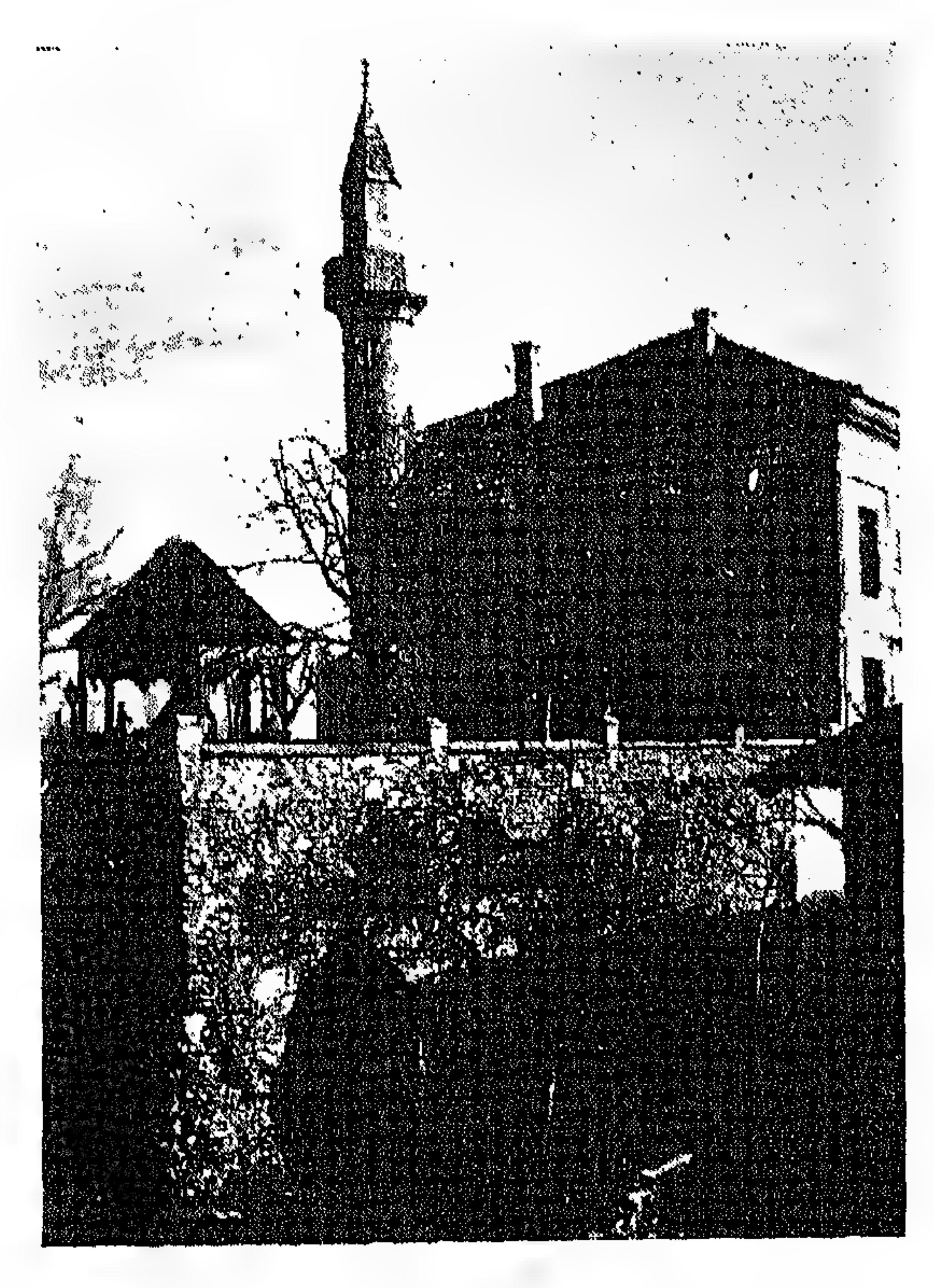
ذيلت بكلمة تذكارية لمنشىء هـذا السبيل « صاحب الخيرات والحسنات كرزه لى أحمد حسن أغا وتوفيق سليمان أغا — ١٦ (تسيان) سنة ١٣٢٧ »

و إلى يسارنا وقف إمام المسجد على بابه ينتظر استقبالنا ، وقد جرت العادة على أن يزور رواد الجزيرة هذا الجامع . وكان كغيره من رجال الدين فى البلقان يرتدى القباء الأسود على سراويله الغربية و يلبس العمامة والطربوش و يتكلم العربية . و بدت مئذنة الجامع من هـذا المكان ضاربة فى الهواء وقد تناثر بعض طلائها الخارجى فبدت أعواد الخشب التى زخرفت بها .

وكان سقف هذا المسجد سطحا واحدا لا تتوسطه القبة التقليدية وكان فى ذلك كغيره من المساجد التى زرتها فى هـذا الجانب من الدانوب . وقد نقش كما نقشت الجدران بالزخارف العربية الملونة المذهبة ، ودونت عليها أسماء الله والنبى والخلفاء الراشدين بحروف عربية تشهد للخطاط التركى بالذوق والمهارة ، وكان أبدع ما فى هذا المسجد سجادة شرقية رائعة النقوش ، كأنما الصانع نفض يده منها لساعته غطت جوانب هذا المسجد جميعه ، كانت هدية من السلطان عبد الحميد لجامع آطه قلعة .

على جانبي الباب مدرسة صغيرة تتبوأ حجرتين على يمين الداخل و يساره صفت فيها المقاعد والادراج ، ويدرس فيها الاطفال اللغه التركية وآيات الذكر الحكيم . بيد ان لاهل الجزيرة مدرسة غير هذا المكتب تسير على الاساليب الحديثة فى التعليم .

وقبل أن نودع صاحبنا قيدنا اسماءنا فى دفتر الزيارة ووضعت



جامع آطه قلعة

بدرة من النقود فى صندوق النذور ، واشتريت كتيبا عن تاريخ الجزيرة لا أعرف اين افتقدته .

المسلمون فى رومانيا

يسكن رومانيا من المسلمين مئتان وخمسون الف . ومسلمو رومانيا من الشعوب التترية التى نزحت من روسيا والقوقاز الى اوربا فى ازمان متفاوتة فهبطت بولندا ولتوانيا وفنلندا ثم رومانيا . وبعد هذه السنين الطويلة مافتئت هذه الشعوب متميزة بطابعها المغولى وسحنتها التترية التى تربطها بوطنها الاصلى من صين وتركستان . فالوجه الدائر والعين الصغيرة المشقوقة والشعر الاسود المسترسل مما يميز أكثرية المسلمين فى رومانيا .

وتتجمع هذه الآلاف من المسلمين فى دوبرجا مابين البحر وشاطىء الدانوب ، وكثير من بلاد هذا الجانب من رومانيا تحمل أسماء عربية أو تركية كمجيدية واسمعيل و بزارجق . و يقسمون هذه المنطقة إلى مقاطعات أربع لكل واحدة منها مفتى يشرف على شئون طائفته الاسلامية فى سلسترا وكستنجة و بزارجق وتولجا ، و يتغير هؤلاء الرؤساء الروحيون بتغير الوزارة الرومانية . ولكل

مقاطعة من هذه قاض للشئون الشخصيه . و تمثل الأقلية الاسلامية في البرلمان الروماني .

والقانون الروماني الذي يمنع قبول الأقليات في الجيش يستثني هؤلاء الأتراك ، لذلك كان لأبناء هذه الطائفة مجال في الحياة السياسية والاجتماعية في رومانيا . فقد عرفت في كونستنزا عددا من رجال القانون والطب من المسلمين .

وفي كل قرية ذات أكثرية اسلامية مسجدها . ولكل مسجد إمام وخطيب ومؤذن . والى جانب كل منها مكتب إسلامي شبيه لما رأينا في كونستنزا . ولهذه المؤسسات أوقاف يديرها رجال الأفتاء أو الجمعيات الاسلامية و يصرف ريعها في عمارتها وفي أجور الأئمة وغيرهم وتساهم الحكومة في دفع أجور رجال الافتاء والقضاء الشرعي والمعلمون وخطباء الجمعة ، وهؤلاء الخطباء من رجال الأعمال .

و يتعلم الأطفال في هذه المكاتب الاسلامية الملحقة بالمسجد و يدرسون فيها اللغة التركية والحساب والفقه والتفسير وآى الذكر الحكيم ، و يدرسون بالرومانية التاريخ و بعض مواد الدراسة الأخرى كما يعلم هؤلاء الأطفال في المدارس الابتدائية العامة ، وتخصص

ساعتان أوثلاثة كل يوم لتلقين اللغة التركية ومواد الثقافة الاسلامية.

وفى مجيدية مدرسة اسلامية عليا يطلقون عليها « سمنار مسلمان » يقضى الطالب فيها ثمان سنوات وتعده لوظائف القضاء الشرعى وللتعليم . و يدرس فى مجيدية باللغتين الرومانية والتركية ، و يعمل فى هذه المدرسة ستة عشرة معلما ما بين رومانيين ومسلمين

* * *

ثم القت مركبنا مراسيها بعد قليل عند أرشوفا على الشاطىء الرومانى . وقد انضم لرفقتنا إلى فينا صبى نمسوى آخر يعمل فى مصانع شركة الملاحة . وأرشوفا مع مظاهر المدينة الحديثة التى تنعم بها من أقدم المدن على الدانوب

من تلك المدن التى قدرلها أن تكون العوبة فى يد الفاتحين لانها فى طريق هؤلاء وهؤلاء ، فعرفها الرومان وعرفها الصرب وانتزعها الترك ، واستولى عليها البلغار ودخلها المجر ، واستسلمت للنمسا ، وتزور اليوم ارشوفا فاذابها رومانية وعند أرشوفا تسير اميالا معدودة لتزور حمامات هرقل ، التى قيل فى الخرافة أن ذلك الجبار كان يختلف اليها . وقد عرف فضل مياهها الدافئة والمعدنية الاتراك بعد الرومان . ثم اختفى ذكرها طويلا حتى اكتشفت من جديد فعرف طريقها أباطرة النمسا وملوك الصرب ورومانيا .

كازان

ليس على الدانوب بعد هذه الألف من الكيلو مترات ماتحس بان الطبيعة قد أجادت فى صنعه إلى حد البراعة ، فلم تكن دلتـا الدانوب إلا برك فسيحة ، ولم تكن عمائر الدانوب إلا قرى تجاهد الحياة البسـيطة ، ولم تكن البوابة الحديدة إلا خرافة فى الأذهان ! وعلى حين فجأة وقد بدأ الأمل يتهلهل فى اكتشاف روعة هذا النهر تبدو كازان .

ولاشك أن اشتراوس حين وضع موسيقاه الخالدة (الدانوب الأزرق) لم يستوح خياله من مياه الدانوب عند (الراشبركى) فى فينا ، تلك المياه الكالحة الجيرية ، ولم يستلهم وحيا من ضفاف النهر الطينية الواطئة الميتة ، لاشك فى ذلك ، وإذا كان هنالك مايثير وحيا عنـد شاعر أو مصور ، أو يستحث الهاما عند موسيقى على على الدانوب ، فهنا فى هذا المكان عند كازان .

ما اختفت آطه قلعة حتى استحال عبرا الدانوب إلى شاهقين من الحجر ينحدران إلى الماء دون فرجة من الأرض ، وتقلص الدانوب الى جدول من الماء له من العرض مائة وستون مترا ، ولكنه جدول من الماء الثائر الذى تحس العين بعمقه . وسرعان ما تجد الجبال

قد تسورت المـــاء فاغلقت مسيله ، فاستحال النهر الى بحيرة من بحيرات الشمال بجبالها الحجرية الجرداء ، التى برتها الثلوج ؛ ثم إذا بالمركب يدور دورة فتنفرج الجبال من جديد ، فتسلمنا إلى بحيرة جديدة والى شواهق جديدة من الحجر ، اختلطت قممها بالسحاب المتسابق ، لاتلمح العين فى انحدارها فجوة أو ثلمة تثبت فيها قدم انسان أو غيره .

لقد كان المنظر رائعا ، وكان دوى الماء تتجاذبه جبال الكربات التى تنتهى رحلتها الى هذا الجانب من الدانوب ، وتبدأ من عبره الآخر سلاسل من جبال البلقان تسير طويلا حتى البحر المتوسط . ولكن هذه الجبال وتلك المرتفعات ماهى الا سلسلة واحدة متلاحقة ماوصلت الى الدانوب حتى قطع عليها الطريق فقهر الماء الحجر ، وبقيت هذه الشواهق فى مكانها على ضفتى النهر تحرسه وترعاه .

ثم يقترب مركبنا من الشاطىء الحجرى لنقرأ نقوشا باللاتينية نقشها صانعها منـذ عشرين قرنا تخبر عن قصة تروجان العظيم ورحلته الطويلة من ضفاف التيبر إلى شاطىء البحر الاسود ، وهو ككل رومانى قد نقش عند كل خطوة خطاها تذكارا ، وما كان يدور فى خلده أن تلك الديار التي كانت تعوى فيهـا الذئاب

والخنازير البرية تستحيل إلى مدائن عامرة ترتفع ثقافة إلى سماء روما القديمة .

وبعد هذه القرون الطويلة ينقش صانع جديد بلغة جديده على هذا الحجر اسم مهندس مجرى حفر فى هذا الصخر الجلمود طريقا ما بين الجبل العارض والماء الثائر ، حتى وجد القطار الحديدى سبيله بين هذه وتلك ، وأصبحت كازان بعد وحدتها الطويلة معبّدة مطروقة .

وهكذا سار بنا المركب ساعتين قصيرتين نودع جبلا لمستقبل شاهقا ، حتى بدأت هذه الجبال تغور شيئا فشيئا ، وبدأت الحياة باشجارها وسائمتها تغزو السفوح والقمم .

ومن خمسين ومئتى سنة ، وفى كهف منحوت بين هذه الجبال يطل على مياه النهر من ارتفاع مئتى قدم ، لا تكاد تميز مكانه العين ، فى هذا الكهف اختبأ الجنرال النمسوى فترانى مع أربعمئة من جنده يناهض جموع الترك أربعة أشهر كاملة .

وبعد ذلك بأربعين سنة وقف موقفه ضابط نمسوى آخر شهرين طويلين فى وجه جيوش اسطنبول . وليس من شك فى أن قصة هذا الكهف ترجع فى تاريخها إلى أبعد من هذا ، ولا شك فى

انه قد عرف مكانه الانسان الأول ، فعاشت فى قلب هذه الجبال طوائف المتحاربين والثائرين والهاربين من وجه العدالة أو الاستبداد

وفى بعض هذه الارجاء وجد الزعيم المجرى كوست ملجأ بعد ان فشل فى ثورته ؛ وقد حمل معه فى هذه البرارى المغمورة تاج القديس اسطفان الذى لا يتوج ملك من ملوك المجر إلا به ، ودفنه فى حفرة أقسم ألا يبيح بسرها ولكنها ككل كنز مفقود نفض التراب عنها ، وحمل التاج إلى بودابست .

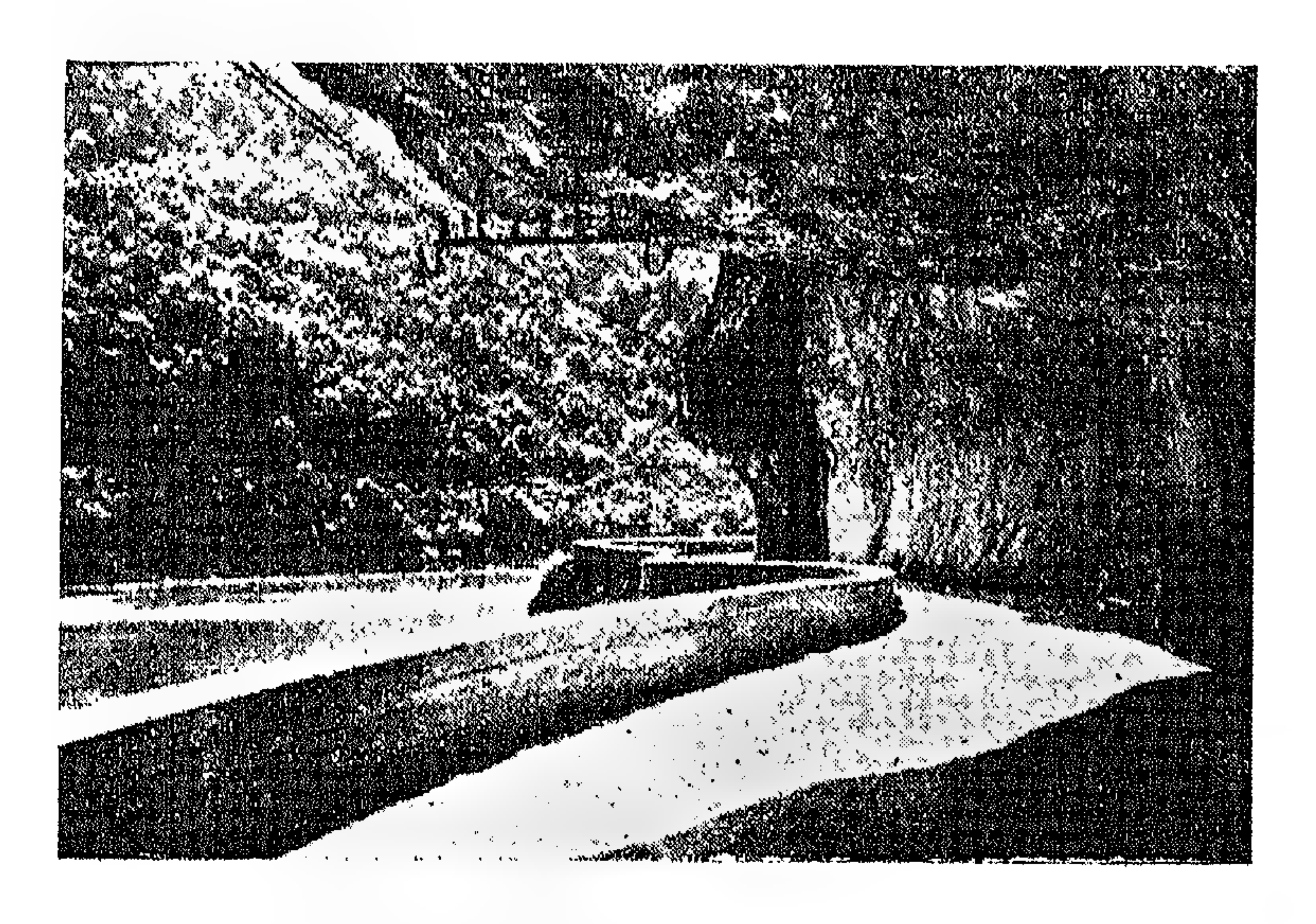
وداع رومانيا

ثم تختفى كازان جبالها و يعود الدانوب إلى مسيله بين السهول والجروف . وما تبدأ هذه الرحلة من الدانوب حتى تستقبلنا صخور باباقاى فى عرض النهر ، وهى ككل صخور منبوذة فى وسط الماء أصبحت مجالا للخرافة كما أصبح شاتودف عند مرسيليا .

ولاشك أن اسم بابا قاى « الندم » يحدث حديثه عن هذه الصخور ، وأبرع هذه الخرافات تلك التى لفتاة تركية جميلة هربت من زوجها ، فحبسها على هذه الصخور المنبوذة ، بيد أنها وجدت سبيلا إلى الخلاص من حبسها بعد زمن طويل ، ثم اننا نجد زوجها الظالم الغشوم يلاقى حتفه ، وذلك فى قتال مع المسيحيين .

والى جانب الشاطئ ترتفع انقاض قلعة قديمة . قلعة جولوباك أو « عش الحمام » وقد وجدت الخرافة كذلك سبيلها اليها وعن ذلك « الآغا » الذى جعلها قصره ، كما فعل كونت مونت كريستو بشاتودف . . وفى هذه القلعة صمد الأتراك مئتين وستين من السنين فى وجه غرمائهم من المجر .

ثم أننا ودعنا الأرض الرومانية فى « مولدوفا فيش » أو مولدوفا القديمة . وتمهل مركبنا دقائق معدودة خرج أثناءها بعض أصحابنا يشترون شيئا من الخوخ من القرويات اللائى يعرفن موعد وصول هذه



كازان

المراكب ، ولم يكن منظر ذلك الخوخ مغريا بالشراء ، بيد أن عادة المسافرين قد جرت على التزود بالطعام فى كل مرحلة مراحل أسفارهم.

ولمولدوفا حكايتها . فقد كانت حتى معاهدة بلغراد قلعة حربية يتنازعها أهل الشمال والجنوب وعرفها الرومان كما عرفها الترك . كما عرف مولدوفا فابيوس وتروجان ، فقد عرفها هيرودوت مؤرخ اليونان القديمة ، وفرجيل شاعر الرومان ، فى طريقه إلى منفاه على شاطىء البحر الأسود .

وعند مولدوفا تضطرب الساعات ويختل نظام الزمن فيؤخر كل مسافر ساعته ستين دقيقة إذ يعبر غرب أوربا . فقد اتفق رجال الفلك فيما بينهم على إقامة حد فاصل فى هذا الجانب من أوربا ، إذا عبره المسافر إلى الشرق تقدم زمنه ساعة كاملة .

فاذا طوى مرحلة طويلة من الشرق الى الغرب الفى ساعته لم تتحرك وأن الساعة الخامسة التى خلفها والشمس منحدرة الى الغرب ، مازالت كما هى وقد غشّى المساء كل مكان !

واستحالت ضفاف النهر إلى سهول وبرك خضخاضة تغطيها الشجيرات والأعشاب ، وفى وسط هذا القفر أقيمت علامة الحدود بين الرومان والصرب ، ووقف بعض الجنود على مرتفع يحرسون الدانوب النائم .

بلغاريا



ڤيدين فى الليل

على الدانوب في بلغاريا

عندما وقفت في ذلك المساء عند جرجو ، بدت على الجانب الآخر من الدانوب مدينة روس أو روشتك البلغارية . كانت أنوارها خطوطا هندسية منظمة ، كأنها مدينة صناعية حديثة . كان ذلك هو الأثر الأول الذي رسمته لبلغاريا .

لقد كان في نفسي الشيء الكثير عن بلغاريا ؛ صور لا يستريح لسماعها بلغاري : سمعتها في بوخارست ثم في بلغراد ؛ بيد أن هذه الصور سرعان ما تبددت بعد ان عشت أياما في قلب هذه البلاد إذ اننا نخطيء إذا اصدرنا أحكامنا وفقا لما يوحيه الخيال أو غريزة البغض والحب الفطري التي تتعمق مع دورة الزمن فتنقلب تعصبا أعمى .

تسأل نفسك هل تحب أهل بيرو ؟ وهل تكره أهل سيام ؟ وقد لاتجيب بهذا أوذاك ولكن تحس بعطف أو بغض داخلى حيال هــذه أو تلك ، عطف لاتعرف مصدره ، وبغض لايرتكز على دعامة معقولة !

بهذه الروح الثائرة وهذا التعصب الفطرى استقبلت بلغاريا متحفزا مترقبا فى أن أثور فى وجه شعب همجى لم تصقله بعد رقة المدنيــة الغربية ، ولم يعرف الا النضال والقتال والحرب والثورة ، فاصبح لا يعرف فى حياة السلم الا الغدر والوقيعة — هكذا تخيلت هؤلاء البلغار . .

وصلت فيدين فى ظلام المساء

وكان الناس فى عطلة يوم الأحد متجمعين على شاطىء النهر ينتظرون مركبنا يودعون المسافرين و يستقبلون النازلين، وما ان عبرنا المرفأ الصغير وسرنا فى ركاب السائرين حتى انتهى بنا المطاف إلى حديقة تزخر بزوارها وترتفع فى جوها موسيقى عسكرية، وتطفح الأنوار فى بعض أركانها ، وقد انتظم هؤلاء « الهمج » فى مواكب من الشــباب الأليف الصبوح يستمتعون بجمال الزهور ، وروعة

الموسيقى ، و يعرفون حتى الحب فى أخبايا الخمـــايل !

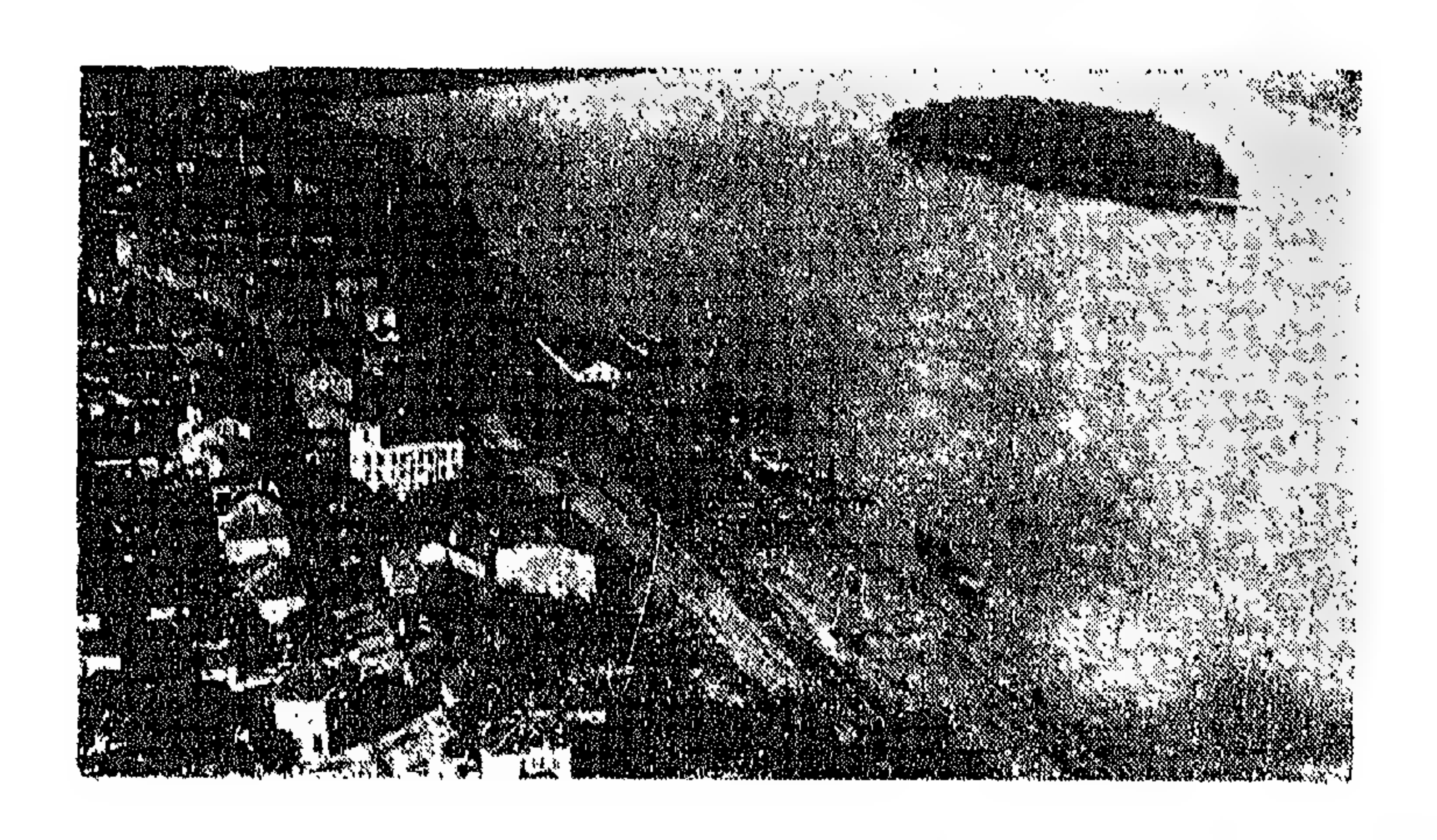
وما ان جزت طرقات الحديقة حتى بدت فى عتمة المساء مئذنة جامع فيدين بيضاء ناصعة كالسيف المسلول ، وإلى جانبها ارتفعت قلعة فيدين القديمة .

ومن هذه القلعة بأبراجها الأربعة ، استعارت هذه المدينة اسمها و « بابا فدين كولى » أو قلعة الجَدة فيدين امر معروف ، أما مَن هذه الأم العجوز أو ما قصتها فلا أعرف عن الخرافة أصلا ؟ وعلى أنقاض الحصون الرومانية القديمة شيدت هذه القلعـة فى القرن العاشر وعاصرت المدينة ابان عزها وبؤسها ، فقد كانت فيدين يوما من الايام أعظم مدينة فى بلغاريا ، ولكن مكانها الفريد على الدانوب قد جنى عليها فجعلها قبلة المغيرين والطامعين . بل ان فيدين أصبحت مدينة التاج البلغارى ، وقد نزح اليها الملك شراسيمو مع فلول من أبناء شعبه يجاهدون السيل الجارف الذى اكتسح بلغاريا من الجنوب ، ولكن سرعان ما سقط التاج ، وسرعان ما فتحت فيدين قلعتها لجيوش الترك ورفرف عليها الهلال أربعة قرون ويزيد ، كانت فيها فيدين وكانت فيها بلغاريا باسرها ضيعة تركية

وفى خـــلال تلك القرون أصبحت فيدين من جديد مدينة

العرش ولكن إلى أمد قصير، خلال خمس عشرة سنة ليس إلا، حين استبد أحد البشوات بالأمر فى ذلك الركن من الدانوب، فأنشأ عثمان بازفانوغلو عرشا فى فيدين، ويتخلف الزائر لفيدين اليوم إلى ضريح بسيط منقوش، هو قبر عثمان هذا.

وجامع فيدين الذى بنى فى أيام الباشا، بسقفه المنحدر كبيوت أهل الشمال، وبنوافذه المصفوفة فى طابقين، لا يمت الى الشرق بصلة ولا الى الفن الاسلامى بسبب، بل إنه غرس هذه البلاد بثلوجها وامطارها. ولا تذكرك بذلك الفن إلا المئذنة الضاربة فى الفضاء.



فيدين، وترى فى طرف الصورة جامع المدينة

ومنذ عشر سنين أو نحوها كان هذا الجامع معموراً مطروقاً وكان المؤذن ينادى إلى الصلاة و إلى الفلاح فى كل صباح ومساء ، وفى خلال هذه السنين العشر تفرق ذلك الألف من الأتراك الذين كانوا يعمرون فيدين ، نزحوا إلى تركيا و إلى البلاد التى تسودها أكثرية إسلامية فى بلغاريا ، ولم يبق فى فيدين إلا بضع عشرات من هؤلاء الأتراك .

وليس عجيباً أن تلف أقلية أو أكثرية تركية فى فيدين ، ولكن العجيب أن تجد طائفة من اليهود ، طائفة كبيرة من اليهود تبلغ ألفاً وخمسمئة تقطن هذه المدينة الصغيرة فى شمال بلغاريا ، وأعجب من هذا أن هؤلاء اليهود يتكلمون فيما بينهم غير البلغارية ولا يتكلمون التركية لغة الأجانب والأقليات فى البلقان بل يتكلمون الاسبانية أو لهجة من لهجات اللسان الاسبانى .

فهؤلاء اليهود نزحوا من اسبانيا منذ القرون الوسطى وتفرقوا إلى جميع جهات البوصلة هربا من محاكم التفتيش ومن سوط الاستبداد ؛ وكان منهم من أمعن فى الهرب حتى هبط البلقان ، ومرت سنون وقرون وهؤلاء اليهود المهاجرون مافتئوا أولئك الغرباء النازحين يعيشون فيما بينهم و يحيون شعائرهم وتقاليدهم و يتكلمون

لغتهم التى استحالت لهجة جديدة بفعل الزمن و بعد الشقة .

وهذه المحافظة وهـذا الحذر لعنة تصيب اليهود ، فقد يعيش اليهودى قرونا بين جماعة من الجماعات ولـكنه لايفتأ غريبا أجنبيا ينزل به من البلاء مايصيب كل غريب فى غير وطنه ؛ وقد بدأت تحل هـذه اللعنة عليهم من جديد فى بلغاريا بعد أن تطاير شرارها فى برلين .

وأذكر أنى ذهبت إلى صانع نظارات فى صوفيا ، وحدث أن استبهظت ما طلب من ثمن ، فكان جوابه أنه ليس يهوديا بل بلغاريا صميما لا يعرف المساومة ولا الحيلة ، وأضاف إلى ذلك مشيراً إلى متجر يقابله « أن أذهب إلى ذلك اليهودى لتعرف كيف المساومة والمراوغة ، أن هؤلاء اليهود قد أفسدوا أمور التجارة فى بلغاريا ، وأنهم يلتهمون اللقمة من أفواهنا و يعيشون خطرا داهما علينا ... »

هذ صورة لما يحس به البلغار حيال نزلائهم اليهود ، سوف نعود إليها فى مرة أخرى .

* * *

لوم

عرفت « لوم » مرتين ، فى طريقى إلى فينا ثم عند أوبتى إلى صوفيا ، وعرفت فى لوم العنب البلغارى الفاخر ، لقد رأيت صنوفا من العنب فى مواطنه ؛ اشتريت العنب فى دمشق وفى القدس وفى البندقية وفى لبنان وفى جزائر الادرياتيك ، ولكن هذا العنب الذى رأيته فى لوم قد فاق جميعها لونا وحجما وثمنا. الأقة منه بخمس ليفات أى دون القرش الواحد .

واشترى خازن المركب سلة من هذا العنب الفاخر وراح يزين بعناقيده مخزن الحقائب ، و يستهلكها فى رحلته الطويلة إلى فينا ، وفى فينا يختفى هذا النوع و يأخذ مكانه لون من ألوان الحصرم . وتحمّل جمع التلاميذ البلغار بسلال منه فى طريقهم إلى برون حيث يدرسون فى بلاد التشك ؛ وعندما خرجنا إلى الشاطىء استقبلنا باعة العنب على الجنابين ، وعندما ذهبنا إلى السوق وجدنا أكواما من العنب تهبط أثمانها إلى ثلاث ليفات ، حتى تحس بأن الأرض لا تنبت إلا عنبا .

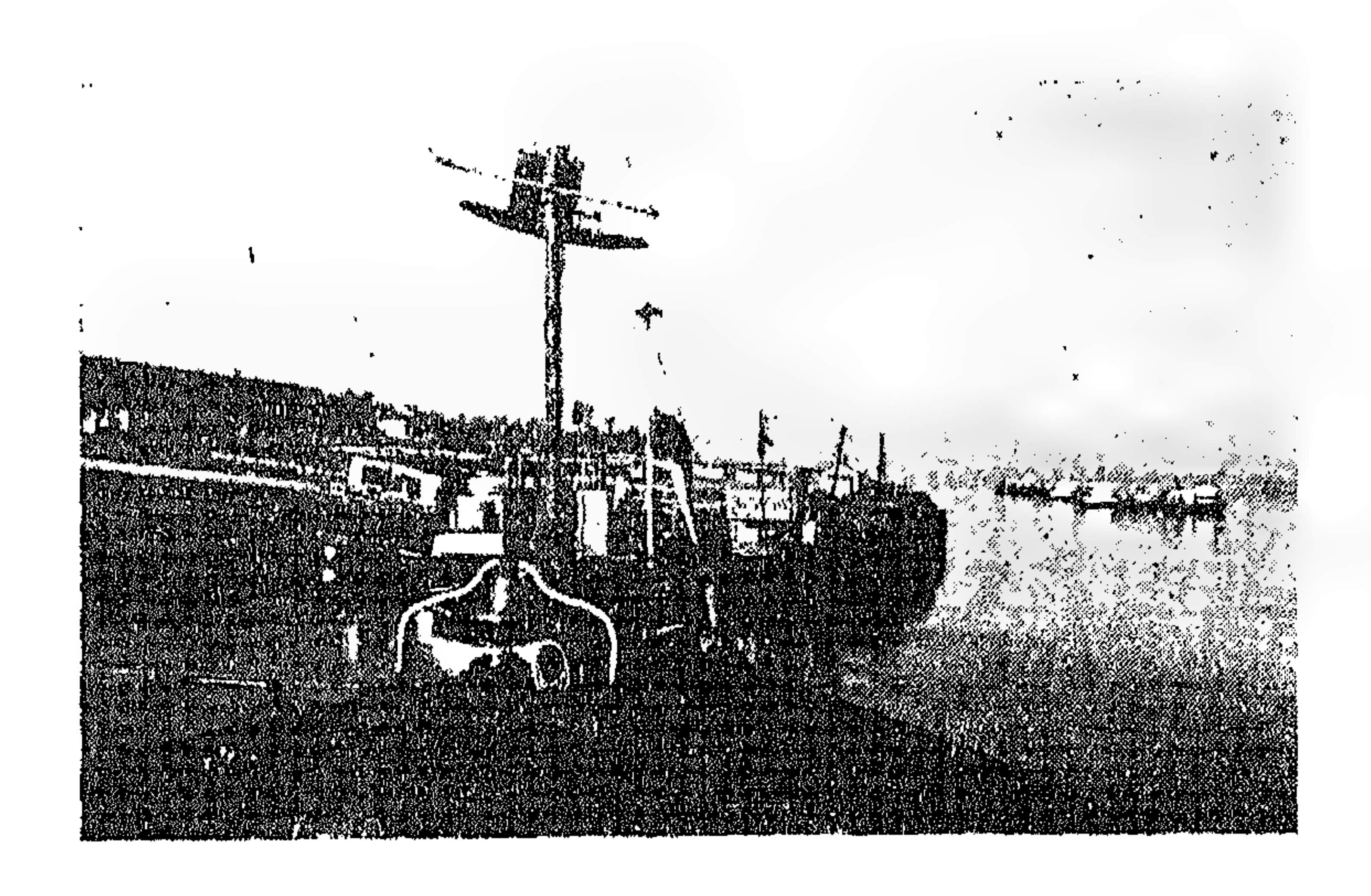
* * *

وكان فى صحبتنا إلى زيارة لوم ، قسيس كاثوليكي عجوز نيّف

على الثمانين ، مهضوم الجسم دقيق الوجه سمح المحيا ، لا يصمت عن الحركة ولا يصمت عن الكلام ولكن دون عبث أو إسفاف .

ألمانى عاش حياته فى البلقان مبشراً بمذهبه ، فعرف حياة هذه الشعوب ودرس تاريخها فى خلال نصف قرن ، وعرف لغاتها ولهجاتها. فكان طريفا فى حديثه ، ثقة فى بيانه لا ينضب له معين .

وكان أن استبدلنا ما معنا من ليات رومانية بليفا بلغارية فى مكتب للحكومة عند رصيف الميناء ، وإلى جانبه نبع من الماء النقى البارد . والينابيع كثيرة فى بلغاريا عرفها الترك من قبل فأنشأوا



لوم

حولها السبل والأحواض ، وما زلت تراها فى كل مكان برسومها الشرقية ونقوشها التركية .

وكانت لوم تحتفل فى هـذا الأسبوع بسوقها السنوية ، وقد أقامته على فسيح من الأرض فى طرف المدينة ، وقبـل أن نلج ساحتهـا استقبلنا بائعو الفول السودانى واللب المملح والفاكهة والحلوى .

كانت تلك السوق « مولدا » من الموالد التى نعرفها فى مصر . فقد أقيمت حول ساحتها وجاقات من الخشب والقماش لباعة الحلوى البيضاء والحمراء بعرائسها وخيولها وفرسانها ، وباعة اللعب الريفية وباعة النحاس والقدور والحوائج البيتية . والى جانبها بعض المطاعم الرخيصة وقد عرضت الشواء « والسجق » على السفافيد ؛ وبعض المقاهى البلدية وقد وقف أصحابها يتصيدون زبائنهم من عرض الطريق .

وأقيمت فى وسط الساحة أراجيح الأطفال بنقوشها الريفية الساذجة وقد اختلط أزيزها بنغمات الموسيقى وزمامير اللاهين من الأطفال . وطفق صديقنا القسيس يترجم لنا ويشرح ، ثم يعرج على الكلام عن الكثلكة فى هذه القرى ، التى وإن كانت قد اضمحلت فيها عن ذى قبل بيد أن قسيسنا مؤمن برسالته لا يؤثر فيه فشل ؛

فلوم لم يعد بها إلا ثلاثة وعشرون من أبناء مذهبه أما فيدين بخمسينها فأوفر حظا وقد كان بها خمسة أضعاف هذا العدد من قبل، خلفها أصحابها باحثين عن الذهب فى أمريكا . ولكن هذا الأب مع ذلك لا يصمت عن التطواف بين رعيته من قرية إلى قرية .

***

عدت إلى لوم بعد ذلك وقد انتهى موسم العنب . و بعد أن عشت شهرا قصيرا فى فينا، عدت إلى بلغاريا بعد أيام فى الصرب فرجعت من جديد إلى حياة البلقان و إلى شعوب البلقان .

وكان الدانوب من فيدين إلى لوم بركة من الزيت انعكست عليها الشمس الغاربة والغابات التى تحف بشاطئيه، وكانت رحلتنا من بلغراد حافلة بالطرائف ، فقد كان مركبنا فى رحلته الأخيرة من النمسا إلى رومانيا إذ كنا فى النصف الأخير من شهر اكتوبر وبعد هذا التاريخ — إذ يبدأ الشتاء - تقف الملاحة الطويلة على الدانوب الذى يتجمد هنا وهناك .

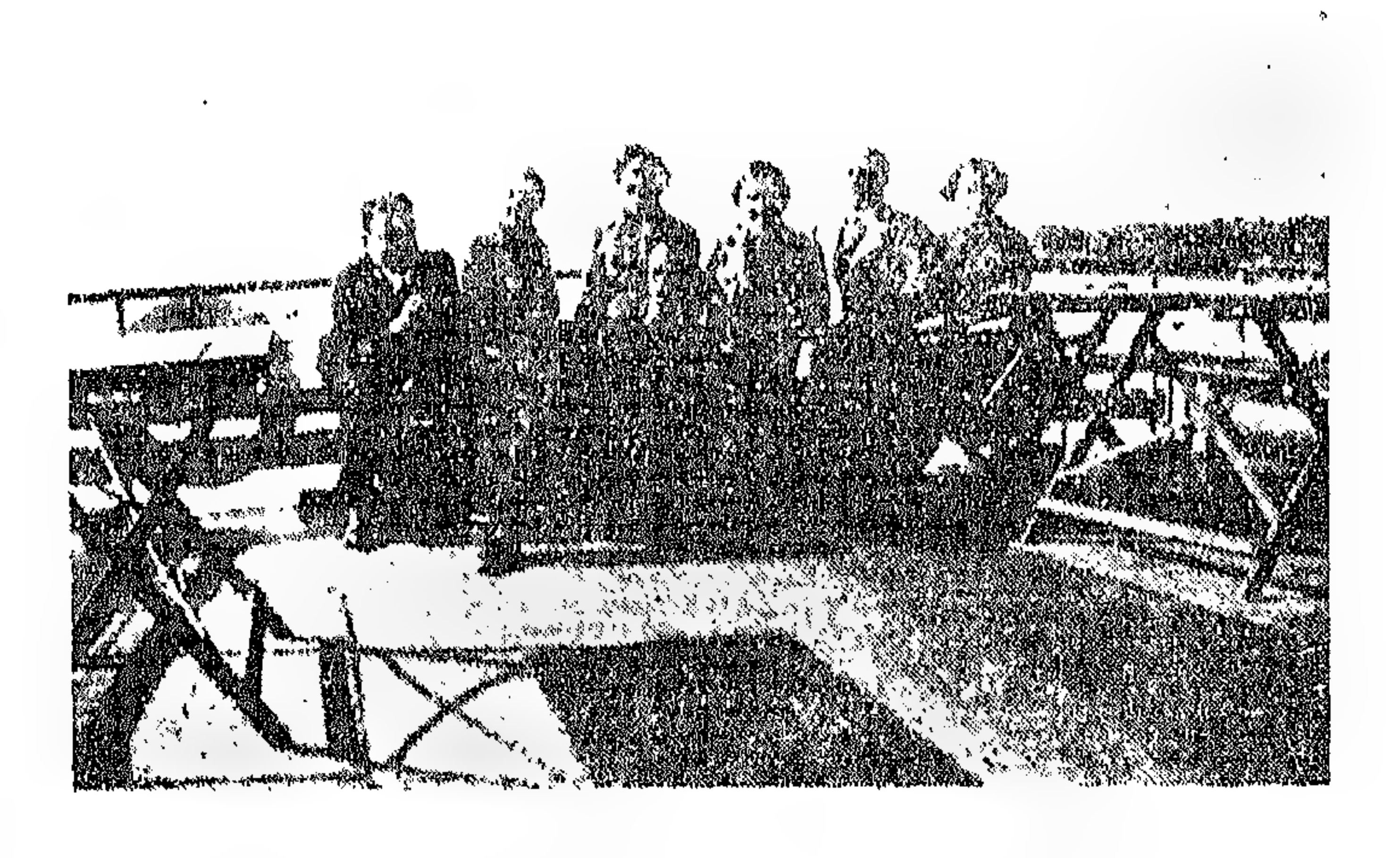
لم يكن على المركب مكان لقدم ، فقد كان غاصا بمئات من البلغار فى طريقهم من تشيكوسلوفاكيا إلى بلادهم. إذ للفلاح البلغارى شهرة بأمور الزراعة يستأجرونه لتنسيق الحدائق ورعاية الكروم،

فيسافر جماعات إلى رومانيا و بلاد التشك وغيرها ، حتى إذا جاء الشتاء رجع إلى بلده فى انتظار الموسم الجديد . وجدت هؤلاء الفلاحين أكواما جسدية ملقاة فى كل ركن من أركان المركب وقد افترشوا الطرقات واكتسحوا قاعات الجلوس ولم تنج من طوفانهم إلا قاعة المائدة ؛ فاستحال المركب الذى عرفته من قبل أنيقا إلى خان من الخانات تجمع فيه ركب قافلة حط بها التعب والاعياء ، فجلسوا يأكلون على الدرجات بشراهة فطرية ، يحتسون النبيذ ويقددون اللحم والخبز بمدى كسكاكين القصابين ، حتى إذا انتهوا ألقوا بأجسامهم حيث أكلوا ، حتى كان السائر يجفل من التنقل خوفا من ركل هؤلاء الغافلين .

وفى قاعة الطعام جلست على مائدة منفردة وجلس على مائدة قريبة جمع من الرجال والنساء الأنيقات ، وأحسست بأن همسا بشأنى يدور بينهم . وما كدت أصوب وجهى إلى ناحيتهم حتى حنى أحدهم رأسه مبتسما محييا ، فلم أجد إلا أن أرد التحية . بيد أننى شعرت بأن وراء ذلك حيلة أو خدعة ، أو أن ذلك وسيلة للدعابة والسخرية فثارت ثائرتى وانتظرت الفرصة للنكاية . فلما نظرت إلى الجماعة ثانية رأيت ذلك الرجل يقف و يدعونى لمشاركته وأصحابه

فلم أردد وتركت مائدتى اليهم ، فقدمنى الى السيدات ثم إلى الرجال بكلمات مخطوفة وأخلى لى صدر المكان فلم أمانع، بل حمدت الله على الفرصة لا استمتاعا بالجلوس ولكن رغبة فى رد الدعابة . بيد أن شيئا من هذا لم يتحقق إذ ألفيت الجماعة من خير ما عرفت على سفر . فالرجل قنصل بلغارى فى براج والسيدة زوج لموظف كبير فى صوفيا ، و بقية الجماعة من رجال أعمال أو من سيدات الطبقة المثقفة فى بلغاريا فعقدت صحبتهم حتى وصلنا إلى صوفيا فكانت صحبة ممتعة حقا .

وكانت معنا سيدة انجليزية عجوز من أهل زيلندا الجديدة،



رفاق المؤلف إلى بلغاريا

تطوف حول الأرض للمرة الأولى وللمرة الأخيرة، وهى ككل انجليزية تسافر محملة بالكتب و بحقيبة الصوف ثم بأوراق اللعب ، وعند ما جلسنا فى المساء بعد أن انتهى العشاء أخذت تقرأ المستقبل لنا بورق اللعب ، وما كاد يبدأ دورى حتى كان مركبنا قد ألقى مراسيه عند لوم ، ومن عجيب أمر هذه السيدة أنها كانت تجمع فى رحلتها علب الثقاب الفارغة فكان ذلك اغرب هو ية عرفتها .

* * *

كان رجال الجمرك فى انتظارنا وكان التفتيش دقيقا نوعا ما ، ولو أن حقائبى لم تفتح بسبب كلمة كتبها القنصل البلغارى فى الصرب ، فكانت مجاملة لطيفة ، بيد أننا وقفنا طويلا حتى انتهت الاجراءات من مراجعة جوازات السفر وتقييد العملة حتى أن سيدة حفظت طفلها على رف بين الحقائب ! و بين جوازات السفر المعروضة لمحت جوازا مصريا آخر ، كان صاحبه لبنانيا متمصرا ممن يشتغلون بأمور التجارة والسياحة .

وما رأيت رجلا متحمسا لبلده ، كما رأيت تحمس صاحبنا لأهل بلغاريا ، بيد أن تحمسه هذا سرعان ما هبط إلى القرار بعد أن ألزمه ضابط الجمرك بدفع غرامة قدرها خمسمئة ليفا بسبب عدم استكمال

بعض الاجراءات فى جوازسفره ، فطفق صاحبنا ينتقل من موظف إلى موظف ومن مكتب إلى مكتب ، فلم تنفع شفاعة ، ورأيت أن أبقى إلى جانبه بضع ساعة حتى دفع غرامته وخرج ثائراً متوعدا .

وبعد أن أسلمنا حقائبنا إلى حمال تركى ليودعها فى القطار الذى يبرح المدينة فى منتصف الليل إلى صوفيا ، بحثنا عن مكان للأكل والراحة فانتهى بنا المطاف إلى مطعم صغير فى شارع المدينة الأوسط ، فطلب صاحبى شواء وطلبت أنا عجة بيض « وسلاطة » من الفلفل وخبزاً ، وكان ثمن ذلك جميعه قرشا واحدا أو يزيد .

وقد سمعت الكثير عن بخل أهل بلغاريا ، فقيل أن البلغارى إذا طرق مطعما أحضر خبزه معه : وأن البلغارى لا يعرف الحلوى فى طعامه ! وإذا رغب فى شىء منها أحضر حاجته من الفاكهة وقدمها إلى الخادم لغسلها وإعدادها . بيد أننى لم أر البلغارى الذى حمل خبزه فى جيبه ، ولكننى عرفت فى هذا المطعم بل وفى مطاعم صوفيا الكبيرة أولئك الذين يتزودون بالفاكهة يقدمونها إلى الخادم دون خجل لغسلها وإعدادها ، ذلك تقليد معروف بينهم .

وإن كان موسم العنب قد أدبر فى لوم إلا أن دكاكين الفاكهة كانت حافلة بألوان التفاح والعنّاب والبشملة والكمثرى وكثير

غيرها ، وكانت أكوام القسطل معروضة فى كل مكان .

ثم انتقلنا إلى قهوة مجاورة لم يكن بها إلا فتاة جميلة التقاطيع جامدة جافية جلست تصطلى حول مدفأة فى وسط المكان إذ كان الهواء باردا وكانت الريح شديدة فى تلك الليلة. ولما لم تكن الفتاة تبيع سوى الحلوى فقد قدمت إلينا الشاى من قهوة مجاورة . ثم اكتشفنا من إعلان معلق على حائط المكان ان من هذا اليوم تخفض أجور السكة الحديدية إلى صوفيا بمناسبة معرض سنوى للتصوير يقام فى تلك المدينة ، فكان مفاجأة لطيفة . وفى طريقنا الى صوفيا سألنا عن هذا المعرض فلم يعرف خبره مسافر من المسافرين ، وقضينا فى صوفيا أياما ولم نسمع عن هذا المعرض ، ولم نر من رآه .

وكان قطارنا يبرح لوم فى نحو منتصف الليل ، ولما طال بنا المقام فى هذه القهوة الصامتة ، لم نجد بدا من قتل الوقت سيرا فى شارع المدينة المظلم ، الذى حفل فى تلك الساعة بالخارجين من دار للسينما لا تميزها حتى تقرأ اسمها على بابها .

وينتهى هذا الطريق إلى الدانوب فبدت فى ضوء القمر الباهت مئذنة جامع لوم واضحة ، وحول هذا الجامع الحى التركى ، وسمعت أن فى لوم مسجدين بيد أننى لم أر الا هذه المئذنة .

وبحثنا عن المحطة فلم نجد الا بعض غرف حجرية متجاورة هى كل ما يدل على محطة لوم الحديدية . وفى حجرة فارغة اجتمع كثير من المسافرين رجالا ونساء قبل موعد القطار بساعتين ، وقد التف بعضهم بأغطية الصوف ومعاطف الجلد من قارص البرد .

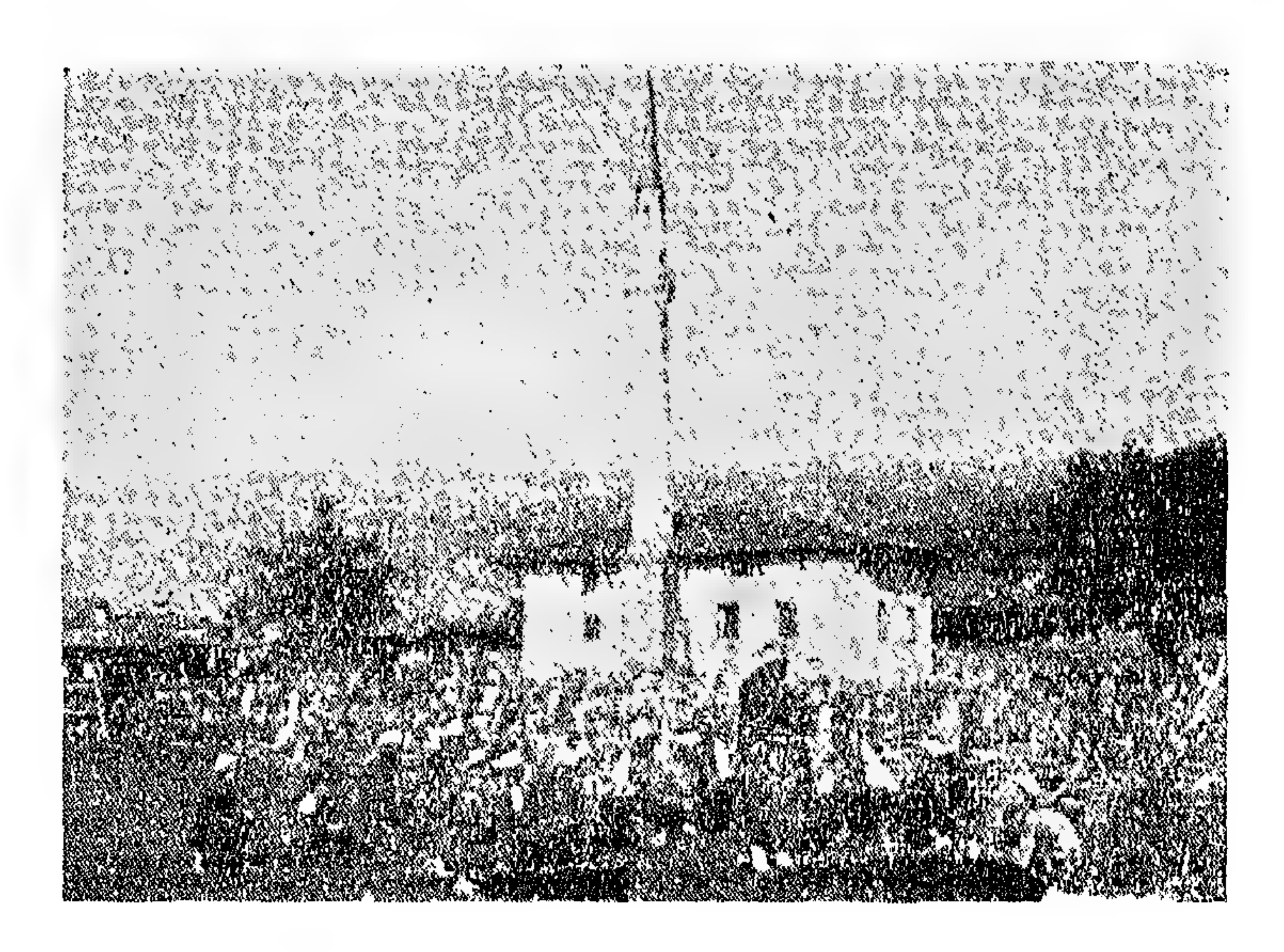
وجاء الحمال التركى بمتاعنا ، ثم جاء القطار وكان نصيبنا الدرجة الثانية ، وقد كسيت مقاعدها بالمخمل وأطلقت فيها مياه التدفئة فكانت نعمة غير مرتقبة . فقضينا ساعة فى السمر وأكل ما معنا من فاكهة ، ثم انى خلعت ملابسى استعدادا لنوم هنىء بعد أن سترت مصباح الغرفة بصحيفة . بيد أن نومى لم يطل إذ قمت فزعا من شدة حرارة الغرفة حتى كدت أختنق وفتحت جانبا من النافذة فانفلت منها تيار هوائى قارص أيقظ النائمين حولى .

***

كان قطارنا يشق إذ ذاك جبال البلقان بين وديانها وممراتها وأنفاقها، وكانت الريح تعصف ومياه الينابيع تتدفق إلى الخيران وكان بياض الثلج يلمع على القمم ، وكان قطارنا ينهب الأرض نهبا كأنه سجين يجد فى الهرب ، لقد كانت الطبيعة صارمة لا رفق فيها كأنها فى حرب دائمة مع أبنائها .

وأخذت أتفكر فى تلك الحروب الطويلة التى كانت ساحتها هذه الجبال والوديان كم كانت فظيعة بين أعداء لا ترحم وطبيعة لا تعطف . تذكرت « بلفنا » التى لا تبعد عن مسيرنا إلا أميال معدودات ...

منذ نحو من ستين سنة وقفت روسيا فى وجه الباب العالى ، وما كادت تعلن الحرب الروسية التركية ؛ حتى كان القائد الروسى الجران دوق نيقولا فى طريقه الى الدانوب ، وفى ليلة السابع والعشرين من شهر يونيه سنة ١٨٧٧ عبرت الجيوش الروسية النهر خلسة بجوار



قرية بلغارية

روشتك (روس) وأخذت تستولى على بلغاريا التركية بلدا بلدا حتى وصلت الى قرية بلفنا ، وكان الأمل فى اكتساح هذه الجيوش الظافرة لها يقينا ثابتا ، ولكن بلفنا لم ترد الا أن تسجل اسمها فى كتاب التاريخ .

ففى العشرين من شهر يوليه هاجمت جموع الروسيين قرية بلفنا وقد اعتصم بها القائد التركى عثمان باشا بعد أن حصنها بشبكة من الخنادق ووسائل الدفاع ، فصمد عثمان باشا وصمدت بلفنا فارتد عنها الروس بعد أن خلفوا حول أسوارها ثلاثة آلاف قتيل . وبعد عشرة أيام كر الروسيون على بلفنا ولكنها صمدت مرة ثانية فخلفوها بعد أن تركوا حول أسوارها ثمانية آلاف قتيل . وللمرة الثالثة ترتد جيوش روسيا عن أسوار بلفنا القرية البلغارية المجهولة ويخلف الروس عندها ثلاثة آلاف قتيل أخرى وعشرات من صرعى الحرب .

لقد كتبت بلفنا صحيفة فى تاريخ العالم . واليوم تزور بلفنا فلا تزال تجد الخنادق مشقوقة حولها كما تركتها جيوش الأمس ، وتزور النصب الروسى الذى جمع تحت ترابه عظام آلاف من أبناء روسيا ، وتزور المتحف الحربى الصغير لتشاهد تذكارات تلك الحروب الدامية بين الشرق والغرب . ومازال فى بلفنا إلى اليوم

عشرات من الترك ومازال بها الى اليوم بعض اولئك الذين عاشوا خلف أسوارها فى تلك الأيام السوداء .

هكذا أحسست عند ما الصقت وجهى إلى زجاج النافذة أشاهد فى غسق الليل تلك البرّية التى كان قطارنا يطويها كالهارب الملهوف من شواطىء الدانوب إلى صوفيا . تلك البرّية التى كانت الى الأمس القريب مسرحا للنار والدم .

صوفيا

وصلنا صوفيا فى الساعة التى يصل فيها قطار مرسيليا الى باريس ، وشتان بين البلدين . ولكن الزائر لبلد مثل صوفيا يتملكه شعور عجيب ، تتملكه الرغبة التى تفيض بها نفس المسافر الى بلد معلوم مجهول ، وذلك الاحساس بانه سوف يصادف غريبا . فهو لايبحث عن مكان معين كثيرا ما سمع عنه حتى لم يعد فى حاجة الى تقوية الصور المرسومة فى نفسه . فليس فى صوفيا برج كبرج ايفل رأى صورته مائة مرة ، وليس فيها بناء كالبرلمان الانجليزى شاهد رسمه فى الاعلانات، ولكنه مع ذلك وطد نفسه على أن يرى شيئا والسلام ؛ قد يكون تافها ولكنه قد يفعل بنفسه اضعاف مايفعله الوقوف فى ظل برج ايفل أو البرلمان الانجليزى !

خرجت إلى المدينـة النائمة وقد جثم النـدى على جدرانها وأشجارها فبدت أعمق نوما . وكان يساورنى شك فى أمرها ، فقد تكون صوفيا إسما جغرافيا خياليا ، قرية كبيرة من تلك القرى التى فقدت جمال الريف وعجزت عن ادراك بهجة الحضر ؛ لقد كنت سعيدا فى اوم وفيدين لأنى لم أكن أطلب فيهما كثيرا ، ولـكن صوفيا العاصمة شيء غير هذا .

***

شـاهدت عربات الترام فطمأنت نفسى ؛ ثم رأيت أعلانا كبيرا لشركة من شركات العقاقير فزدت يقينا بان صوفيا سوف لاتبدو قاصرة عاجزة . وشق بنا الترام طرقات المدينـة الوسطى ، وانتهى بنا إلى ميدان صغير رحنا نبحث فيه عن فندق معين .

وكان فندق « كوب » مفاجأة غير منتظرة ؛ بمبناه الحديث الذى لو كان فى عاصمة غير صوفيا وفى غير البلقان ، لكان مظهرا من مظاهر التجديد ولـكنه حيث هو ليدل على أن موجة المدنية الغربية قد غزت هـذه العاصمة فى الصميم ، وليس ادل من الفنادق على مستوى التمدن فى بلد من البلاد . فالغريب الذى يبيت فى غرفة خلت من الذوق ومن مطالب الراحة ، لا تتهيأ نفسـه للاستمتاع

بما قد تفيض به المدينة التى هو ضيفها من ألوان المتع ومن مظاهر الحضارة ، ولا تتفتح عينه الاعلى مايشين و يعيب . ولم يكن هذا الفندق فريدا فى صوفيا ، بل رأيت غيره وغيره بنظمها الامريكية الحديثة .

كان أول ماصنعنا بعد أن عرفنا لنا مقراً فى صوفيا أن بحثنا عن مكان للفطور ، وفيما أنا سائر وزميلى شممت رائحة أعرفها جد المعرفة ، ومن ذا الذى يجهل رائحة « الزلابية » فى صباح يوم بارد مثل هذا اليوم . ولكن كيف تسنى لهذا الطعام الشرقى الصميم أن يجد مكانه فى صوفيا ؟ لذلك لم يصدقنى رفيقى ولما دخلنا المكان الذى تنبعث منه هذه الرائحة لم نجد أثراً لضالتنا ، فعجبت لذلك وظننت أن رغبتى الملحة قد خلقت هذا الوهم . ولكن ما برحنا المكان إلى جواره حتى رأينا صانع « الزلابية » يقليها فى إناء واسع به الزيت وقد وضع بجوارها السكر والعسل فما أبدع وما أشهى ! !

ولكن صاحبى لم يرض إلا أن نفطر على لبن الزبادى الذى اشتهرت به بلغاريا ، حتى أن نوعاً معروفاً من هذا اللبن فى باريس يحمل اسم صوفيا ، فدخلنا مطعما مجاوراً يبيع هذا اللبن كما يبيع ألوان البوغاشة التركية والفطائر والبقلاوة وغيرها ، وهذه ألوان

الحلوى الشائعة فى بلغاريا والتى تعتبر فى صوفيا طعاماً للافطار ولكننى لم أستطب الفطور على اللبن الزبادى فى يوم بارد فأتبعته بشىء من القهوة التركية . فالبلغار كغيرهم لا يعرفون طريقة لاعداد القهوة غير الطريقة التركية وهم يقدمونها فى فناجيل صغيرة مزخرفة بنقوش شرقية كما هو الشائع عندنا وليس الشاى شائعاً شيوع القهوة ولا تجد من يشربه إلا فى المقاهى الحديثة فضلا عن أنه مرتفع الثمن .

ومن العجيب أن تجار الشاى والبن فى بلغاريا ، كما رأيت فى رومانيا من غير البلغار والرومانيين وتكاد هذه التجارة تكون محصورة فى يد اليونان والأرمن ، وهم لذلك يحتكرون بيعها و يقدرون ما شاءوا من ثمن ، فقد طلب منى مرة فى بوخارست تاجر من هؤلاء ثمناً لعلبة من الشاى ضعف ما أدفعه فى مصر ثمناً لها .

في حمام صوفيا

ليس أروع من أن أصف حمّاما تركيا فى مدينة مثل صوفيا ، ففى صوفيا حمّام يفوق فى روعته حمامات تركيا نفسها . ولقد عرفت فى لندن أفخر حمام تركى جمعت فيه أبهة العمارة وجمال الفن وأناقة الغنى فكأن الصانع وقد بهرته الأقاصيص عن الشرق أراد أن يحقق هذه الخيالات والأحلام فافتن فى البناء والزخرف : حتى غدا

الواقع أروع من كل خيال ، ولكنّ إحساسك بأن وراء جدران المكان لندن بمآثرها وضبابها ، يقتل فيك كل إحساس بروعة المكان الذى أنت فيه ، وتحس بأن ماحولك ليس إلا تمثيلا بارعا .

أما فى صوفيا فالحال غير الحال . فان كانت صوفيا محسوبة من الغرب بيد أنها مافتئت تلك المدينة التى عاشت تركية نيفا وخمسمئة من السنين ؛ وأن البسفور ليس إلا مسيرة ساعات من صوفيا .

كان حمام صوفيا أول ما زرناه فيها . فحملت حقيبتى الصغيرة وتزودت ببعض الملابس وسرت وصديقى السورى إلى حيث هـذا الحمام ، بعد أن سمعت منه ثناء مستطابا إذ سبق له التخلف إليه . وهـذا الحمّام بناء شرقى مزخرف بزخارف عربية أقيم فى وسط المدينة تحيط به حديقة واسعة ؛ وإلى جواره جامع صوفيا الكبير ولا يفصل بين الواحد والآخر إلا طريق ممهد ، وكما أن صورة باريس لا تتميز إلا ببرج ايفل ، فان صورة لصوفيا لاتتميز إلا بهذا الجامع وهذا الحمام ، إذ أنهما ينفردان بمبانيهما التى تتميز عن أبنية المدينة الجديدة المتشابهة المنقولة فى خلال الخمسين سنة الأخيرة من غرب أوربا .

ولم تكن القاعة التي دخلناها رائعة كما حسبت ، وقد جلس فى

أركانها نفر من الملاحظين يبيعون بطاقات الدخول وأمين الحمام الذى يتسلم ما يحمل الداخل من مال وغيره يودعها ظروفا مغلقة ويحفظها فى خزانة إلى جانبه ، ثم انتقلنا إلى قاعة الاستقبال وقد قسمت غرفات صغيرة متجاورة أعد فى كل غرفة منها سريران وبعض المقاعد والأثاث وتقفل بستار من القماش . وبعد أن خلعنا ملابسنا وخرجنا إلى الردهة التى توصل ما بين غرفات النوم قادنا حمامى إلى غرفة البخار وهى حجرة صغيرة من الرخام سلطت عليها انابيب من بخار الماء ، وكان على الداخل أن يمكث فيها دقائق معدودات ، وقبل أن يبرحها عليه أن يقف بضع دقيقة تحت بخار انبوبة ترسل شواظا من نار حتى أن الزائر يحس بالاختناق ، فيهرول بعدها هاربا إلى قاعة مجاورة .

وفى هذه القاعة يستقبلك المدلك ويجلسك أمامه على مقعد واطىء من الرخام ويأخذ فى الفرك والجذب واللى وكأنه يصارعك ، فيجذب أذنك و يلوى رقبتك بعنف ويلكمك على ظهرك بسرعة آلية وكأنه ينظف متاعا لا جسما حيا ، حتى إذا انتهى غمرك بالصابون وصوب اليك الماء وأخذ يفركك بمنشفة قاسية تكاد تدمى الجلد . ورأيت من بين هؤلاء المدلكين عجوزا هزيلا تحس بأنه أضعف

من أن ينازل ذلك الانسان الضخم الذى جلس أمامه ، ولكنه سرعان ما استولى على عنقه وراح يلويه و يطويه بذلك الحذق الذى علمته إياه التجارب الطويلة .

و بعد أن انتهى دور المدلك انتقل ركبنا إلى قاعة أخرى لعلها أفخر ما فى هذا البناء ، وقد علتها قبة كبيرة زخرفت بالرسوم الشرقية البديعة وكسيت جدرانها بالرخام الملون وتوسطها حوض من الرخام تنزل إليه بدرجات به ماء معدنى فاتر يتدفق من ينابيع



سبيل تركى فى بلغاريا

طبيعية دافئة ، هى التى أوحت ببناء هذا الحمام ، وكان الجلوس فى هذا الحوض وتحت هذه القبة متعة من المتع ، إذ أن أبهة البناء وروح المكان لم تكن لتبدو رائعة إلا تحت هذه القبة الشرقية .

ومن هنا أخذنا مكاننا إلى قاعة الاستقبال حيث استلقيت على السرير ساعة بعد هذا الجهاد ما بين بخار الماء و يد المدلك ، ثم احتسيت قدحا من الشاى . وفى أثناء ذلك عاد الخادم ومعه بذلتى بعد كيها وطلب أجراً خمساً وعشرين ليفا نزلت الى عشرين . وعند ما خرجنا الى الردهة حيث مكتب الودائع وجدنا المدلك فى انتظارنا إذ للتدليك أجر اضافى عدا ما يمنحه الزائر للمدلك من مكافأة . وكان جميع ما صرفت فى ذلك نحواً من عشرة قروش .

مطاعم نباتية

فى ذلك اليوم كان غداؤنا فى مطعم من أفخر مطاعم صوفيا ، كان هذا المطعم للنباتيين . ومن العجيب أن للمذهب النباتى سوقا رائجة فى صوفيا فليس أكثر من المطاعم النباتية وليس أكثر من المطاعم التى تخصص للنباتيين قائمة مستقلة ، وأعجب من هذا أن هذه الحركة النباتية حركة منظمة ، فللنباتيين جريدة أسبوعية

تصدر فى صوفيا تبحث فى شؤون هذه الطائفة ولعل القائمين بنشر هذه الدعوة من الروسيين . وفى بعض هذه المطاعم يحرم على الجالسين التدخين .

وكان المطعم الذى دخلناه غاصاً بزائريه حتى لم نجد مكاناً لجلوسنا مع أنه يحوى عشرات الموائد . وكانت قائمة الطعام حافلة بألوان الحساء وصنوف الأرز والخضر المطبوخة على الطريقة الشرقية والمسلوقة على الطريقة الغربية والأطعمة المصنوعة من البيض ثم ألوان الحلوى العديدة .

وفى ذلك المساء زرنا مطعماً آخر للنباتيين فى حى المدينة الأرستقراطى ، فقابلنا مديره على بابه جرياً على التقليد الألمانى فى الضيافة ، وكانت قائمة الطعام فى هذا المكان أوفر حظاً ، وكان ذلك المدير يقبل علينا سائلا أو متطوعاً فى اختيار صنف ممتاز . وحدث مرة ان تخيرت صنفاً لم أعرف حقيقة أمره من شرح الخادم وكان لوناً طريفاً له طعم يذكر الآكل بنوع من أنواع السمك المطبوخ بالصلصاء وكان فى شكله أشبه شىء ببعض أنواع الأصداف الباريسية . وكم كان عجبى حين اكتشفت بعد ان انتهيت منه أن هذا الطعام مصنوع من البرقوق الناشف !

وحدثت مرة مفاجأة طريفة إذ ما كدنا نبرح المكان حتى طرق أذنى نغم شرقى بل نغم مصرى ارتفع فملأ جو المكان ؛ كان أنشودة مصرية ينقلها المذياع من القاهرة فلم نتمالك من الرجوع والجلوس بجوار المذياع نستمتع بنفحات الوطن .

حكاية صوفيا

وصوفيا اليوم بسكانها الذين يبلغون مئتى ألف كانت الى عهد قريب قرية من القرى ، وتاريخها كتاريخ البلقان نفسه صراع وجهاد فى سبيل الحرية كانت ألعوبة فى يد الغالب يلهو بها حتى يملها أو يغتصبها منه معتد جديد . وهى مع ذلك قديمة عتيقة . عرفها الرومان فأقام أسسها الأمبراطور تروجان وأصبحت مقراً لقسطنطين الأكبر . وكانت تعرف فى تلك الأيام بـ (سرديكا) بيد أن الشعوب المتبربرة التى كانت تعيش فى ذلك الجانب من أوربا لم ترحم حضارتها فأحرقها الهانز فى القرن الخامس . ولم تبق من آثار ذلك العهد إلا تذكارات ضئيلة مما احتفظت به الأرض من صنوف العملة التى قيل إنها بلغت ماية نوع منها .

ولم يعرف البلغار هذه المدينة إلا فى القرن التاسع ، فدعوها سر يدتس ومعناها السلافى « الوسط » إذ المدينة فى طريق المسافر

فى البلقان لا تبعد عن اسطنبول إلا بثلاثمائة من الأميال وعن بلغراد بمثتين .

ولم تتوج هذه المدينة باسمها الجديد الا فى القرن الرابع عشر فدعيت صوفيا تيمنا بكنيسة القديسة صوفيا التى الى جوار المدينة . ولكن هذه الكنيسة التى كانت نفسها معبداً رومانياً فيما سبق لم يؤاتها الحظ إذ استحالت الى مسجد ثم خربتها الزلازل فى القرن الماضى .

ثم استقبلت صوفيا عصراً جديداً إذ دخلها الترك فى سنة ١٣٨٢ واستقر فيها أبناء عثمان بضع مئات السنين لا تزحزحهم عنها قوة من القوى ، ولم يرحلوا عنها الا حين رحل الأتراك عن أوربا جمعاء فكانت صوفيا آخر ما يودعون .

أصبحت صوفيا فى تلك الأيام مدينة اسلامية يطغى أتراكها على بلغارها عدداً . وأصبحت مقر الحاكم التركى الذى يتصرف فى أمور البلقان جميعها ، هذه البلاد التى يحكمها اليوم خمسة ملوك متوجون .

ففى خلال قرنين أصبح فى صوفيا احد عشر جامعاً كبيراً ومائة مسجد . وعند مانشبت الحرب التركية الروسية كانت صوفيا

مقر القائد التركى مصطفى باشا الاسكودارى .

وفى يوم ٤ يناير سنة ١٨٧٨ — وهو يوم مشهود فى حياة هذه المدينة — دخلت الجيوش الروسية المنقذة صوفيا . ومنذ هـذا التاريخ القريب أصبحت صوفيا مدينة بلغارية ، ولم تمض سنون حتى بدأت المعاول تقضى على تذكارات ذلك العصر التركى الطويل ، فاستحالت مساجدها كنائس ، ولم يبقوا منها إلا على جامع واحد ما زال يحدث حديثه فى قلب صوفيا .

بين موسكو وباريس

ولـكن صوفيا التركيـة غيرها اليوم ، وقد أخذت عن أوربا الحديثة كل ما يطمع فيه بلد ناشىء . لم يكن الاستعمار التركى قاسياً كما كان استعمار اليونان ؛ نعم كان اليونان يستعمرون بلغاريا استعماراً ثقافياً دينياً لقد كانوا أولئك الذين يقتلون روح القوميـة البلغارية فى الصميم ؛ لذلك كان جهاد البلغار فى رفع هذا النير عن أكتافهم أشد عنفاً من الجهاد فى سبيل الحرية السياسية .

كانت اللغة البلغارية مجهولة فلم يكن البلغار يكتبون إلا باليونانية ، ولم تنشأ مدرسة بلغارية صميمة إلا فى أخريات القرن الماضى ثم تلتها غيرها ، فكان ذلك أول أساس فى بناء القومية

البلغارية ، لقد كانت شئون الدين في بلغاريا في يد البطريق اليوناني ، وكم ثار هؤلاء البلغار المساكين للتخلص من هذا النير ولكن الباب العالي كان يناصر اليونان دون مواربة فلم يتردد في قمع كل حركة من أجل تنصيب بطريق من البلغار أنفسهم ؛ وعمل الشعراء واجبهم في اذكاء روح القومية البلغارية فصاغوا حياة بيتوف وغيره من أبطال الاستقلال أراجيز وأغاني يتناقلها الشعب ، وجاء دور المصور الشعبي فرسم صور بيتوف ورفعه الى مقام البطولة الخيالية ، فكل صورة في الريف البلغاري ليست إلا صورة لهذا البطل الذي استولى بالحيلة على سفينة نمسوية على الدانوب وراح يحارب الاستعمار التركي بعصاباته المسلحة .

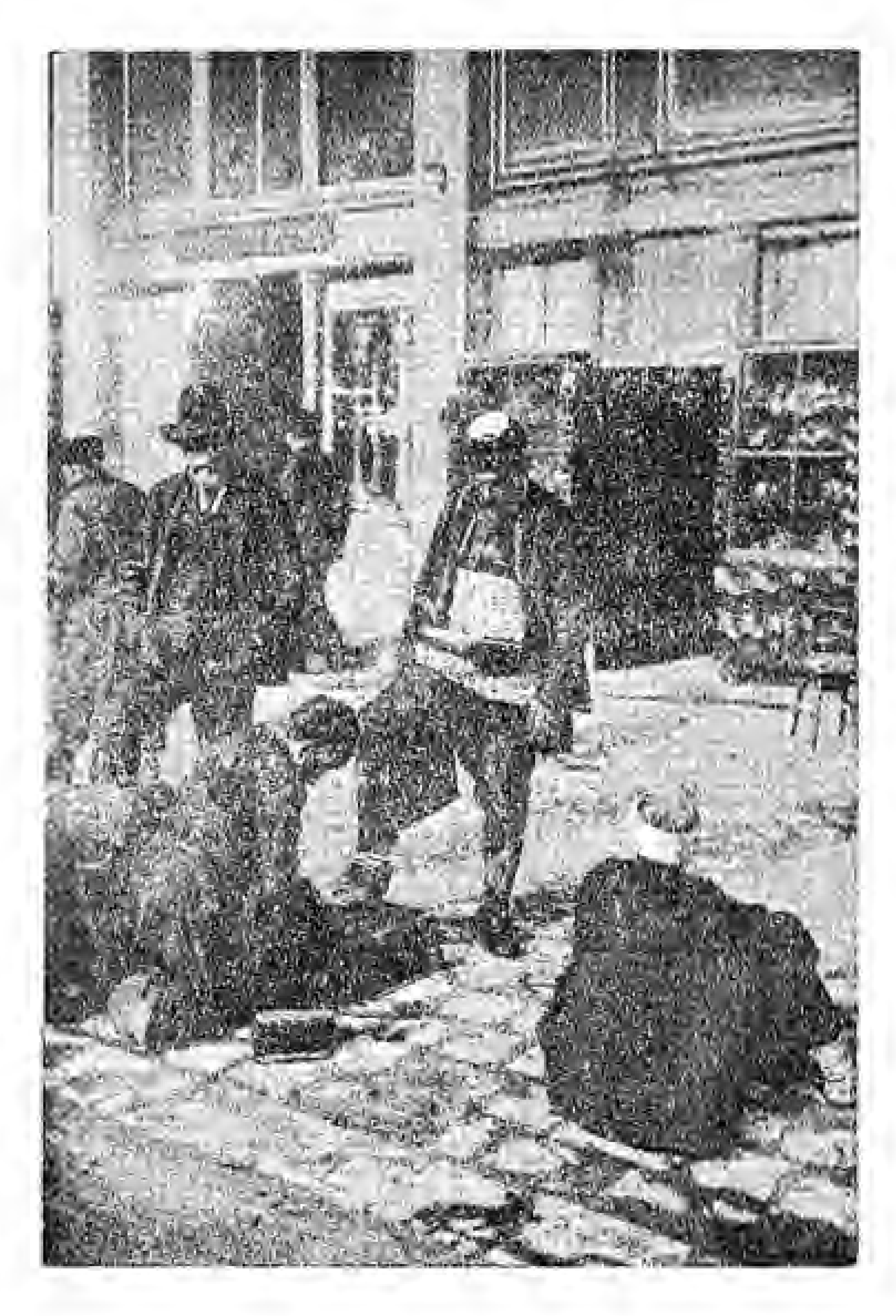
وجاءت الحرية على يد الروس ؛ ولكنها حرية دفع لها الثمن غاليا لأن موسكو أخذت تفرض ولايتها الروحية والثقافية على صوفيا ؛ ولا زلت الى اليوم ترى الفن الروسي متمثلا في أبنية صوفيا فتمثال القائد الروسي أو بطل الاستقلال يحتل مكانا فريداً في قلب صوفيا ، والكنيسة الروسية التذكارية أجمل ما رأيت في العاصمة البلغارية بقبتها الكبيرة الوسطى وقبابها الصغيرة و بنقوشها الملونة على الجدران ؛ هذه الكنيسة وغيرها تمثل لونا من آثار الولاية الروسية على بلغاريا .

ولكن صوفيا اليوم صوبت أنظارها الى الغرب ؛ فما دخلت بلغاريا الحرب فى صف ألمانيا حتى بدأ العطف على الشعب الالمانى وتحول العطف اعتداداً بالثقافة الألمانية . ولكن العجيب أن صوفيا بدأت تنفض عنها هذا الثوب ، وتوجه أنظارها من جديد الى باريس . فالثقافة الفرنسية تشق اليوم طريقها فى حياة صوفيا الثقافية والاجتماعية .

فعلى ميدان أوسط من ميادين هذه العاصمة تطل مدرسة الليسيه الفرنسية وقد ارتدى تلاميذها شبه زى عسكرى بقبعات حمراء ، ولما رأيت جماعات منهم المرة الأولى حسبتهم فرقة من فرق الأسعاف ، والى جانب الفندق الذى كنا نأوى اليه كلية فرنسية ليلية تدرس الفنون والعلوم والآداب باللغة الفرنسية فكان اذا أمسى المساء تجمع الشبان والفتيات حول بابها ، ويملأون ذلك الشارع حركة ، ومن ثم يقبلون بكتبهم ودفاترهم على المقاهى والمراقص القريبة يسلخون فيها الليل حتى الهزيع الاخير .

حياة صوفيا الاجتماعية

شارع « زار ازفوبوديتل » أو القيصر المنقذ هو مركز الحياة الاجتماعية فى صوفيا . على جانبيه كل ماتحويه العاصمة البلغارية من أبنية عامة ومن أندية ومن نصب وتذكارات .



ماسح الاحذية فى شوارع صوفيا

وليس القصر الملكي بحدائقه الخاصة والعامة بالبناء الذي يتحدث بنفسه عن ساكنه ، فهو بلونه الأصفر و بنوافذه الخشبية وأعمدته المدهونة بالطلاء ، يفتقد ذلك الجلال الذي تفيض به القصور الملكية عادة ، وليست أسواره الواطئة تخبيء وراءها سراً ! فالسائر حول القصر يستعرض زائريه وساكنيه دون حاجة إلى اختلاس النظر ، وعمر هذا القصر ستون سنة وقد بنى على اطلال قصر تركي .

و ينتهي شارع القيصر المنقذ — اسكندر الثاني قيصر روسيا — كما يبدأ بحديقة ، فاذا سرت إلى طرفه تستقبلك حديقة « الأمير بوريس » وهي حديقة رحبة أطلقت فيها الطيور وأسراب الأوز والبط والبجع . طرقتها ذات يوم باحثا عن بعض المصورين ممن يقفون بصناديقهم في مدخل الحديقة يرسمون صورتين شمسيتين بعشر ليفات .

وذلك أنني قصدت القنصلية اليونانية المجاورة للتأشير على جواز السفر ، فكان عليّ أن أقدم صورتين لرجال الحفظ قبل أن أبرح بلغاريا ، حذرا من الشيوعية التي تعيش بلاد البلقان في فزع دائم منها . و بينما كنت في انتظار جواز السفر حضر رجل انجليزي أو الماني على ماأظن بطلب التأشير على جوازه بوجه من السرعة إذ أن

طائرته تغادر صوفيا بعد نصف ساعة ، وكم كان قلق ذلك الرجل وكم كانت حيرته وهو يحاول أن يقنع الموظف بدقة موقفه ، بينما هذا يضيع الوقت فى توزيع التحيات والابتسامات ؛ وقد تركتُ هذا المسكين ولم تبق إلا دقائق على موعد قيام الطائرة وهو فى محاولته وجهاده .

وقبل أن تصل إلى هذه الحدائق تمر بجامعة صوفيا و بمعرض الفنون و بالكنيسة الروسية ، و بتمثال قيصر روسيا اسكندر الثانى و بالبرلمان البلغارى وهو الذى يطلقون عليه اسم سو برانای .

والشيوعية كما قلت خطر يهدد هذه البلاد ، ولكن عيون الحكومة مفتوحة وهى لا تعرف فى قمعها رحمة ولا رأفة ؛ وما زال العالم يذكر إلى اليوم تلك المؤامرة الشيوعية التى قضت على أرواح عشرات من المصلين تحت قبة كتدرائية صوفيا من أربع عشرة سنة، وقد شيدت هذه الكنيسة من جديد .

وفى ذات يوم ذهبت إلى إدارة الأمن فى صوفيا للتصريح بمغادرة بلغاريا وهى بناء حجرى حديث الإقامة يشرف على قناة فى خارج المدينة تدل عمارته على ما أنفق فى بنائه من مال عريض؛ وفى غرفة الانتظار عرفت بلغاريا من أصل روسى يعيش فى مصر فجرى الحديث عن شئون السياسة فى بلغاريا . ولما كان حديثنا

باللغة العربية توسع صاحبنا فى الشرح والتعليق ، فعرفت إن هذا البناء الضخم قد شيدته موسكو منـذ سنين وأنفقت عليه ملايين الليفات وجعلته شبه قلعة محصنة فزودته بالغرفات السرية والأقبية الأرضية والسراديب المجهولة التى توصل مابين هذا المـكان وظاهر المدينة .

ثم كشفت الحـكومة القناع عن سر هذا المـكان ، فهوجم على غرة واستولى رجال الحـكومة عليه بعد أن اكتشفوا فى سراديبه عجائب الأسرار التى مازال يذكرها أهل صوفيا مصبوغة بالخرافة ؛ وفى أقبية هذا البناء أعدت الحـكومة أروع أجهزة للتعذيب فى عهودنا الحديثة نصبتها لأعدائها السياسيين ومن إليهم ، وقيل إن من يعرف الطريق إلى هذه السراديب من العسير أن يعرف ضوء الشمس وأن من أسعده الحظ بالحياة ليس أوفر نعمة من صاحبه اذ يعيش مقعدا أو أبكما إلى آخر أيامه ؛ فهذه الشعوب لاتستثيغ إلا العنف ؛ تستثيغة فى لذاتها كما تستثيغه فى اساليب انتقامها وتأديبها .

* * *

وفندق « بلغاريا » مركز الحياة الاجتماعية الارستقراطية فى صوفيا . وتحوى مبانيه مطعما أنيقا وقاعة للعرض وقاعة للرقص و إلى

جوارها مقهى حديث تسرى إليه نغمات الموسيقى الراقصة . وفى هذا المقهى كنت أقضى كل يوم ساعات الشاى ، وفى هذا الوقت تفد على هذا المقهى جموع الطبقة الممتازة فى العاصمة البلغارية ، من أجانب ووطنيين .

وفى مثل هذا المكان — كما رأيت فى بوخارست و بلغراد — تختفى اللغة الوطنية ، وتأخذ مكانها لغة الطبقة المثقفة التى لا تتكلم فى مجتمعاتها العامة إلا اللغة الفرنسية أو الالمانية ؛ والمرأة البلغارية كالمرأة الرومانيــة تناصر اللغة الفرنسية فى حياة الصالون ؛ و إذا التأمت حلقات هؤلاء السيدات ارتفع الضجيج حتى تحس بأن كل واحدة من الجالسات تتكلم ، أو أنها تعرض قدرتها على تلوك هذه اللغات الأجنبية بطريقة لا تدع مجالا للشك . وفى هذا المقهى تقدم أقداح الشاى الانجليزى والقهوة « الفنواز » وألوان الحلوى الفرنسية كما تقدم فى مقاهى تلك البلاد .

وعند مدخــل هذا المقهى بائع للصحف وأكثرها صحف أجنبية من إنجليزية وفرنسية والمانيــة ؛ وهذه تعرض عند أكثر باعة الصحف فى قلب المدينة .

وتعرض فى دور السينما فى العاصمة البلغارية أشرطة بكل

لغة ، فقد شاهدت شريطا انجلترا والمانيا كما كانت تعرض فى ذلك الأسبوع أشرطة فرنسية وإيطاليـة ، وفى ذات ليلة زرت دارا للسينما لأشاهد شريطا انجليزيا ، وبعد أن اشتريت بطاقة الدخول عرف ملاحظ الدار بأننى مصرى فتشدد فى رد ثمن البطاقة ولـكننى امتنعت ، ولم يرد « اسمعيل » هذا إلا أن يرافقنى إلى مقعدى وأن يقف إلى جانبى أكثر ساعـة العرض ، ولم يرد إلا أن يدعونى إلى زيارته فى فرصة أخرى .

وفى صوفيا مسرح يقولون إنه أكبر دار للتمثيل فى بلاد البلقان ، ولـكن صوفيا تفيض بمراقصها وأنديتها الليلية . ومع أن مقاهى صوفيا مازالت مصبوغة بروح عصورها التركية القديمة إلا أنها أخذت بأساليب الغرب الحديثة ، ففى قلب المدينة سلسلة من المقاهى التى تذكرك بأندية فينا أو تعطيك فـكرة عن مقاهى نيويورك ، ومن العجيب أنى رأيت فى مقهى من هذه المقاهى — حيث يجتمع الشباب إلى ساعة متأخرة من الليل — صورة لملك انجلترا وللزعيم الامريكى لينـكولن ومع ذلك فلا ترى جالسا واحدا يعرف اللغة الانجليزية أو شيئا عن أساليب الحياة الأمريكية أو ترى كلمة مدونة بهذه اللغة ؛ وعلى غير عادة هذا البلد تقوم فتيات بالخدمة فى هذه المقاهى .

وللبلغار أساليبهم فى الرقص ؛ ولكن الراقصة البلغارية قد تعلمت أساليت الرقص الانجليزى ، فى صوفيا مدرسة للرقص تعد هؤلاء الفتيات للأندية الليلية ؛ وقد عرفت بعض هؤلاء الفتيات فى قاعة الفندق وفى مطعمه الذى يستحيل مرقصا فى ساعات الليل المتأخرة ؛ وعرفت إن فرقة من هؤلاء الراقصات تعد فتياتها للسفر إلى اليونان ومالطه ثم مصر . وفى باريس عرفت فى بعض مجالس الحى اللاتينى راقصة بلغارية وجدت طريقها إلى مدينة النور ؛ وتعد نفسها للسفر إلى لندن .



فلاحات يجمعن الورد لتقطيره

متـاحف

زرت فى صوفيا متحفا واحدا . هذا هو المتحف الأثنولوجى البلغارى ، وهذا المتحف مع بساطته جدير بزيارة الزائر لصوفيا . ففيه صورة طيبة عن الحياة البلغارية الاجتماعية ، ففى الردهة الصغيرة التى تحكى ردهة منزل انجليزى قـديم دفعت ثلاث ليفات رسما للدخول ، ودخله معى فلاح وزوجه من زائرى صوفيا . وقد زينت جدران هذه الردهة الضيقة ودرجات السلم بمجموعة صور شمسية للحياة الريفية البلغارية .

وأجمل مافى هذا المتحف مجموعة كبيرة للأزياء القومية فى بلغاريا ، وقد تعددت وتباينت باختلاف المقاطعات الاقاليم وقد زركشت بالرسوم وزخرفت بالزهور و بدت زاهية بألوانها المتنافرة الفاقعة . هذه الأزياء التى لايراها الزائر اليوم إلا فى القرى البعيدة أو فى أيام الأعياد وما إليها .

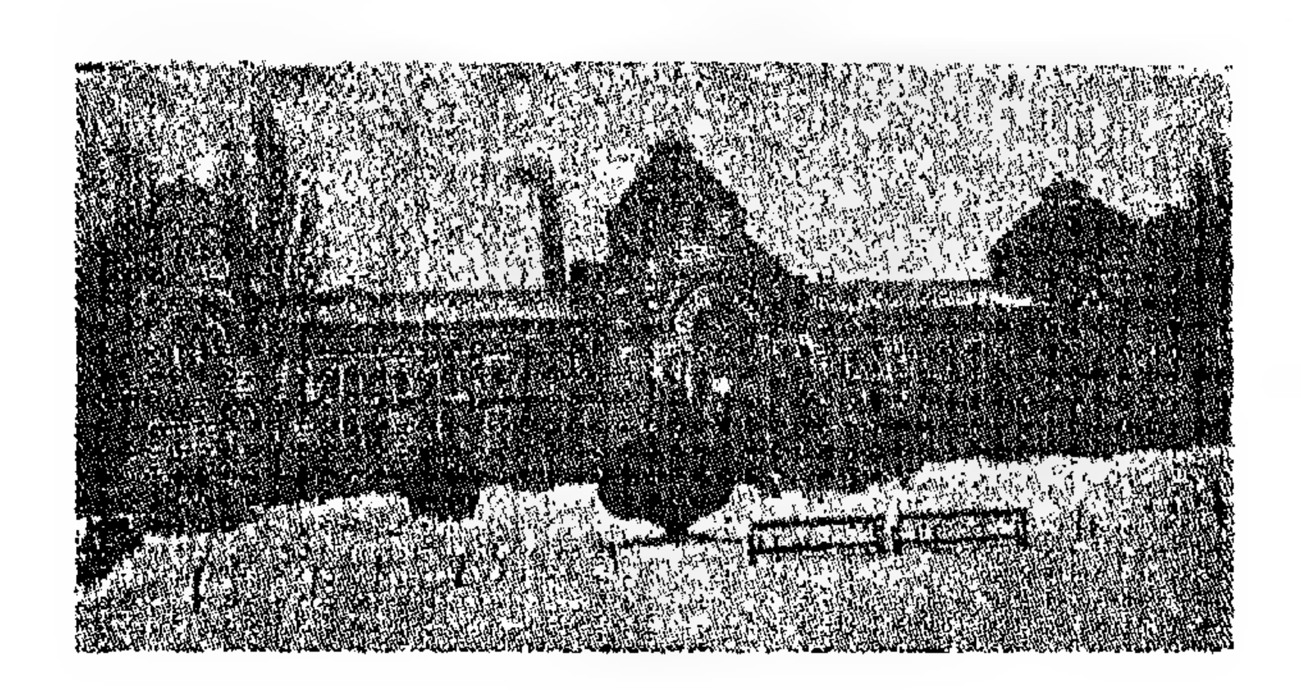
وعرضت فى هذا المتحف أنواعا من أدوات الزينة الذهبية والفضية ، وهى منقوشة نقشا شرقيا دقيقا اشتهرت به بلغاريا وهى تعتبر تراثا من الفن التركى . و إلى جانب ذلك أنموذج مجسم لصانع بلغارى يعمل فى دكانه . و إلى جانب ذلك تذكارات حربية من سيوف

و بنادق ومدافع خشبية قديمة يرجع تاريخها إلى حرب الاستقلال .

وبعد أن انتهيت من جولتى السريعة زرت مدير هذا المتحف، وما دخلت حجرته المتواضعة حتى ملأت خياشيمى رائحة « النفتالين » تنبعث من كومة من الملابس فى وسط الحجرة ، وكان صاحبنا يخرجها من صندوق أمامه فاحصا مختبرا ، استعدادا لعرضها .

وفى خلال حديثنا علمت أن فى صوفيا متحفا للتعليم فكانت مفاجأة غير منتظرة ، فمثل هذه العاصمة أبعد ماتكون رعاية لهذه الشئون . واتصل صاحبى بوزارة المعارف ومهد لى السبيل لهذه الزيارة وبعث معى رسولا يصحبنى إلى دار الوزارة .

ومن العجيب أن وزارة المعارف البلغارية إلى جوار الفندق الذى



حمام صوفيا

تخلفت إليه ! وتحتل بناء حديثا مررت به عشرات المرات وما تخيلت أن وزارة من وزارات الدولة تجتمع فيه . وارتقينا المصعد إلى الدور الرابع أو الخامس وقابلنا موظفا ثم آخر ؛ ومن ثم صحبنى هذا الأخير إلى حيث متحف التعليم فى مكان قريب ؛ وهو أشبه شيء بمخزن تجاوره مطبعـة قديمة فاحت منها رائحة الغراء فملأت الأنوف .

وارتقينا درجا قـديما ، وطرقنا بابا مغلقا . وانتظرنا قليلا ثم سمعنا وقع خطوات رفيقة تقترب ؛ وفتح لنا الباب شيخ يحمل قلما ونظارة قادنا حول جوانب هذا المتحف المدرسى .

و بين مخزون هذا المتحف المغلق ألفيت بعض الطرائف التى تروق فى نظر المشتغل بتاريخ التربية . رأيت « فلقة » من الخشب الغليظ لف عليها حبل من القنب ، ووضعت بجانبها حزمة من الأغصان الناشفة كأنها ألسنة الـكرابيج ، هذه الفلقة عرفتها بلغاريا كما عرفناها فى مصر ، وأصبحت فى تلك البلاد أثراً من الآثار بعد أن كانت محورا هاما فى أساليب التعليم ؛ واليوم وقد غزت نظريات التربية الحديثة الشرق والغرب لم يعد « للفلقة » مجال فى المدرسة فسلم من شرها تلاميذ هذا العصر .

ورأيت مقعدا من الخشب ثبت أمامه حوض من الرمل كان يستعمله الأطفال فى تعلم الكتابة ، فكان ذلك الحلقة المفقودة بين الكتابة على الأرض وبين الجلوس إلى الأدراج والمقاعد الحديثة . ورأيت ألواحا من الخشب تعلق عليها صحائف الورق المكتوبة وقد سورت بحاجز من الحديد يقف حوله الأطفال يتطلعون إلى هذا اللوح المعلق دون أن تلمسه الإصبع ، رأيت هذا وتذكرت تلك الأيام التى بدأت فيها بلغاريا تنفض نير الحماية اليونانية وتعلم أبناءها لغتهم التى دفنها الاستعباد ، وتذكرت كيف كانت هذه الصحائف المكتوبة باللغة الوطنية من الكنوز الغالية التى يخاف عليها حتى من لمس الأنامل !

ورأيت أكواما من الأثاث والخرائط ونماذج من أعمال الطفل البلغارى، جمعت بعضها فوق بعض وقد علاها التراب حتى أن خازن هذا المتحف لم يجد من نفسه وازعا إلى تنسيقها أو التطلع إليها .

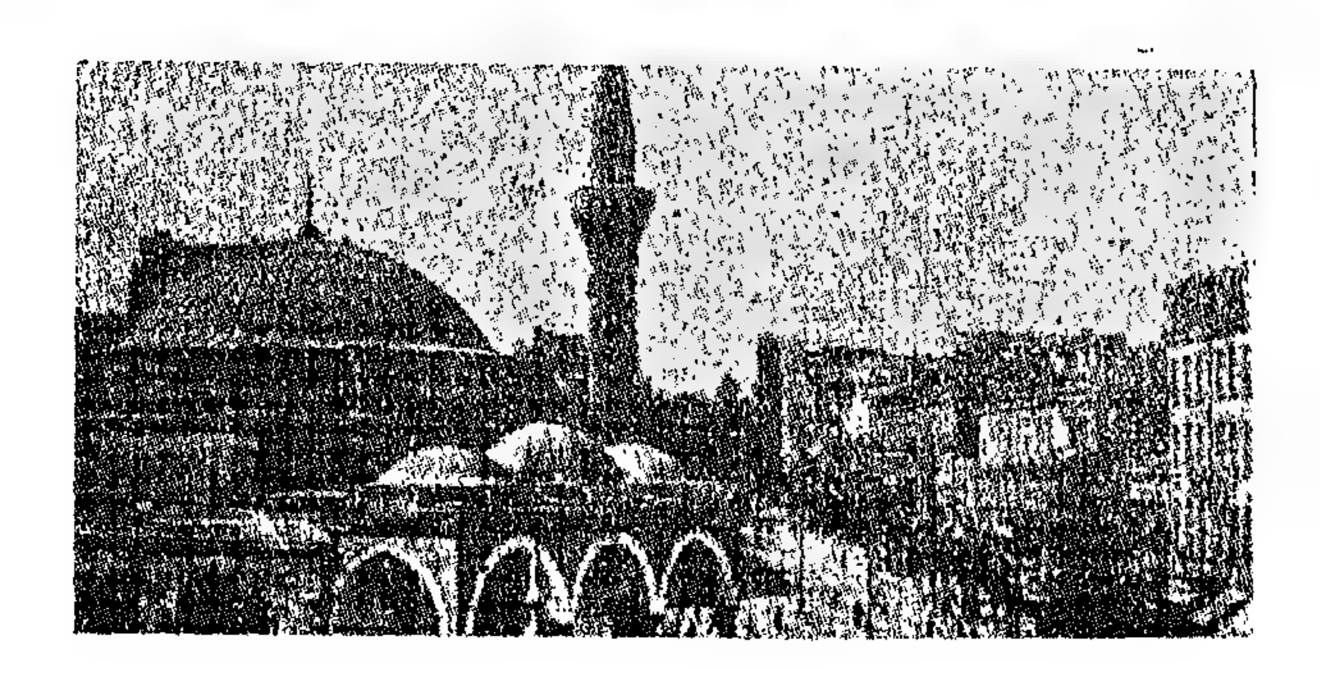
حادثة

وقبل أن أبرح صوفيا نزلت بى نازلة ، إذ كسر إطار نظارتى ؛ وليس أتعس من المسافر الذى تعجزه نظارة وهو على سفر ! حاولت لصق أجزائها فلم أفلح، وحاولت التخلص منها فلم أفلح ايضا ،

ولكنني عندت وصممت على أن أسير بدونها وأن أدرب نفسى على التحلل من أسر العدسات المقعرة والمحدبة ، فذهبت إلى مقهى قريب وجلست متعمدا التحديق فى وجوه الجالسين والجالسات لأدرب عينى على النظر الدقيق ، فأصابنى دوار أليم واغرورقت عيناى بالدمع حتى لم أجد بدا من الانصراف إلى الفندق .

وأصبح الصباح وكان يوما من أيام الآحاد وقد أغلقت متاجر المدينة ، وأخذت أذرع الطرقات باحثا عن بائع للنظارات حتى انتهى بى المطاف إلى سوق الأمتعة القديمة فلم أجد إلا أكوام المفاتيح والمطارق والملابس الرثة والأثاث البالى ثم أكوام الكتب ؛ فوجدت فى ذلك نوعا من السلوى فقطعت ساعة فى دهليز أرضى أتصفح كتبا ألفت منذ القرن الماضى ورسوما أصبحت تحفا أثرية . لقد رأيت صورا تذكارية للحرب العظمى ما زالت تحتل جانبا ظاهراً من المكان ، رسمت فيها صور ملك بلغاريا وسلطان تركيا وامبراطور ألمانيا والنمسا جنبا إلى جنب ؛ ما زالوا إلى اليوم يذكرون تلك الأيام ويذكرون أصدقاء الحرب ويقدسون ذكرى أولئك الملوك الذين لم يبق منهم واحد يحمل تاجا على رأسه ، ولعل هذه النهاية الحزينة هى التى ولدت العطف نحوهم فى بعض النفوس .

حتى إذا انتصف اليوم أحسست بأن الطرقات أخذت تميد تحت قدمى ، فلم أجد بدا من إخراج نظارتى المكسورة وحملها بأصابعى أمام عينى ؛ إلا أن ذراعى لم تطق حملها طويلا . والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة إذ رأيت أن أربط هذه النظارة الكسيحة بخيط أعقده حول أذنى ، إلا أن التجربة أثبتت الفشل ، وقد اختل توازن العدسات أمام العينين فأصبح النظر أشد اضطرابا ؛ وانتهى بى الأمر إلى ربطها بسلك معدنى ، فلم أجد إلا سلكا قديما قذرا علاه الصدأ بطبقة ترابية حمراء ؛ ولكن ذلك كان أفضل الحلول ، فعقدت طرفه بين العدستين ولففته حول الأذن ، فكان منظرا عجيبا ؛ ولما دخلت المطعم للغذاء تلفت الجالسون إلىّ ينظرون إلى هذه الشبكة المعدنية التى أرسلتها حول رأسى ولكننى أغمضت



جامع صوفيا

عينى عن كل شيء ، ولم أفكر إلا فى الغد لكى أتخلص من هذا القيد الثقيل .

وما فتحت متاجر صوفيا أبوابها فى صباح يوم الاثنين حتى كنت أمام صانع النظارات ولم أبخل بما كنت احتفظت به من ليفات لشراء تذكارات لصوفيا ، فتركت العاصمة البلغارية وكان تذكارى نظارة صنعت فى ألمانيا !

فى مسجد صوفيا

اليوم الجمعة . استيقظت فى الضحى الثانى ، فلم أجد رغبة فى تناول شيء من الطعام ، إذ ما كدت أبرح الفندق حتى كان اليوم قد انتصف فاسرعت إلى حيث مسجد صوفيا لصلاة الجمعة ، ولما كنت لا أعرف ساعة الصلاة فى هذا الجانب من أوربا رأيت أن أصل إلى الجامع فى ساعة مبكرة .

جامع صوفيا من عيون الآثار فى هذه العاصمة ، وقد تجلت روعته فى ميدان فسيح يتوسط المدينة ، تدور حوله أنّى سرت فى هذه العاصمة ، وتسوره حدائق كالتى تسور جامع أيا صوفيا فى اسطنبول ، وإلى جواره الحمام التركى ببنائه الشرقى المزخرف .

وليس هذا الجامع أقدم المساجد فى صوفيا . فالجامع الكبير

أوجامع « بيوق » ترجع عمارته إلى عهد السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية ؛ وفى إبان الحرب التركية الروسية خزن الترك زخائرهم فى هذا المسجد ، فلما انسحب الأتراك من صوفيا استحال هذا الجامع إلى متحف للآثار البلغارية ؛ ومازال هذا الجامع بقبابه التسع المصفحة يذكرالزائر بصحيفة من تاريخ الحرب الروسية .

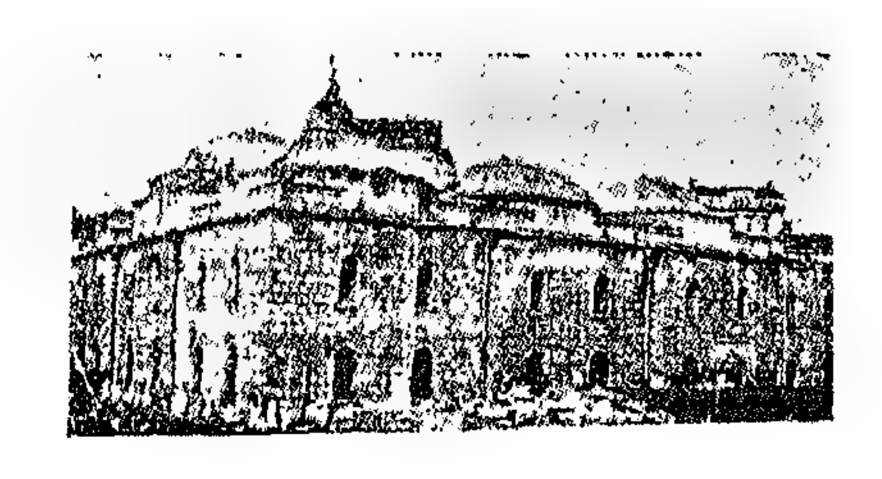
أما جامع صوفيا فقد بناه القاضى سيف الله افندى فى أيام السلطان سليمان القانونى ، وتمت عمارته فى السنة التى توفى فيها هذا السلطان و يعرف هذا المسجد بجامع (بانيه باشه).

كان من العجيب أن أجد بوابة الجامع الكبرى مغلقة ، بل معقودة بسلسلة من الحديد تدل عن أن الباب لم يفتح من زمن طويل ؛ ولما كنت واثقا من أن الجامع لم يستحل بعد إلى أثر من الآثار ، وأن الصلاة تقام فيه فى كل يوم فضلا عن صلاة هذا اليوم الجامعة ، لذلك لم أرجع أعقابى بل أخذت أدور حول البناء الكبير لاكتشف مكان هذا الباب المطروق .

كان إلى يمين البوابة مدخل جانبى مغلق تهيبت ان أطرقه فانتظرت حتى رأيت رجلين من الأتراك يلجان هذا الباب ، ثم رأيت شابا يقف موقفى مترددا بين الدخول والاحجام ، أو لعله

غريب يبحث مثلى عن مدخل لهذا الجامع — فاستعرضت فى تلك اللحظة روح الأقلية التى و إن كانت تعيش متضامنة مع الشعب فى حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا أنها تفترق عنه فى حياتها الروحية وفى تقاليدها الدينية ، عند ذلك تشعر هذه الطوائف بأنها أقلية بالفعل ، وهذا الشعور وحده هو الذى يدفع أفراد هذه الطائفة أو تلك إلى التضامن بل و إلى المغالاة فى حماية تقاليدها وتراثها الثقافى لأن فى حماية هذه التقاليد أيا كانت — حماية لكيانهم ؛ وهم فى ذلك كالخراف التائهة من القطيع ، لاتفتأ تحن اليه وتحس باحساسه ، ويهيجها كل مايثير فيها هذا الحنين !

ثم اننى ولجت هذا الباب الجانبى ، ونزلت درجتين إلى غرفة أتخذت ميضأة أعدت بصنابير الماء وبعض المشاجب ، ثم دخلت غرفة أرحب من الأولى تقود إلى أخرى قد اتخذت مكتبا. فوجدت



الجامع الكبير (المتحف الوطنى)

جمعا من الناس ما بين مغتسل وجالس على مقاعد صفت حول الغرفة يتحدث إلى جاره همسا . وفى صدر المكان جلس شيخ مهيب الطلعة بلحية دائرة يطفح وجهه فتوة ، جلس إلى منضدة صفت عليها أوراق وكتب ، يستعرض بعض الصحف ولا يرفع رأسه إلى الجالسين إلا الفينة بعد الفنية .

فتخيرت مقعدا إلى جواره وتوجهت بالسلام عليه وعلى الجالسين فردوا بمرحبا وبالسلام عليكم ، وتوجهت إلىّ الانظار ، بيد أن واحدا من الجالسين لم يجرؤ على السؤال . ثم إننى حاولت اختبار الشيخ فى اللغة العربية ، فرد على السؤال بكلمات لا تخرج عن التوكيد أو النفى ففتحت بذلك باب الكلام ، فرنا الجالسون بعيونهم وآذانهم إلى هذه المساجلة بين شيخهم و بين هذا الغريب الطارىء . وكان كلما القى عليه سؤالا اتخير الالفاظ وانتقى من التراكيب ما لا يلعب بالفهم تشجيعا لصاحبى على الكلام ، وكان إذا ألقى علىّ سؤالا يتقبل كل ما اجيب به بهز رأسه تدليلا على فهمه وتأكيدا لجماعة الجالسين .

كان الشيخ تركيا ، يشغل منصب الافتاء أو نحوه فى صوفيا وكان فى نبرات صوته رنة حزن إذا تكلم وفى نظراته بصيص ألم

مدفون ، وكأنه يحس بأنه يعيش فى غير وطنه وفى غير عصره .

وفى تلك اللحظات سرى من صحن الجامع صوت المقرىء يرتل آى الذكر الحكيم ، وكانت جوانب المسجد العالية تتقاذف موجات صوته وتتجاوب بها قبته الكبيرة حتى كأن هذه الآيات تنبعث من كل مكان ، وكأن الوقت فى الهزيع الأخير ولمّا ينبثق الفجر حول جامع المؤيد فى القاهرة !

وأخذ الجالسون يتركون أماكنهم إلى صحن الجامع وأخذ المصلون يفدون تباعا من شيوخ وشباب ، وكان جميعهم يلبس الطربوش والعمامة ، على غير عادة المسلمين فى الصرب الذين لا يعرفون العمامة حول طرابيشهم . وبدأت عمارة المسجد رائعة من الداخل وقد تربعت تحت القبة الكبرى ووليت وجهى صوب المنبر المرمرى المنقوش نحو قبة مزخرفة بالآيات القرآنية وارتفعت حولى أعمدة باسقة من الرخام تحمل سقف المسجد ، أما الأرض فقد فرشت بسجاد ثمين وترك جانب من المسجد لرحابة أركانه ولقلة عدد المصلين الذين كانوا نحوا من ثلاثين أو يزيد .

وجاء فى تلك الاثناء طالب بقبعته الملونة ، وأراد الصلاة وكان الخطيب على المنبر فمنعه الشيوخ من الجالسين . ثم جاء شاب لعله

من العمال يلبس « كسكتا » فأدار مقدمها إلى خلفه حتى تتيسر له الصلاة

ثم أن الخطيب اعتلى المنبر ، وألقى خطبة عربية من ورقة مفتوحة أمامه ، ولكننى لم أفسر كلماته ولم أفهم موضوع الحديث لأن اللهجة التركية كانت تغلب على الأسلوب العربى ؛ فكان يمد ما لا يمد ويقصر مالا يقصر فى إلقائه حتى أصبح من العسير تمييز كلمة من كلماته . وكل ما قدرت على فهمه آىَ القرآن التى كان يخصها بعناية فى الالقاء وتوضيح فى اللفظ .

وفى أثناء الخطبة كان الجالسون يستمعون بعيون معلقة بالخطيب وقد نكسوا رؤوسهم بين أكفهم يهزونها من حين إلى حين تأكيدا على أنهم أيقاظ يستمتعون بكلمات الخطبة فى غفلة عن الجالسين .

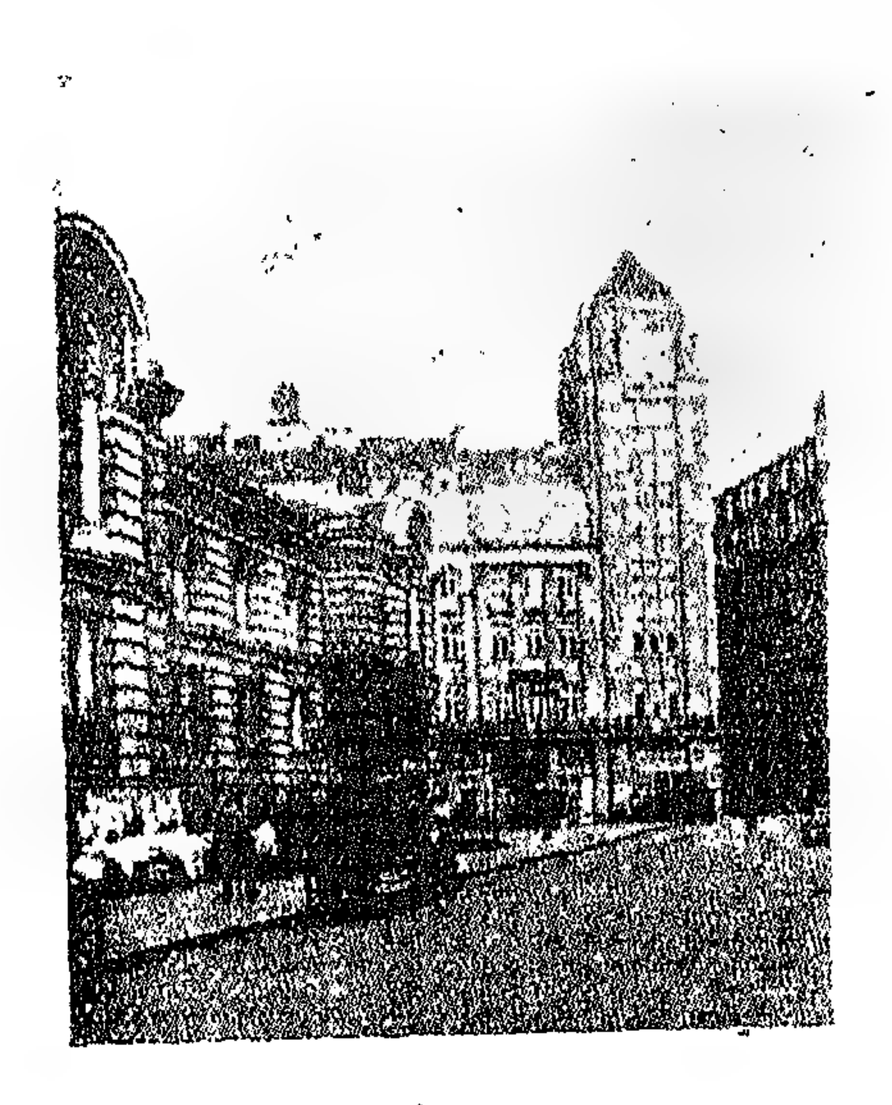
ولكن الحقيقة التى لا شبهة فيها أن الكثير من أولئك المصلين لم يفقهوا موضوع الحديث ، ولم يميزوا إلا آيات القرآن ؛ وان هذه الخشية التى تعلو وجوههم ليست أثرا لما سمعوا ، بل هى الهيبة التى تفيض بها النفس عند سماع كلام مقدس ، يزيده الجهل بفهم ألفاظه تقديسا .

وبعد أن انتهت الصلاة جلس بعض المصلين يرتلون الأوراد ويسبحون على النبى بصوت موسيقى شجى ، وخرجت مع من

خرج إلى غرفتنا الأولى ، وفى هذه الغرفة قدمت الى رفيق جديد ممن يحسنون الكلام باللغة العربية و يضطلعون بمهمة ثقافية فى صوفيا. كان هذا الرفيق صاحب جريدة « مدنيت » التركية البلغارية ، وفى موعد ضربناه جلسنا طويلا نتذاكر فى الشئون الاسلامية فى بلغاريا .

المسلمون فى بلغاريا

كنت على موعد مع صاحب جريدة « مدنيت » لاستيضاحه حال المسلمين فى بلغاريا فكان خير من أثق بنقل حديثه عن هذا الموضوع بحكم عمله الصحفى .



صوفيا الجديدة

وكان مكان اجتماعنا مقر الجمعية الإسلامية فى صوفيا ، وهى فى بناء قديم تصعد اليه بدرجات ضيقة مظلمة ، تذكرك ببيوت القاهرة القديمة ، وكان هـذا البيت من أوقاف المسلمين فى صوفيا ، فليس عجبا أن يكون كما تعرف عن بيوت الاوقاف فى كل مكان .

وكان حاضرنا فى تلك الجلسـة ، جماعة من أعضاء الجمعية ، وجلهم من الاتراك يتكلمون لغتهم فيما بينهم ولا يجهلون البلغارية ؛ وكان صاحبى منفردا فى معرفته باللغة العربية وفى طلاقة لفظة واتساع دائرة معرفته ؛ فهو يقرأ الصحف والمجلات المصرية وينقل منها فى صحيفته الشئون العربية .

وكان مجلسنا حلقة عائلية ، وكان كل طارق جديد ينضم إلى مجلسنا ويفتح بابا للسؤال والجواب ، وكان صاحبنا يقوم بينى وبين الجماعة بدور الترجمان . وبعد أن احتسيت قدحا فاخرا من القهوة ، أخرجت قلمى ومفكرتى وبدأت دورى فى السؤال عن حياة الشعوب الاسلامية فى بلغاريا ، وكان صاحب «مدنيت» لا ينضب له معين ، ولا يعجزه سؤال ، ولا يفتره ذكر احصاء عددى ، وإذا توقف وجد من بطانته خير معين .

ومن بين ستة ملايين يسكنون بلغاريا ، يكوّن المسلمون نحوا

من سبع هذا العدد . إذ يبلغ المسلمون فى بلغاريا ثمانمئة الف .

وهؤلاء المسلمون من أصول ثلاثة ؛ الاتراك ، والبلغار الذين يعرفون بالبوماك ، ثم طوائف السيجان الرحالة .

ويبلغ البوماك مائة الف ، وهم البلغار الذين اعتنقوا الاسلام إبان الفتوح التركية أو فى خلال العصر التركى الطويل؛ و بعض هؤلاء من طبقة الملاك الذين عندما غزا الترك بلادهم آثروا الاندماج فى العهد الجديد بقبول الرسالة الدينية لهؤلاء الفاتحين .

و يسكن البوماك المناطق الجبليـة فى غرب بلغاريا وجنوبها ، والتى تمتد إلى البحر عند قولة إلا أن هـذه المنطقة أصبحت من نصيب اليونان منذ الحرب الأخيرة . و يشتغل البوماك بشـئون الغابات وقطع الأخشاب ورعى أسراب البقر والخراف والماعز التى يصنعون من ألبانها جبن (الكاشكافال) الذى اشتهرت به بلغاريا و يشتغلون كذلك بزراعة التبغ وهو مصدر من مصادر الثراء .

و يلبس البوماك السراويل الفضفاضة ويتمنطقون بالاحزمة و يضعون على رؤوسهم الطربوش والعمامة . ونسـاؤهم متحجبات محافظات على التقاليد التركية القديمة . وعقيدة هؤلاء البوماك شديدة وهم يميلون إلى الانتساب للاتراك والتبرؤ من أصلهم البلغارى !

ويتعلم البوماك فى المدارس البلغارية ، وتخصص لهم ساعتان أونحوهما فى كل أسبوع لدروس الدين ويقوم بتعليمهم أصوله معلمون من أبناء جنسهم يتلقون الدراسات الاسلامية فى مدرسة النواب بمدينة شمنو ؛ ويتعلمون فيها اللغتين التركية والعربية ويعلّمون بهذه الأخيرة آى الذكر الحكيم .

وليست طائفة السيجان أو الشنجانه إلا بضع آلاف ينتسبون



بائع الشراب المثلج

إلى شعوب الغجر التى تكثر فى جوانب البلقان . وينتسب هؤلاء الغجر لكل الأديان وكل المذاهب ولكن تقاليدهم الموروثة أبعد غورا من تعاليم هذه الأديان جمعاء . ولنا عودة للكلام عن طوائف الغجر عند الكلام عن المجر .

ويكثر هؤلاء الشنجانه حول المدن الكبيرة ، يمتهنون رخيص الحرف ومهين الصنائع ؛ ويطلق عليهم الاتراك « نصف ملة » إذ أن معرفتهم باصول الاسلام محدودة ولهم لغتهم الخاصة ومن العجيب أنها تختلف عن لغة الغجر من المسيحيين . ونساؤهم كغيرهم من طوائف الغجر سافرات بيد أن منهم من يعرف التركية ، ويعيشون طبقا التقاليد الحياة التركية القديمة من حيث الزى والحجاب وغير ذلك

ولو أن خمسين الفا من أتراك بلغاريا رحلوا عنها الى الأنضول فى خلال السنين الاخيرة بيد أن الجانب الاكبر من المسلمين البلغار هم من الاتراك وسلالاتهم ؛ وهؤلاء الذين يتزعمون الحياة الاجتماعية والثقافية للمسلمين ؛ وهم الذين يحافظون على اللغة التركية فى حياتهم اليومية وفى المدارس وفى الصحف .

ويسكن المسلمون البلغار فى منطقة دوبرجا كما يسكنها أخوانهم فى رومانيا ، فدبرجا عند البلغارى كالالزاس واللورين عند الفرنسى

لا يذكرها حتى تهتاج نفسه ويتجدد عداءه نحو جارته الشمالية . ففى هذه المنطقة تغلب المدن والقرى ذات الاكثرية الأسلامية مثل شمنو ورازغراد ورشتق ، وأن كانت الطوائف الأسلامية تتجمع عادة فى القرى التى تسوّر المدن الكبيرة . أما فى جنوب بلغاريا فيتجمع المسلمون حول « قرجه على » أو على الشائب .

ولو أن صرفيا مركز من مراكز الثقافة التركية كما هى مركز للحياة البلغارية جمعاء إلا أن عدد الاتراك من بين الستة آلاف مسلم من ساكنيها لا يزيد عن ثلاثمئة ، أما الأكثرية فهى من طبقة السيجان التى سبق التنويه بذكرها .

والاتراك البلغاريون من المحافظين على تقاليدهم القومية القديمة ؛ واوضح ظاهرة هى مناهضتهم للحركة الكمالية ، ولو أن هذه المناهضة لم تتجه هذا الاتجاه إلا عند ما أخذت النهضة التركية تبدو بمظهر المستميت فى التخلص من التقاليد التركية القديمة أو على الأصح من التعاليم الاسلامية فلما وصلت الكمالية هذه الخطوة ، فنبذ الأتراك الحروف العربية وفصلوا الدين عن الدولة وأمعنوا فى الأخذ بمظاهر الحياة الأوربية ، إذا بملايين من الأتراك في البلقان يقفون لهم موقف النذير ثم موقف العداء نحو أبناء وطنهم

وشعبهم ودينهم ، فالتركى فى البلقان مازال يحن إلى اسطنبول موطنه الروحى ، ومازال يفخر بتاريخه التركى و بثقافته التركية ، و بنهضة تركيا الحديثة ، ولكنه مع ذلك يذكر الانقلاب الكمالى بكثير من الألم وخيبة الرجاء ، بل ان رجال الدين ليعتبرون الكمالى « مرتدا » عن تعاليم الاسلام .

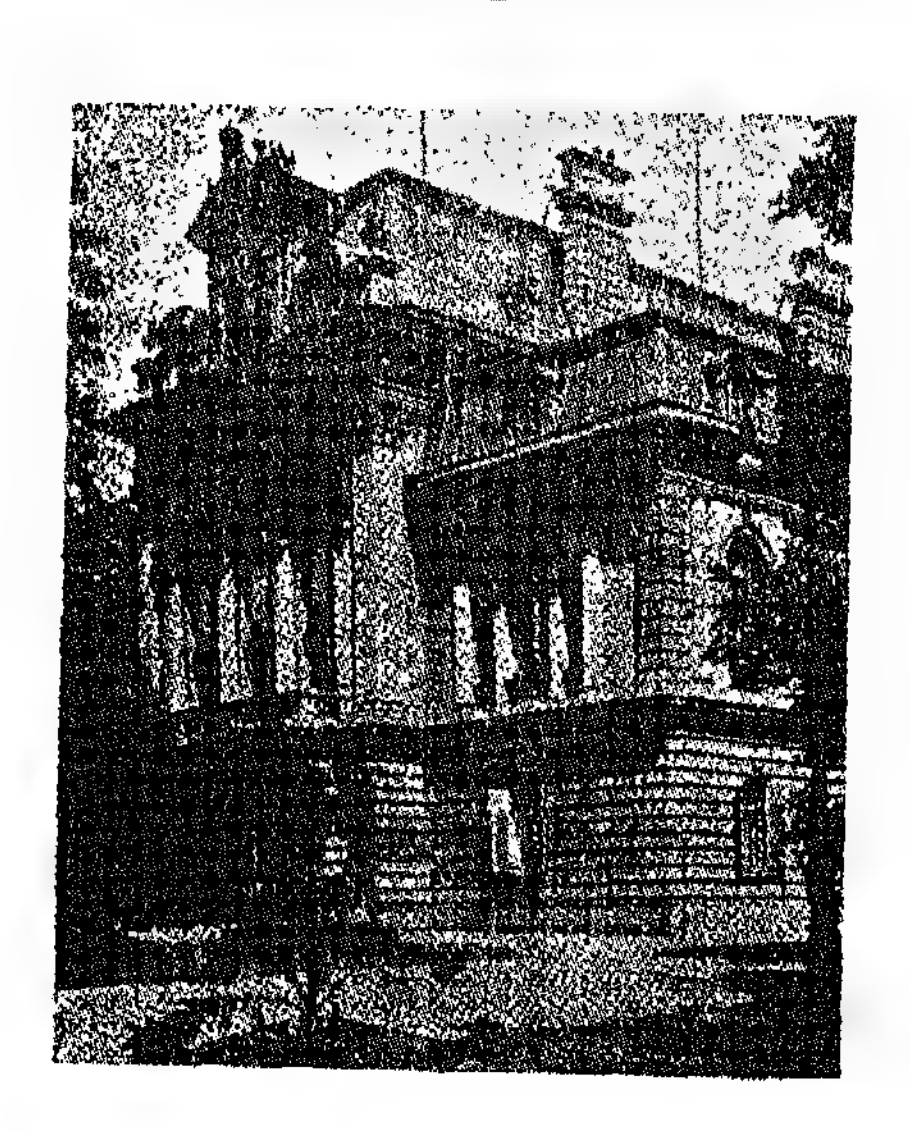
• • •

وكانت الضحية اسطنبول إذ لم يهجر اسطنبول الكماليون فحسب ، بل هجرها آلاف غيرهم ، هجرها طلاب العلم الذين كانوا ينزحون إلى مدارسها وكلياتها لدراسة أصول اللغة والدين فكان من ذلك أن ولت هذه الشعوب وجهها شطر قبلة غير اسطنبول ، ثم إنها شيدت فى بلادها المدارس والمعاهد التى تستعيض بها عن معاهد اسطنبول .

ولما كانت هذه المدارس التى خلقتها الضرورة لا تفى بأغراضها كما يجب ، حولت هذه الشعوب وجوهها إلى مراكز أخرى للثقافة الاسلامية ، فوجدت على ضفاف النيل وفى القاهرة المعزية هذه الضالة واذا «بالأزهر» الأمل المنشود . ولم تتوان هذه الشعوب منذ لمست هذه الحقيقة عن ارسال بعوث من طلابها إلى الأزهر

للتزود بالثقافة العربية الاسلامية على وجهها الأكمل .

كان حديثنا عن مصر أينما هبطت فى البلقان ، هو فى الحقيقة حديثنا عن الأزهر وعن الدراسة فى الازهر وعن شيوخ الازهر وعن البعوث إلى الازهر وعن الـكتب الازهرية . وكان السحر الذى يحيط باسم مصر فى عيون هذه الشعوب منبعه هـذه الثقة العميقة القوية الجامحة بالازهر الشريف . وكانت كل رغبة استمع اليها هى الرجاء فى أن تفتح مصر ذراعيها لمئات من طلاب العلم على ضفاف الدانوب ليتلقفهم الجامع الازهر على رحب وسعة !



البرلمان البلغارى بصوفيا

ولقد لقيت إبان تطوافي بين ربوع البلقان أولئك الشبان الذين تلقوا علومهم في الازهر وقد عادوا إلى أوطانهم يحملون رسالة الازهر الخالدة ويحملون أعمق الذكريات عن مصر وعن أهل مصر ، لقيتهم فخورين بمعهدهم ودراستهم ، ورأيت الذين حولهم يفسحون لهم الطريق إلى الامامة في شئون الدين . إن هؤلاء الطلاب الغرباء الذين يحتويهم صحن الازهر هم سفراؤنا الروحيون فيما وراء البحار وجنود مجهولون يحملون علم مصر مرفرفا على الرءوس !

الجماعات الاسلامية

في بلغاريا بضع مئات من « الجماعات الاسلامية » قيل انها تبلغ ألف جماعة عدا . وهذه الجماعات هي التي تهيمن على شئون المسلمين الاجتماعية والثقافية والدينية ؛ فتشرف على المدارس ، وتعين المعلمين ، وتصدر الصحف وتعين المؤسسات الاسلامية ، وتنفق على خدمة المساجد ومن اليهم . وتنفق هذه الجماعات من ريع الاوقاف الاسلامية ومما تجمعه من اشتراكات دورية .

والمدارس الاسلامية هي مدارس تركية ، تشرف عليها وزارة المعارف البلغارية وتمدها بالمعلمين من البلغار لتدريس اللغة

البلغارية التي يتعلم بها تلاميذ هذه المدارس مادتي الجغرافيا والتاريخ البلغاري .

ولكل مدينة أو نحوها في بلغاريا مفتي ، تعينه وزاره الخارجية والمذاهب البلغارية وعدد رجال الافتاء يبلغ الثلاثين . ويشرف على هؤلاء مفتي أكبر في صوفيا . ويتخرج رجال الافتاء في مدرسة النواب في شومنو وهي مقسمة إلى طبقات ثلاث ، ابتدائية وثانوية وعاليه وجملة سنيها اثنتي عشرة سنة ، وكان رجال الافتاء فيما سبق يدرسون في مدرسة القضاة في اسطنبول . ومن مدرسة شمنو العالية ترسل بلغاريا وفودها إلى الأزهر .

ويبلغ عدد المدارس الابتدائية الاسلامية في بلغاريا سبعمئة وخمسون مدرسة ، ويبلغ عدد المدارس الثانوية خمس عشرة . هذا عدا مدرسة شمنو العليا .

وما زالت بلغاريا إلى اليوم تضم مئات من المساجد التي بني أكثرها في العصر التركي وقيل إن عدد هذه المساجد نحو ثلاثة آلاف مسجد .

وتعد هذه المساجد من الآثار المعمارية الفاخرة ، ولعلها التراث الفريد الذي تركه الاستعمار التركي بين ربوع هذه البلاد . وأجمل هذه

المساجد الجامعة جامع المرادية فى « فلبا » وجامع المرادية فى يانبول ثم جامع باظوبانت فى قيدين وجامع شريف باشا فى شمنو و يقال إن هذا الأخير أجملها هندسة . ثم مسجدا صوفيا اللذان سبقت الاشارة اليهما .

وفى بلغاريا صحافة تركية يانعة . ففى شمنو تصدر جريدة الحوادث وفى فلبا « احسكسوس » أو القول المكشوف وفى صوفيا جريدة «مدنيت» ثم جريدة «دوريو» أوالصراط المستقيم ، وهذه الأخيرة ترعاها السفارة التركية وهى لسان الحركة الكمالية فى بلغاريا ، فهى لذلك تصدر مكتوبة بحروف لاتينية .

و « مدنيت » جريدة أسبوعية تصدرها الجماعة الاسلامية فى صوفيا فى أربع صفحات صغيرة باللغة التركية ، وتعنى بنشر الاخبار الاسلامية فى بلغاريا وفى البلاد الاسلامية الأخرى عدا بعض البحوث الدينية والفقهية ، وقد صدرت بهذه الكلمة « أول رسول مجتبى هم رحمة للعالمين . بنده مدفوندر ده يو افلاكه فخر ايلر زمين» وأوجزت رسالتها بكلمة أخرى « دين اسلام مدافعلرى جمعيتى ناشر أفكارى اولوب شيمديلك هفته ده بر دفعه چيقار دينى ، علمى واجتماعى غزته در » .

وعلمت من صاحب «مدنيت» أن أجزاء القرآن تنشرها مطبعة هذه الجريدة كما تنشر الكتب التركية الاسلامية . وقد أهدى إلى عددا تصدرته صورة لجلالة الملك فاروق بمناسبة قرانه الميمون فكان خير تحية لى .

بلد الورد

بلغاريا بلد الورد . وأحواض الورد فى بلغاريا كحقول الأذرة فى المجر تبلغ الآلاف من الأفدنة ويعمل فيها الآلاف من الفلاحين يكدحون بين أحواضها لااستمتاعا ببهجة الزهر ولكن سعيا وراء لقمة الخبز .

وليست حدائق الورد فى الريفيرا ولامروجها فى ديفون بالتى تقاس إلى جانب هذه الحقول الواسعة التى تمتد حتى مدى البصر فى وديان بلغاريا وعلى سهولها .

وقد غطيت هذه الوديان والسهول ببساط أحمر وأبيض من الورد يفوح أريجه فى الهواء ، وأنى لزائر هذه الحقول أن ينسى هذا المنظر العجيب أو شذى تلك الملايين من الورود المتفتحة .

فزراعة الورد فى بلغاريا تجارة رابحة تبلغ الملايين من الليفات ولكن بلغاريا لاتبيع وردها نضرا كما تبيعه الريفيرا فترسله باقات



كندرائية صوفيا

أنيقة بالطائرات الى الشمال والجنوب . ولكن هذا الورد البلغارى يستقطره أصحابه و يستخرجون منه زيت الورد ، فمحصول فدان واسع يستحيل عند اعداده للبيع إلى زجاجة تحتقرها العين ؛ فالأوقية من قطر الورد هى خلاصة آلاف من الورود البيضاء والحمراء البديعة أو نحوا من ثلثمائة رطل .

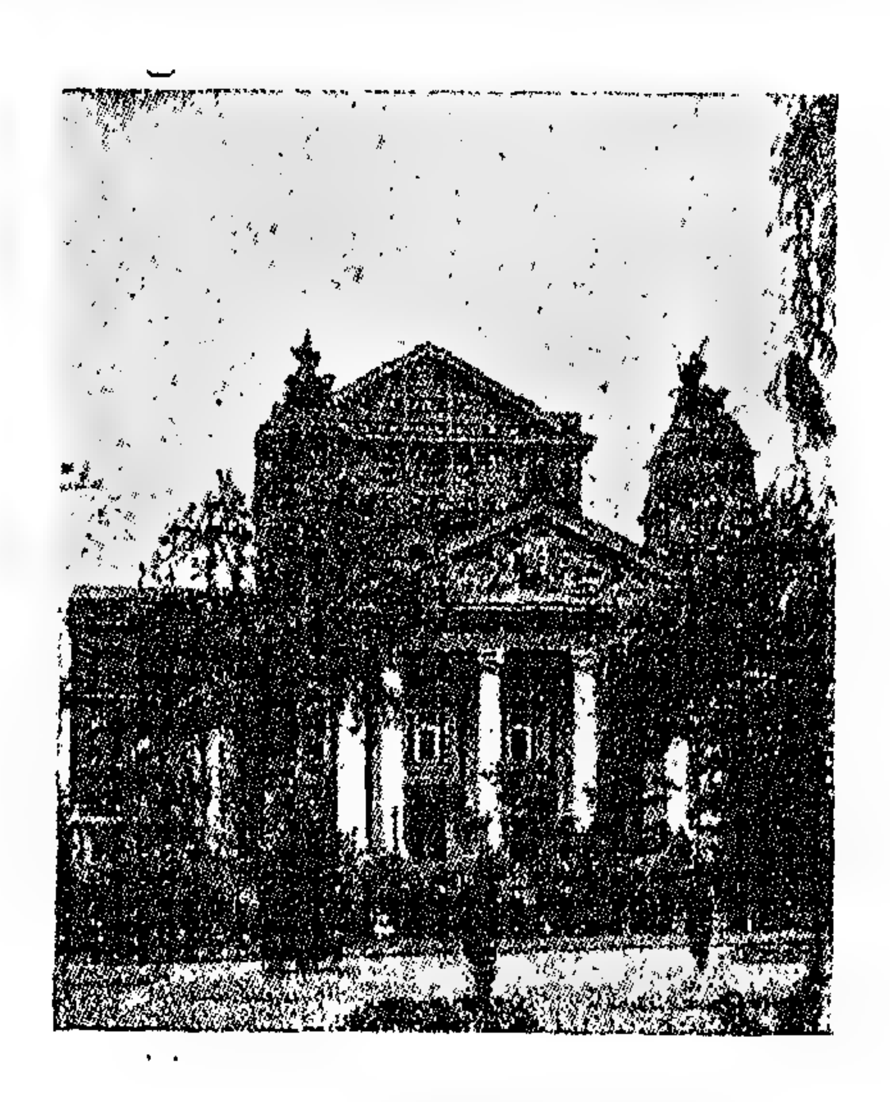
وفى الاسابيع الأربعة التى تفصل ما بين مايو يونيو تتفتح اكمام هذه الملايين من الزهور و يبدأ موسم حصادها . ففى كل صباح خلال هذه الأسابيع تخرج الفتيات تجمع أزهار الورد فى سلال كبيرة قبل أن تستكمل ازدهارها ، فيجمعن من الفدان الواحد مئة رطل فى كل صباح أو أربع أوقيات من قطر الورد . وان نقطة واحدة من هذا الزيت الكثيف لتملأ الحجرة بشذى لا يضيع بل قد يرتفع أثره إلى دوار يصيب الرأس . والزائر فى بلغاريا يشاهد فى أبهاء الفنادق الكبيرة وفى المتاجر تلك الاسطوانات الخشبية المنقوشة نقشا شرقيا وقد احتوت على زجاجات صغيرة من قطر الورد ، هى بلا شك أجمل تذكار لرحلة فى هذه البلاد

السفر من صوفيا

ثم انى تركت صوفيا إلى بلاد الصرب بالقطار إلى نيش ، وكان

على أن أحصل على تصريح بمغادرة هـذه البلاد وبتصريح آخر للدخول فى يوغوسلافيا .

ولما أرسلت جواز السفر مع خادم الفندق الى القنصل الصربى فى صوفيا ألزمه بدفع خمسة وثلاثين دينارا صربيا مع أننى كنت فى بلغراد قبل هذا التاريخ بأسبوع واحد ، ومع أنه قد دون على جواز سفرى فى السفارة اليوغسلافية ما يفيد بتيسير تجوالى فى بلادها بيد أننى ذهبت إلى دار القنصلية وهى لا تبعد كثيرا من الفندق محتجا على ذلك . ومع أننى أبرزت بطاقتى الصحفية فلم يرد الموظف



دار الاوبرا البلغارية

إلا تأكيدا فى الرفض بل وأنذرنى إذا أمعنت فى الشكوى بمنعى من السفر إلى يوغوسلافيا إطلاقا . وإزاء ذلك لم أر إلا أن أجدد شكواى فى المفوضية اليوغوسلافية .

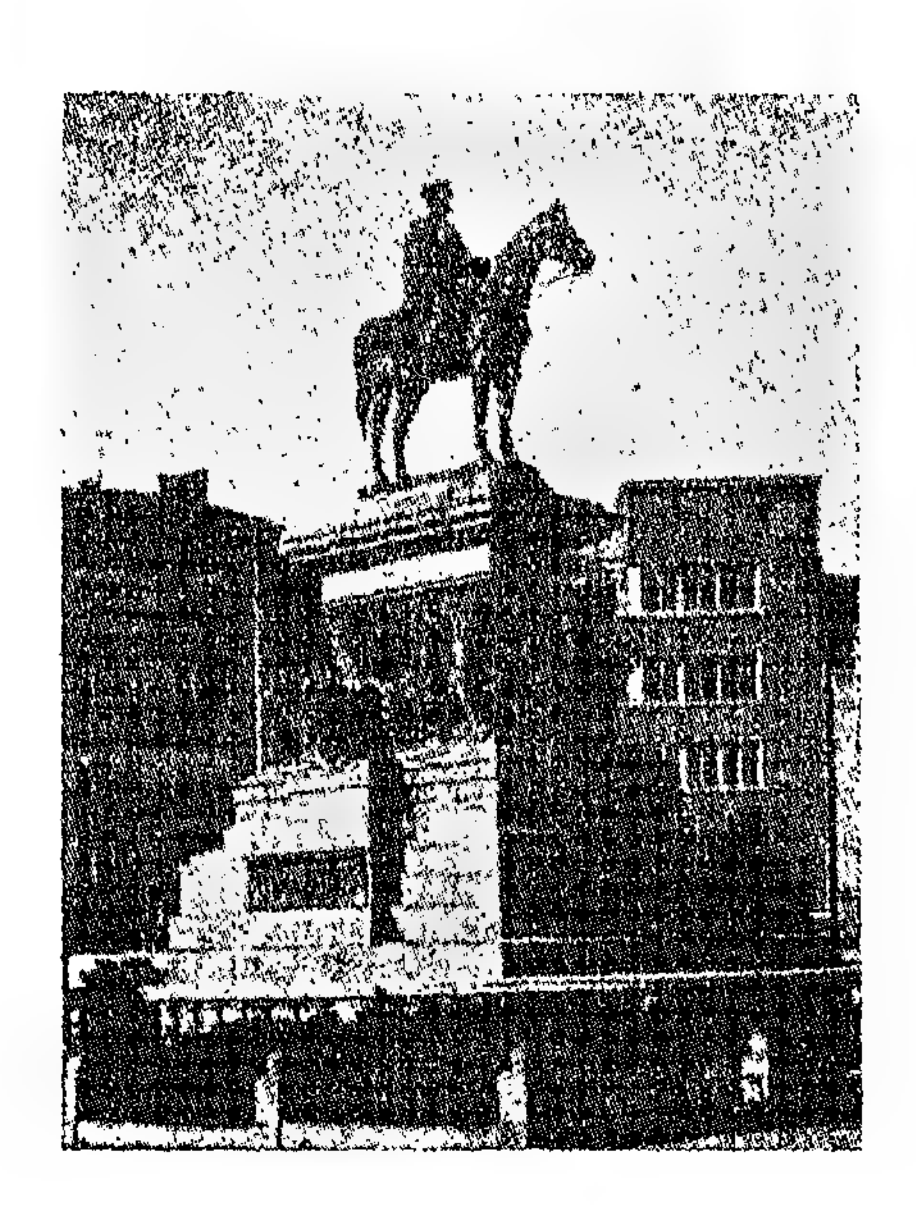
وللتمثيل الأجنبى فى صوفيا حى تتجاور فيه هذه السفارات والمفوضيات ، وهناك قابلت الملحق الصحفى الصربى ووضحت له موقف ذلك الموظف فأخذ برأيى واعتذر بالنيابة عن المفوضية ودلل على سوء تصرف ذلك الرجل — وهذا بيت القصيد — بانه ليس صربيا صميما بل هو دخيل من أصل روسى أو نحوه ، يمثل عنصر الأقلية فى يوغوسلافيا وهو كغيره من الأجانب المتوطنين لا تعنيهم كرامة بلادهم ولا رعاية ضيوفها ولا العمل على الدعاية لها . فيوغوسلافيا كغيرها من بلاد البلقان تشكو من مرض الأقليات ومن العناصر الغريبة التى تعيش دخيلة على شعوب أخرى لا تجمعها بهم الا الرابطة السياسية البحتة .

ثم أننى أعددت نفسى لرحلة طويلة فرجعت إلى أرتداء سراويلى القصيرة ،

حتى إذا بديت فى هذا الزى فى بهو الفندق تحولت الى الأنظار ودار الهمس والتساؤل ولكن التجارب قد علمتني بان السفر فى

البلقان لايكون الا على هذا النحو . ثم ودعت رجال الفندق بعد أن تزودت بخطابات لاصدقاء لهم فى مصر ووعد للعودة إلى صوفيا فى الصيف القادم ..

وكان قطار الساعة الثامنة مساء من صوفيا إلى نيش غاصا بركابه ، وهو قطار مختلط يجوب أطراف البلقان وتمتد رحلته إلى وسط أوربا ، وكان نصيبى فى مركبة تركية نقش على نوافذها هلال أحمر وكان إلى جانبى يهودى بلغارى ذو شعر احمر فى طريقه إلى



تمثال القيصر المنقذ

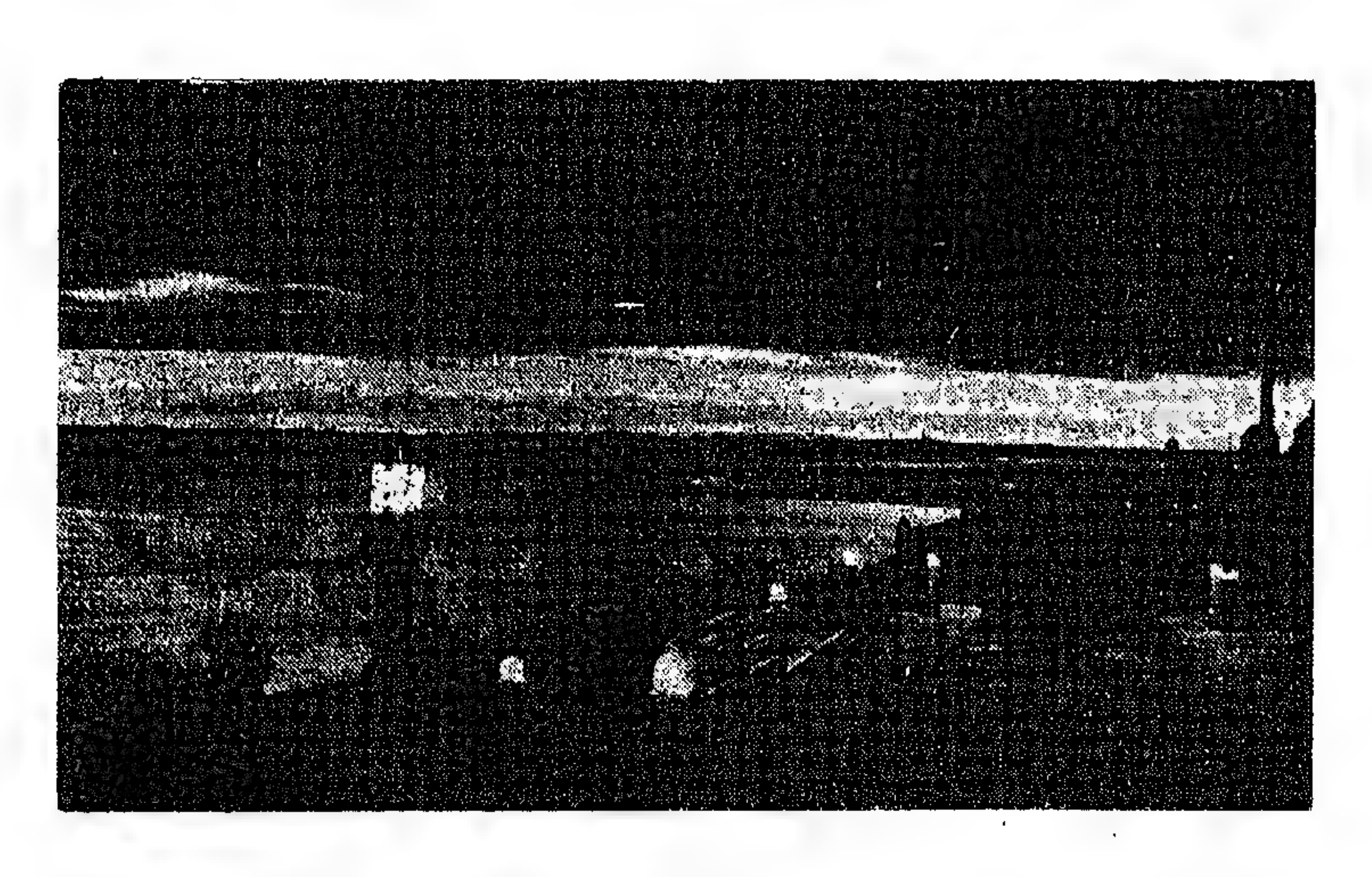
باريس ، وما أن جلس حتى بدأ يجمع ويطرح فى حساباته ويوزع ما معه من سجائر بين جيوبه وبين حقائبه العديدة ، حتى إذا اشرفنا على الحدود الصربية بعد ساعة عند قرية دراجومان جاء رجال الحدود من البلغار يسألون عما نحمله من مال وراء الحدود البلغارية ، ثم جاء رجال الصرب يسألون عما نحمله من مال إلى بلادهم وقد قضينا بين هؤلاء وهؤلاء ساعة .

وفى نحو الساعة العاشرة خلفنا آخر تذكار من بلغاريا .

على الدانوب

فى

يوغسلافيا



الليل على الدانوب عند بلغراد

ألقينا المراسى عند بلغراد فى المساء . ومنذ شهر مضى عرفت بلغراد المرة الأولى ، عرفتها كذلك فى المساء وخلفتها عند ما انتصف الليل ، وكانت إذ ذاك تفيض حياة وحركة ، وكانت شوارعها شعلة من الأنوار ، وكانت مقاهيها ومطاعمها خاصة بزوارها كاونت نغمات الموسيقى ترتفع من كل قهوة ومطعم . كانت بلغراد إذ ذاك تحتفل بسوق دولية تقام فيها كل عام على ما أظن .

وهكذا كانت ذكرياتى حافلة عن بلغراد ، وكانت نفسى متعطشة إلى الإستمتاع بلون من ألوان الحياة الليلية الصاخبة فى صميم البلقان لا تعرفه إلا فى هذا الجانب من أوربا ؛ ولكننى وجدت بلغراد كأنها فى مأتم مغمورة فى ظلام الليل ساكنة صامتة كأنها مدينة مهجورة ، أو كأنها كانت فى عرس وانفض هذا

العرس، فلم تعد ترى وجها باسماً حتى أنى أحسست بانقباض وحسرة .

ولم يسألنا أحد عما نحمل من متاع على غير عادة فى بلاد البلقان حيث يعيش الناس فى شك وريبة من كل غريب ، وحيث تعيش كل دولة فى حذر وحيطة من جارتها ، وحيث تعيش كل حكومة من حكوماتها فى خطر من الدسائس والثورات . لم نسأل إلا عما نحمل من مال ، وما دوّن ذلك فى جواز السفر حتى فتح لنا الطريق إلى المدينة .

وكان رفيقى تلك الليلة رجل نمسوى من موظفى السكة الحديدية استولى على تذكرة مجانية إلى بلغراد فجاءها زائرا لا رغبة فى زيارة عاصمة الصرب بل قتلا للوقت ما دامت هذه لا تكلفه إلا نفقات مبيته — إذ أنه يحمل زاده فوق ظهره من فينا .

كان صاحبنا من الرفاق الموافقين فى مثل هذه الرحلة ، لأنه لم يكن يبحث عن شىء ولا يقصد مكانا معينا ولم يكن يعنيه إلا أنه يتحاشى الاسراف فى نفقاته ، ولو كلفه ذلك الرجوع إلى فينا فى ساعته ، وكان يتشكك فى كل إنسان ويسىء الظن بمن يتقدم لمساعدته أو نصيحته ، حتى أنه رفض أن يستبدل شلناته النمسوية على ظهر المركب فاضطر بعد ذلك أن يبتاع الشلن الواحد بسبعة دنانير بدلا من ثمانية وأخذها مترددا ساخطا .

وكان على أن أتحلل من حقائبى فبحثت عن مخزن للودائع فلم أجد ، ثم دلنى جندى على دكان للتبغ جرى المسافرون على إيدا حقائبهم فيه ، فتمنعت فى أول الأمر بيد أننى لم أجد بداً من المجازفة بترك حقائبى المفتوحة فى رقابة صبى وطفلة صغيرة، ولم أجد فى ذلك المكان من الودائع إلا لفافة عتيقة وعلبة من الورق وصندوقا من الخشب مما لا يشجع غريب مثلى على ترك حقائبه ومتاعه بينها .

تركنا الميناء النهرى إلى المدينة سيرا على الأقدام . وأبى هذا النمسوى إلا أن يحمل حقائبه ولفائفه على ظهره كما يفعل الرحالة فى بلد مجهول ، فكان منظره داعيا للدهشة وتوجيه الأنظار الينا . وكان الطريق النهرى مظلماً عابسا لا يرتفع فيه صوت ولا يلمع ضوء اللهم إلا مركبة الترام التى كانت تقطع سكونه مخترقة إياه كالسهم المنطلق فترة بعد فترة . ولم تكن به إلا بعض الحانات والمطاعم الحقيرة التى يتوردها الملاحون والحمالون ومن اليهم ممن يسكنون هذا الجانب من بلغراد . وليس للغريب أن يجازف بحياته فيندفع وراء بعض هذه الأبواب المقفلة التى ترتفع منها أصوات الموسيقى والغناء النسوى وصياح السكارى ، فان بلغراد التى أخذت كغيرها بأساليب الحضارة الحديثة مازالت تحتفظ بطابعها الصربى القديم فى هذه الأحياء من بلغراد .

حتى إذا ما وصلنا إلى القنطرة المعلقة وهى التى تربط جانبى النهر ارتقينا درجا إلى الشارع الأوسط الذى يقود إلى قلب العاصمة وكان هذا الشارع كذلك مظلما ساكنا وكانت مقاهيه التى عرفتها من قبل أيام المعرض صاخبة ، كانت هذه المقاهى مغلقة أو خالية من زوارها،وأخذنا نسير صعدا حتى انتهى بنا المسير إلى شارع الملك ميلان الذى يعتبر الطريق الرئيسى فى بلغراد ، والذى يجد فيه الزائر كل ما تضمه بلغراد من أبنية عامة أو متاجر جديرة بالزيارة.

وكان صاحبى يفكر فى أمر واحد كيف يقضى ليلته فى بلغراد؟ ولامر ما كان يتحاشى البحث عن فندق إذ تسلطت عليه فكرة غلو أجور الفنادق فى بلغراد وتشدد فى أن يبحث عن خان أو « بيت للضيافة » على نحو ما يعرف فى الريف الالمانى ، وهى تلك الخانات والمطاعم التى أعد أصحابها إلى جوارها بضع غرفات للنوم بأثمان زهيدة معقولة . ومع أنى أكدت لصاحبى بأن هذا النظام لا تعرفه بلاد البلقان بيد أن حرصه لم يزده الا تعنتا ، ورحنا نبحث فى كل مكان بدون جدوى وراح من جانبه يسأل كل من يصادفه عن هذه الخانات ، فاذا أعجم على الواحد منهم فهم ما أراد وقف يشرح ويدلل ويفسر حقيقة هذه الخانات ، وكان يتصيد من تبدو ملامحه على أنه

ألمانى أو يحسن التكلم بالالمانية فسأل كل شرطى مررنا به ثم سأل ضابطين ثم عجوزا ثم سائقا للترام ثم تاجرين حتى أحسست بالملل والزهد فى رفقة هذا الثرثار .

العلامة X

وليس غريبا أن نفشل فى هذا البحث عن الخانات، ولكن العجيب هو أننى لم أجد فندقا واحدا بعد نحو من ساعة جلت فيها بين شوارع المدينة الكبيرة وحول أبنية محطة بلغراد . وهل من المعقول أن عاصمة مثل بلغراد تخلو من الفنادق الصغيرة أو الكبيرة أو هل جرى العرف فى هذه البلاد أن تتجمع فنادق المدينة فى حى واحد من أحيائها دون غيره ؟ كان هذا هو السر الذى حاولت كشف النقاب عنه .

ليست علامة X إسما لأشعة مجهولة أو سرا علميا غامضا ، اللهم الاسم الفنادق فى هذه المدينة، إذ أننى علمت أن كلمة فندق أو أوتيل تكتب باللغة الصربية مبتدئة بحرف X فما أن عرفنا كلمة السر هذه حتى ألفينا عشرات من الفنادق مررنا بها مرة إثر مرة دون أن نعرف خبيئتها .

وأجور الفنادق كما اكتشفنا فاحشة باهظة فى بلغراد ، فكان تقدير صديقى لم يتجاوز الحقيقة ، وسبب ذلك أن الحكومة تتقاضى

نحوا من ثلث أجور الفنادق . ولم يرد سائق الترام الذى قابلناه إلا أن يرافقنا فى مهمة البحث فطفقنا و إياه نطوف بين درجات الفنادق حتى وصلنا أدناها وصديقى مازال ممعنا فى رفضه وتركنا الفنادق وأخذنا نبحث عن غرفات للايجار فى بعض البيوت الخاصة فى حى من أحياء المدينة المظلمة التى لا يفكر غريب مثلنا فى أن يطرق بابها وهو آمن على حياته ومتاعه . فلم أجد مناصا من إثارة الخوف والفزع فى نفس هذا الرجل وأن أذكره بقصص وحكايات عن أساليب السرقة وما إليها مما اشتهر عن الصرب فأثر كلامى فيه ، فتركنا البحث عن الفنادق إلى البحث عن المطاعم وقادنا هذا الدليل المتطوع « سائق الترام » إلى مطعم شعبى فى شارع مظلم من المدينـة ، وهو كغيره من المطاعم الصربية يعرض ألوان الطعام فى نافذة المطعم فى آنية من النحاس على نحو ما نعرفه ، وقد انتشرت فى المكان رائحة النبيذ الذى تباع الزجاجة منه بدينارين ونصف أو نحو من قرش واحد وأصابت صديقى كذلك نوبة من التردد ولم ير إلا أن يتذوق كل لون من ألوان الطعام قبل أن يصدر حكمه عليها حتى إذا انتهى قرر الاكتفاء بزجاجة من النبيذ وشىء من الخبز القفار .



بعد الغذاء . . . في بلغراد

ومن الأطعمة الوطنية فى بلاد الصرب لون من الألوان يصنع من الجبنة والبيض واللبن والقشده له طعم مقبول يستريح اليه الغريب .

صبيحة المغنية

ثم أننا نسينا حكاية الفنادق إذ رأينا أن نقضى جانبا من الليل فى بعض مقاهى بلغراد الراقصة . واذا هبط الليل على بلغراد وأقفلت متاجرها وأقفرت الشوارع لم تعد ترى بابا مضيئا إلا أبواب عشرات الحانات التى تستحيل كل ليلة إلى مراقص عابثة لاتقفل أبوابها حتى الصباح . وإذا سرت فى شوارع المدينة النائمة لاتلتقط أذنك إلا أصوات الموسيقى الوترية والأغانى وصياح السكارى منبعثة من هذه الحانات والمقاهى والمطاعم الوطنية التى لا يزورها عادة الا الوطنيون .

وأمام بعض هذه الحانات وقف دليلنا يصف لنا صورة عن الحياة الليلية الوطنية فى بلغراد ، وكان صديقى النمسوى مافتىء مترددا بين الدخول والاحجام، وكنت من ناحيتى راغباً فى اكتشاف سر الحياة الليلية فى عاصمة الصرب التى سمعت عنها الكثير ولكن شيئا واحدا ولد فى نفسى الخوف والقلق ! سببه حكاية قرأتها تلك

الليلة قبل أن أهبط بلغراد فى كتـاب لسائح انجليزى زار هذه المدينة منذ سنتين .

حدث أن التقى هذا السائح الانجليزى — كما التقيت — برجل تطوع لأن يكون دليله فى التفرج على بلغراد فى الليل، فصحبه إلى مرقص من المراقص الوطنية شبيه بهذا المرقص الذى نفكر فى قضاء الليل بين جوانبه . وكان المرقص غاصا برواده من الوطنيين يحتسون النبيذ ويستمعون إلى غناء فتاتين كانتا إذا انتهيتا من الغناء تدوران بين الجالسين بجفنه تجمعان فيها بعض النقود وكان الجالس لايخرج ديناره حتى يقبل الفتاة و يعبث بها ماشاء له مزاجه. وما كادت تقترب الفتاة من ذلك الانجليزى وقد هم باخراج قطعة من النقود حتى رآها تتراجع مفزوعة وتصرخ فجأة وما كاد يلتفت حتى وجد الجالس إلى جانبه ممددا على الأرض وقد دق فى صدره خنجر كبير! وسرعان ما ساد الهرج فى المكان وتقاذف الجالسون بالمقاعد والكؤوس ، ولم ينقذه من هذا الجحيم الا نافذة مفتوحة وثب منها وفر هاربا .

كانت صورة هذه الحكاية ماثلة أمامى، وأنا أشجع نفسى على الدخول إلى هذا المرقص وقد رأيت من خلال نوافذه أن رواده وأن فتياته من هذه الطبقة .

انتحى ثلاثتنا ركناً فى هـذا المقهى الليلى ، و بعد أن رفع صاحبنا النمسوى لفائفه عن عاتقه وأخفاها تحت المائدة طلبت شايا وطلبا نبيذاً . وغرقنا فى حديث مصطنع حتى لاتصوب إلينا العيون والأنظار فلما انصرف كل جالس إلى شرابه ومغازلاته انصرفنا كذلك إلى النظر و إلى الاستماع للموسيقى والغناء .

ولقد كان دليلنـا سائق الترام بقامته المديدة و بذلته ذات الأزرار النحاسية اللامعة كرجال التشريفات ، وكانت صحبته مما تولد الشك والريب فى عيون الناظرين فاذا كان هذا الرجل دليلا أرستقراطيا فمن نكون نحن ؟ و إذا كان سائقا متبطلا فما نحن إلا بعض رفاقه من طغام الأجانب ممن تجمعه و إياهم الشوارع والطرقات وهذه الملاجىء الليلية ، لقد كانت صحبته على كل حال غير مرغوب فيها ، ولـكننى صبرت حتى أجمع منه طرفا من أخبار بلغراد.

وأكبر ظنى أن هذا الرجل كان عاملا متعطلا ممن تجد أمثاله فى كل مدينة كبيرة يزرع الواحد منهم ميادينها و يقف على أبواب محطاتها فى انتظار الوجوه الغريبة ليكون فى ركابها و يتصيد فتاتها . وتسمع من مثل الرجل طرائف الأكاذيب وغرائب الأخبار عن بلده وعظمائه ثم عن نفسه ، وأذكر أنه حدثنى بأنه أخ لأستاذ

فى الجامعة أو لعظيم من العظماء فى بلاده ، ولكنه الفقير لعفته ، والمغمور لسمو نفسه !

***

وكانت الفرقة العازفة من الغجر ، بوجوه سمراء وعيون سوداء وشعر متموج لامع لاتكاد تعرف من أناقتهم أنهم أبناء تلك الطوائف الزرية التى تصادف مواكبها بين قرى البلقان ، ولكن هؤلاء « السيجان » قد جعلوا من موسيقاهم فنا يدر عليهم المال ويفتح لهم أبواب المقاهى والمراقص فى كثير من العواصم فى هذا الجانب من أوربا ، وقد حدثنى صاحبى بأن الواحد من هؤلاء الغجر ينقد أربعين ديناراً فى الليلة الواحدة ولكنه يجمع أضعاف ذلك مما ينفحه إياهم النظارة من « بقشيش » .

وكانت تغنى سيدة متقدمة فى العمر تحمل دفا فى يدها وترجع ألحاناً تركية أو شبيهة بها وكان اسم هذه المغنية « صبيحة » فكانت إذا ما انتهى دورها حملت طبقاً ودارت حول الموائد تجمع « البقشيش » وكان على كل جالس أن يدفع شيئا مرة بعد مرة . فلما جاءت إلى حيث كنا بدت تجاعيد وجهها كما بدت زينتها الرخيصة ، فما كان من صاحبنا إلا أن سألها الرأى فى أن تزور مصر

فأجابت بعد أن جمعت بقشيشها بأنها راضية سعيدة فى صربها !

وكان الرفيق النمسوى مافتىء موسوسا مفكراً فى أمر نومه وقد زادت وسوسته بعد أن رأى غلو الفنادق فى بلغراد فأدى به التفكير إلى أن يقترح قضاء الليلة فى هـذا المقهى حتى الفجر وهذا لا يكلفنا إلا أن نطلب شايا مرة أخرى أو نحوه ليقوينا على مهمة السهر حتى إذا كانت الساعة الثالثة فى الصباح حين يقفل هـذا المقهى أبوابه فما علينـا إلا أن نذهب إلى المحطة ونضطجع على مقاعدها حتى الصباح ، وقد صادفت هذه الفكرة فى نفسى هوى ! وهل أروع من أن أقضى ليلة واحدة طائعا مختاراً مع صديق مجهول حتى الصباح ما بين مرقص للفجر وأرصفة محطة كبلغراد ؟ ولـكن الشاى والقهوة لم يجديا نفعا وسرعان ما أخذت الموسيقى تهز الأعصاب وأخذت روعة هذه الفكرة فى الذبول بل بدت لعينى فكرة نقيضة وهى أن أبحث عن فندق أنيق أنفض فيه عن وعثاء سفرى فاعتذرت لصاحبى عن نقض ميثاقه وخرجت متمنيا له نوما هنيئا ورجوت له مقعداً كاملا خاليا على رصيف المحطة ؛ وعند ماخرجت فى الساعة الواحـدة أبحث عن غرفة خالية ومررت بمحطة بلغراد وجدتها موصدة الأبواب لا تسمع من وراء جدرانها صفيرا ولا تلمح من



الدانوب من قلعة بلغراد

نوافذها نوراً ولا على رصيفها نائما أو جالسا . فكررت الدعاء على أن يوفق صاحبي فى التماس طريق وراء هذه الأبواب المقفلة !

بلغراد العاصمة

بلغراد أو بيوغراد كما يدعوها أهلها معناها القلعـة البيضاء وليس من اسم أدل على مسماه من هذا الاسم فهو يوحى إلى السامع بصور لتاريخ حربى طويل ، كانت إبّانه هذه المدينة تدافع وتجاهد عن كيانها .

والبلقان بماضيه المضطرب وتاريخه الثورى لا يكاد يعرض

صورة قاتمة عن هذا الماضى أكثر مما يحيط باسم بيوغراد . فهنا عند منعطف الدانوب وقد أخذ مجراه فى الميـل إلى الشرق وفى نقطة يتفرع منها أحد نهيراته الـكبيرة — نهير الساف — وعلى نشذ من الأرض إذا ارتقاه الزائر أشرف على منظر بهيج للدانوب وقد امتد سهولا و بركا فى كل اتجاه ، فى هذا المـكان وعلى هـذه الربوة بنيت بيوغراد ، بنيت قلعـة على هذا التل تحرس الدانوب وتحمى المدينة، فتطلع إليها أهل الجنوب رغبة فى اكتساح أهل الشمال من مجر وجرمان وغيرهم ، وجـذبت إليها أهل الشمال بعد أن أصبحت مفتاح بلادهم والطريق اليها .

• • •

ومنذ نيف وستين سـنة هرع أمير الصرب إلى ملوك أوربا يطلب الرعاية والحماية ، وتحت تأثير هؤلاء الملوك رضى السلطان بأن يتخلى عن « القلعة البيضاء » وأن يترك بلغراد لأهلها من الصرب . إذ أنه فى صيف سبق هذا التاريخ رأى القائد التركى أن النزاع قد اشتد بين صرب بلغراد و بين ترك بلغراد فلم ير بدا لحسم هذا النزاع من أن يصوب مدافعه من قلعته على بلغراد الصربية فينقضها من أساسها . ومنذ هذا التاريخ أصبحت بلغراد عاصمة الصرب

حكمها أمير ثم حكمها ملك ثم إذا كان اليوم الأول من شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ أصبحت بلغراد عاصمة لمملكة كبيرة هى يوغوسلافيا أى مملكة السلاف الجنوبيين .

وإذا هبطت بلغراد فى الليل تستقبلك أنوار قلعتها العالية من بعيد كما تستقبلك بودا عند ما تقترب من بودابست . ومن هذه القلعة أخذت بلغراد اسمها فعرفتها شعوب الكلت ثم الرومان واليونان ثم استولى عليها المجر والبلغار كما عرفها الصرب الفينة بعد الفينة ، حتى قيل إن قلعة فى أوربا لم تعرف من المواقع الحربية والمذابح ما عرفت بلغراد . وفى منتصف القرن الخامس عشر وصلت جيوش الأتراك الغازية إلى أسوار بلغراد إلا أنها ارتدت عنها ، ولكن السلطان سليمان عرف الطريق إليها ، ومنذ هذا التاريخ أصبحت بلغراد تركية وتوطد ملكهم فيها ، حتى أنهم دعوها «مدينة الجهاد» وكأن بلغراد وهى حارسة الطريق إلى قلب أوربا قد أصبحت فى نظرهم مدينة يحلو فى سبيلها الجهاد ، فكانوا إذا ارتدوا عنها سنة عادوا إليها فى السنة التالية وهكذا دواليك !

بعد منتصف الليل

كان البحث عن فندق فى الساعة الواحدة من الصباح ليس أمراً ميسورا ، لا لأن فنادق بلغراد ترتج أبوابها فى هذه الساعة ، بل إنها على النقيض من ذلك لا يصمت لها ضجيج ولا تهجع فيها عين نائم . ففنادق بلغراد « المتوسطة » أشبه شىء بخانات القرون الوسطى حيث يجتمع المسافرون فى المقاهى والمشارب والمطاعم ينعمون بالموسيقى والشراب حتى إذا ثقلت جفونهم آووا الى غرفات لا يعرفون حقيقتها إلا اذا أصبح الصباح وتفتقت أذهانهم المتبلدة !

وهكذا إذا طرقت فندقا من هذه الفنادق فى بلغراد ليس لك إلا تشق طريقك فى مشرب أو حانة راقصة وفى هذا الضجيج والزحام تبحث عن صاحب الفندق ليقودك كارهاً إلى باب خلفى يصل ما بين الحانة الراقصة والفندق النائم .

و إن كانت فنادق بلغراد ليست كلها مما تجمع المراقص الصاخبة وتحيا حياة الخانات القديمة ، بيد أن كثيراً من فنادق العاصمة الصربية ترعى هذه التقاليد التى ولا شك تصادف هوى

فى نفوس أهل البلاد من الفلاحين الذين يفدون الى العاصمة للاستمتاع بمباهج «المدينة» وهى لاتعدو الشراب والمرأة الراقصة ! وهؤلاء كنزلاء الخانات الأقدمين لا يهجعون إلا اذا أقفلت هذه المراقص أبوابها فى الفجر الأول ، وهم بطبيعتهم لا يزعجهم نغم عازف ولا صخب صاخب .

وجرت العادة بين هؤلاء الصرب أن يناموا جماعة فى غرفة واحدة ، ففى فنادق الدرجة الثالثة والدرجة الوسطى غرف واسعة يجتمع فيها أكثر من نزيل واحد ففى أية ساعة من ساعات الليل يفتح الخادم الغرفة على النائمين ليعرض سريرا فارغا على نازل جديد ، ولا يجد هؤلاء النائمون غضاضة فى إزعاجهم على هذا النحو ، أو لوجود غريب بينهم قد لا يتفق معهم فى الذوق أو العادات .

والسرقة ليست مجهولة فى هذه البلاد ، وإن كان البعض يرى أنها أكثر انتشاراً لا سيما السرقة بطريقة النشل الحديثة ، وليس لى أن أجزم برأى فى ذلك ولم أفتقد ابان وجودى فى هذه المدينة إلا ربطة عنق لاشك أن خادم الفندق قد أعجب بلونها الأحمر فاصطفاها لنفسه ، وكان يعد بذلته الممتازة ليوم الأحد وكانت تنقصه مثل هذه

الربطة ، وإن كان هذا يدل على ما يتمتع به الصبى من ذوق فى الاختيار .

ولو أن نظام الغرف المفروشة معروف فى بلغراد فهو يدل على وجود نسبة عالية من الألمان فى هذه المدينة ، كما أن للغرباء من الوطنيين بيوت يؤجر فيها السرير بعشر دنانير أو نحو ذلك ، وهى بيوت خشبية قذرة لا يأوى اليها الا العمال أو أضرابهم وقد قادتنى اليها يوما سيدة مجرية اجتمعت بها فى مطعم رخيص .

وكانت غرفتى التى تصيدتهـا فى تلك الليلة فى فندق لا بأس به فى وسط المدينة وكانت هى الغرفة الخاليـة بين عدد كبير من الفنادق التى طفت بها ليلتئذ . ولعل صاحب الفندق كان يسكن هذه الغرفة لأنه قبل اعدادها أخرج منها عجلة كان يخزنها فيها ، ولم يكن تزويدها بالمفارش البيضاء قد زادها تجميلا لأنها كانت جرداء إلا من سرير من الحديد الاسود وقمطر كبير مترب فرشت أدراجه بصحف باهتة ، وإذا فتحت بابه الواسع لا تأمن سقوطه ، وقد خزنت على سقفه لفائف وصناديق ودفاتر قديمة للحسابات .

كما استخدم من سبقنى فى هذه الغرفة المدفأة الحجرية مخزنا للقمامة وما اليها . والى جانب المدفأة مائدة وضع عليها طست وأبريق

من الخزف والى جانبها زجاجة من زجاجات النبيذ ملئت ماء ، وعندما أعددت نفسى للنوم وضمت المنضدة والمقعد خلف الباب الذى لم يكن يتيسر اغلاقه الا على هذه الصورة .

وكانت خبطات الطبل وصيحات السكارى فى الطابق الأرضى ترن فى أذنى حتى ارتحت اليها فاسلمت نفسى للنوم .

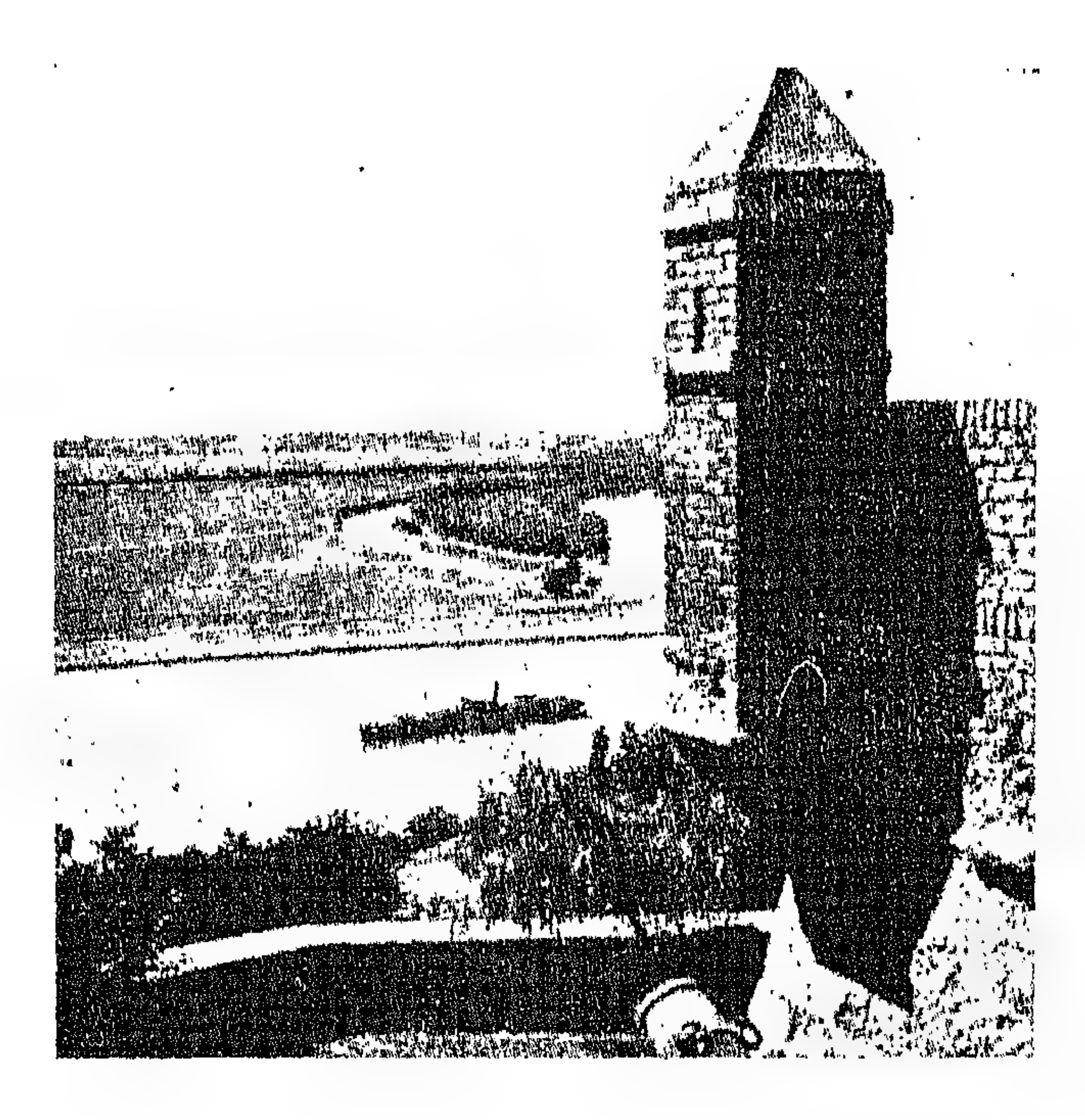
وفى ضحى اليوم الثانى استيقظت فوجدتنى غارقاً فى نثار « التبن » وذلك أن الحشوة التى كنت أنام عليها كان بها ثلمة أخذتُ أنكأها بقدمى طلبا للدفء وأخذ ما فيها من تبن يتناثر حتى غمر شعر رأسى .

قلعة بلغراد

لم تعد بلغراد مدينة تركية كما يحسب الكثير بل إنها أخذت بمظاهر المدنية الغربية بنصيب وافر ، حتى كادت شخصيتها القديمة تفنى فى هذا الثوب الجديد ، و يزداد عجبنا عند ماننذكر أن الحماية التركية لم تتقلص من هذه المدينة التاريخية الا فى أخريات القرن الماضى . واذا استثنينا بعض مميزات الطراز الشرقى كالنوافذ المنقوشة المسيجة والشرفات ، فان أبنية بلغراد لاتختلف كثيرا عما نراه فى كثيرمن بلاد الغرب الصغيرة اللهم تلك الأحياء التى مازالت

تحتفظ بتراثها الصربى القديم أو التى ما زالت تصبغها صبغة تركية .

وفى بلغراد طريق أوسط يمتد ما بين طرفى المدينـة وشارع البرنس ميشيل والملك ميلان وفى هذا الطريق الأوسط يستعرض



قلعة بلغراد

الزائر أكثر الأبنية العامة فى بيوغراد . ففيه القصر الملكى ومسرح بلغراد ودار البريد وجميع متاجر المدينـة الكبيرة والارستقراطية كما تحتل طواره عشرات من المقاهى والمطاعم ، وينتهى هـذا

الطريق حيث حدائق كالمجدان ثم قلعة بلغراد الشهيرة .

لم تعد القلعة التى استعارت بيوغراد منها هذا الاسم بيضاء كما كانت فى عصورها الماضية ، كما أنها قد استحالت من ساحة للقتال والنزاع الى ركن هادىء وديع يتلمس فيه الزائر السلام والأمان.

لقد أصبحت هذه القلعة عشاً للعشاق والمحبين بعد أن كانت مصدر فزع لأهل هذه المدينة مئات من السنين .

تطل قلعة بلغراد على ربوة عالية مشرفة على الساف فى نقطة التقائه بالدانوب . وترتقى الى القلعة بدرجات واطئة ملتوية حنت عليها الأشجار وقد غطت الحشائش الخضراء اليانعة جدران هذه القلعة التاريخية فأكسبتها لوناً بهيجاً يذكر الرائى بكايات اكسفورد أو كمبردج، ثم إنك تلج بوابة خشبية قديمة صفحت بالحديد والمسامير وحفرت عليها مئات من الأسماء والتواريخ لمئات من الزائرين الذين لا يعرفون هذه الجدران إلا كأثر رومانتيكى بديع ؛ و يشاهد الزائر على جدار هذه القلعة فجوة حديثة حفرتها اول قنبلة من قنابل الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ وقد كان نصيب بلغراد من فعل هذه الحرب الاخيرة عظيما حتى ان السبب فى تجديد مبانيها يرجع الى صنع هذه القنابل .

ثم تسير بعد ذلك فى دروب ملتوية ضيقة تقودك الى قمة التل ومن هناك تشرف على مياه الدانوب وقد امتدت تحت قدميك حتى استحالت بركة واسعة خضخاضة تكتنفها الجروف والجزائر الصغيرة والالسنة الممتدة، وقد بدت من هذا المكان قنطرة بلغراد المعلقة وهو لا تغطى الا جانبا صغيرا من مياه الدانوب ؛ وعلى رأس التل عمود من الحجر يتوج قمته تمثال رجل عار يحمل بيمينه نسرا وصقرا وبشماله سيفا مرتكزا على الارض ، وحول هذا العمود مجموعة من المدافع القديمة يرجع اكثرها الى ايام الحرب الاخيرة .

وعلى مقعد خشبى يطل على مياه الدانوب والساف وتحت ظل هذه القلعة التاريخية جلست أفكر فى هذا التاريخ الطويل الذى نسخ بعضه بعضا فى هذا المكان ؛ واخذت افكر فى تلك الايام التى كانت فيها القلاع والابواب المصفحة تتحكم فى مصير البلاد والمدنيات ، وفى هذا المكان عرفت ذلك السر الذى جعل من بلغراد مدينة للجهاد فى نظر الترك الغزاة، ومدينة مقدسة عند الصرب والمجر ؛ فمن استولى على هذه الربوة فقد استولى على سهول المجر وعلى الطريق إلى فينا .

المتحف الحربى

بدأت العشية تهبط على جرينزى بونار هذه كما يعرفها الاتراك، وبدت حدائقها أكثر فتنة واشد روعة، جذبت اليها مواكب الشباب من فتيان وفتيات يتحدثون عن الشمس الغاربة وعن الزهور المتفتحة وعن مياه الدنواب السارية تحت اقدامه؛ وبدأت تضىء نوافذ أبنية متناثرة فى الحديقة أشبه شىء « بفيلات » صيفية انيقة حسبتها فى بادىء الأمر « كازينو » او مطعما من المطاعم الصيفية الراقية، ولكننى ما اقتربت من البناء حتى الفيت جنديا شاكى السلاح يحرس بابه، كما رأيت رأس جندى آخر يطل من نافذة دونت عليها جملة باللغة الصربية فما شككت فى ان هذا البناء متحف حربى، ومن أجدر من بلغراد بتسجيل حوادث التاريخ الفاجعة قديمها وحديثها ؟

لم يكن هذا البناء الانيق مما يرسم صورة عن فواجع الحروب وشدتها لا سيما وأن القلعة التى يجب ان تكون مصدرا من مصادر الروعة والجلال التاريخى، قد اصبحت بفضل تنسيقها اثرا رومانتيكيا كما رأينا .

وأول ما يستقبل الزائر فى هذا المتحف صورة كبيرة للزعيم

التركى مصطفى كمال هدية منه الى جيرانه الصرب ، فبذلك يقلب الزائر صحيفة جديدة من تاريخ هذا البلد الذى استحالت علاقته باسطمبول من عداء مرير الى ود قائم ، وحول هذا الصورة اعلام تركية قديمة هى تراث للحروب الطويلة بين الصرب والترك ، والى جانب ذلك اعلام امريكية وانجليزية هى اعلام الفرق الانجليزية والامريكية من المهاجرين من ابناء البلاد الذين استجابوا داعى الوطن فى الحرب الأخيرة .

ومن ثم دلفت إلى القاعة الوسطى ومن هذه إلى غرفتين متجاورتين كانت معروضاتهما تذكارات عن ملك الصرب الذى اغتيل فى مرسيليا منذ بضع سنين وهو فى ضيافة الحكومة الفرنسية كما قتل إلى جواره وزير الخارجية الفرنسية الذى كان فى استقباله.

كان لاغتيار الملك اسكندر اليوغسلافى فضل فى تنظيم هذا المتحف أو لتزويده بمادة طريفة جديرة بالمشاهدة . ففى هذه القاعة ومايتلوها من غرفات معرض عن حياة الملك اسكندر وعن حكاية اغتياله هذه .

ففى خزائن زجاجية متجاورة صفت عشرات من الأوسمة

والنياشين التى كان يحملها هذا الملك ، أهديت اليه من كل ملك وكل حكومة وليس فى مشاهدتها من متعة أكثر ما تستهوى العين مخازن الصياغة فهى لا تبرز سرا مجهولا أو تهيج فى النفس ذكريات خاصة تثيرها زورة إلى برج لندن أو قاعة الجواهر فى قصر فينا .
ومن بين هذه الأوسمة نيشان من أسقف القدس إلى الملك اسكندر ولست أدرى أى مغزى يحمله وسام من رئيس دينى إلى ملك أهو



تمثال النصر أمام المتحف الحربى

ضرب من صكوك الغفران أو شهادة بالتوبة والمغفرة وهذه يمنحها الله من يشاء دون وساطة عبد من العباد !

ولا شك أن الملك اسكندر كان محبوبا من شعبه « الصربى » الذى يقدر مكانته كجندى ، فقد عرضوا من بين هذه التذكارات ما كان يستعمله الملك من كوبات وأقلام ؛ ومن بينها دواة وقلم دون عليها التاسع والعشرين من شهر « كذا » سنة ١٩١٨ فالشهر كما ترى نقش باللغة الصربية مما لاسبيل إلى قراءته ، فهذه العواصم البلقانيـة التى لا يزورها زائر إلا عابر سبيل لا تحس بضرورة إلى توضيح معارضها ومتاحفها بلغة من اللغات الشائعة ، لذلك لم يكن بد من أن أستعين ببعض الحراس الذين عاشوا تحت الحـكم النمسوى فى تفسير حقيقة هذه المعروضات .

وكان جديرا بأن تزين هذه القاعة بصورة للملك فى موقف عسكرى ، بدلا من من هذه الصورة الـكبيرة التى تعرضه بين كلابه يصيد الحمام واليمام .

ثم تنتقل إلى غرفتين متجاورتين مثلت فيها مأساة مرسيليا ، كما سجلت رواية ساراجيفو الدامية فى متحف فينا الحربى .

فها هى سيارة « ديلاج » الـكبيرة التى قتل فيها الملك

وهاهى نظارة الملك ذات السلسلة التى لا تراها حتى تثب إلى مخيلتك صورة ذلك الملك ، والى جانبها مناديل بيضاء تذكرك بمناديل نابليون فى متحف الانفاليد ثم علبة ثقاب سوان الانجليزى مما كان يستعمله. وفى صندوق زجاجى آخر عرضت ملابس الملك الملوثة بالدم كما عرض قميصه الممزق ورافعة سراو يله . والى جانب ذلك مسدسات الجناة ورجال الشرطة :

ثم صعدنا الى الطابق العلوى ، وقد عرضت فيه مجموعة أخرى من هذه التذكارات الحربية وكان أجمل ما فيه نماذج من أعمال الأسرى من الجنود محفورة على الخشب والنحاس من كوبات ومصابيح وتماثيل للقديسين لا تدل على براعة خاصة بل على الجهد الطويل الذى قضاه أصحابها فى صنعها ، كالتحف التى خلفها فنانو القرون الوسطى .

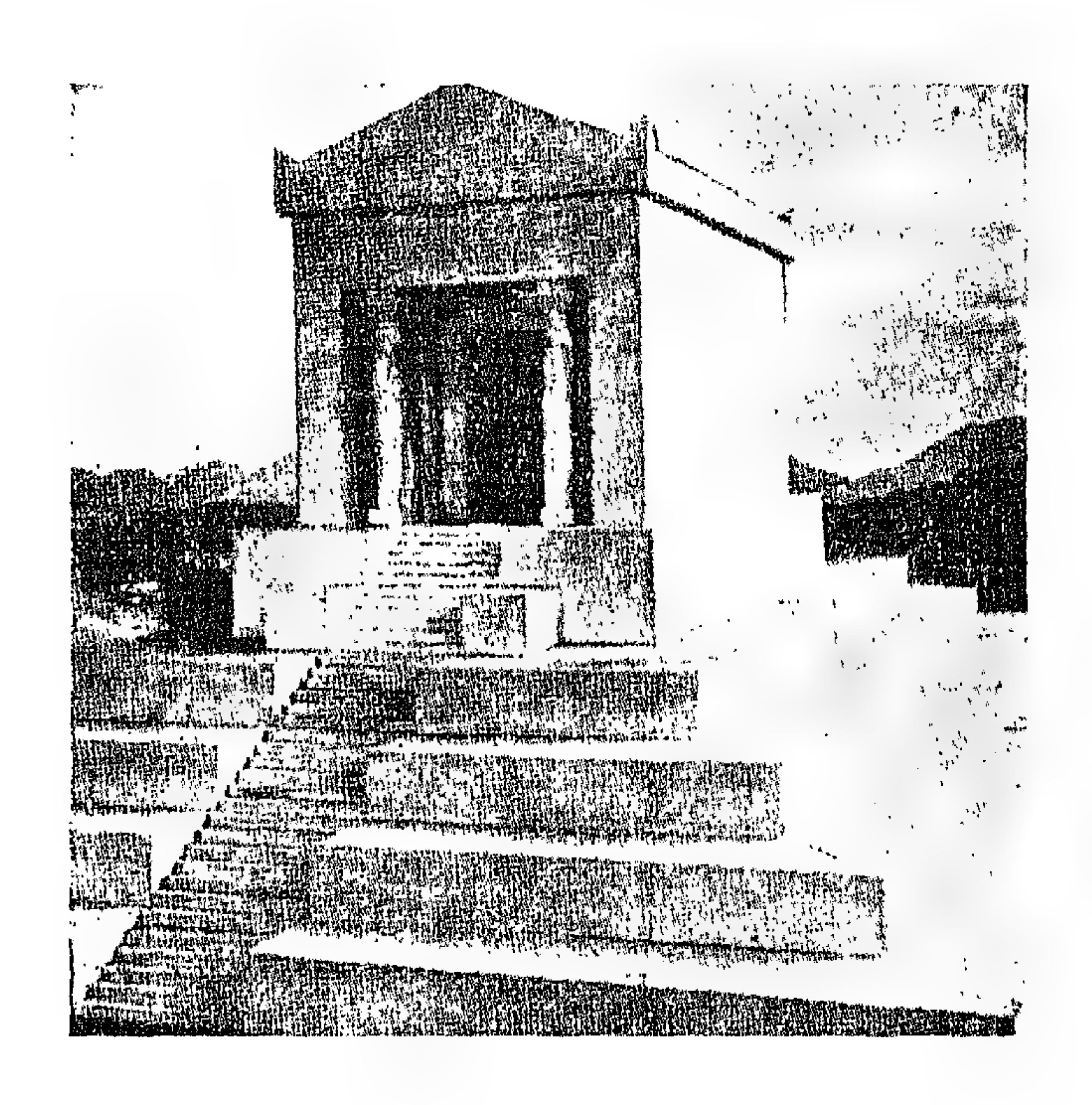
وكانت اضاءة المكان خافتة تجهد العين ولا تشجع على إطالة النظر ، إذ سرعان ماتركت المكان الى بناء مجاور يحوى جانباً آخر من هذا المتحف . وكان فى صحبتى ضابط صربى رأى أن يسير مفتوح الصدر متهدل السراويل يحمل منديلا يجفف به العرق حيناً بعد حين . وكانت زوجته قلقة متبرمة لا تكاد تشرف على غرفة

حتى تحول النظر الى الغرفة المجاورة . وكانت هذه المعروضات خليطا عجيبا من البنادق الحديثة والسيوف القديمة والخناجر التركية وتذكارات يابانية ، والى جانب الغرفة تمثال منقوش من الخشب الملون يمثل جندياً صربيا فى ملابس تاريخية وقد جحظت عيناه وفتلت شواربه كأنه صورة بلدية لأبى زيد الهلالى ، أو تمثال يولد الرعب لا ليسجل حقيقة تاريخية .

لم يكن تاريخ هؤلاء الصرب فاترا أو ضيقاً بل إنه على النقيض من ذلك دنيا من الحروب والأحداث والمؤمرات والاغتيالات فليس اغتيال ذلك الكرواتى للملك اسكندر بالحادث الفريد فى تاريخ صربيا الحديثة ، بل إن قصة الملك اسكندر الأول والملكة دراجا أشد روعة من مأساة مرسيليا، وليس أروع من أن تسمع هذه القصة الدامية من صربى شهد فصولها بعينيه .

قصة الملكة دراجا

« . . . كنت فى ذلك التاريخ (١٠ يونيه سنة ١٩٠٣) جندياً فى الحرس الملكى ، وكان الملك إذ ذاك اسكندر ابرنوفتش ، ولكنه لم يكن محبوباً فى صربيا إذ أن والده الملك ميلان قد اعتزل العرش



قبر الجندى المجهول فى ضاحية افالا

وهو فى سن الثلاثة عشر وما مضت ثلاث سنين حتى وثب الى العرش وطرد وزراءه وألقى القبض عليهم جميعاً .

ولكن زواجه من دراجا ماشين هو الذى أثار نفس كل صربى ضده . كانت دراجا أرملة مهندس ريفى وكانت تعمل إذ ذاك وصيفة للملكة ناتالى أم اسكندر هذا . وبينما كانت ناتالى

تجوس قصور أوربا باحثة عن زوجة لابنهـا كان الملك يعبث مع دراجا وتوثقت بينهما العلاقة حتى أصبحت سيدته ، ولم تمض أعوام معدودات حتى أثار دهش الجميع بعقد زواجه بها وكانت دراجا تكبر الملك باثنتى عشرة سنة .

وسرعان ما استحال كره الشعب لدراجا حقدا لا لأنها أخذت تعزل رجال الدولة وتملأ مقاعد الحكم بأقاربها ، بل لأن كل انسان مهما كان فلاحا أميا يريد أن يرى ملكته ملكة حقيقية ، ولكن دراجا لم تكن الا امرأة وضيعة وقد رأيتها مرة تنكأ أنفها بأصبعها ، بل قيل إنها لم تكن مخلصة للملك نفسه .

ثم جاءت مسألة الوريث ، فدراجا تعرف أن مركزها لا يثبت إلا بولى للعهد وما طافت الاشاعة بين الشعب بأن هـذا الأمل أصبح محققاً لها إذا بمن يكشف فى الدقيقة الأخيرة سرا عجيبا ، فلم تكن دراجا حاملا ولم يكن حول جسمها إلا أربطة ووسائد حتى إذا جاء موعد الوضع كانت قد أعدت مولودا لهذا الغرض . لقد كانت هذه الألعوبة فاجعة فى حياتها ، أثارت عليها مقت الشعب وأثارت على الملك المستهتر جنوده وحرسه فقد كان غاشما لم يتورع من أن يؤخر دفع أجورنا شهورا .

« : . . وعندما جاء الضابط أسر لنا خبر المؤامرة ضد الملك لم يجد معارضة . وذلك أن الكولونيل ماشين شقيق زوج دراجا الأول وأكبر أعدائها سيجبر الملك على التنازل عن العرش وعلى تنصيب « بطرس كارا جورج فتش » مكانه . وقد وعد كل منا بمائة دينار — وكان مبلغا عظيما فى تلك الأيام — وربما أكثر من ذلك فيما بعد . فقبلنا على ان نعمل معه ، وذلك على ألا نفعل شيئا ! ولكننا لم نعرف تفاصيل المؤامرة وان كان كل واحد يعرف أن وراء الأكمة ما وراءها — حتى الملك نفسه !

« وفى الليلة العاشرة من شهر يونيه ، كنت أحرس بوابة القصر الشمالية - وقد هدم مبنى القصر وبنى من جديد — وفى منتصف الليل جاء الضابط وأسر إلى بأن هذه هى الليلة الموعودة ، فاذا جاء الرجال فعلى أن أختفى .

وكان هؤلاء الرجال فرقة كاملة وجمعا من الضباط فسوروا القصر، وجاءت جماعة منهم الى ناحيتى مصوبين المسدسات وقد عرفت من بينهم وجه الكولونيل ماشين . ثم انى أخليت لهم الطريق فأسرعوا إلى باب القصر الداخلى . .

ولكن تدابيرهم لم تكن محكمة إذ أنهم وجدوا باب القصر

مقفلا لسبب من الأسباب ، ولكن سرعان ما أقبل ضابط مهندس بقطعة من الديناميت حطمت الباب ، وهكذا انتشر هذا السر أميالا طويلة من القصر ، ولا شك أن الملك والملكة سمعا هذه الفرقعة وهما فى مخدعهما وعرفا مغزاها .

فأسرع الملك والملكة إلى مخبأ أمين يقود اليه باب سرى تخفيه الزخارف والرسوم ، وما ان دخل ماشين المخدع الملكى حتى وجده فارغا فساد الهرج وأخذ الضباط يندفعون فى أنحاء القصر يبحثون عنهما .

ولولا هفوة طفيفة من دراجا لنجا الملك والملكة ، فلما دخلا المخدع السرى الذى كانت تطل منه نافذة فسيحة على الحديقة ، أبصرت دراجا ضابطا تعرفه من ضباط الحرس فى الحديقة ، وقبل أن تدرك ما هى صانعة نادت عليه ، ولم يُجد تسكيت الملك لها فقد افتضح الأمر وأسرع الضابط إلى ماشين .

« انى لم أر مقتل الملك والملكة ولكننى سمعت طلقات المسدسات وسمعت صراخ دراجا .

« و بينما نحن كذلك فى الحديقة اذا بجسم يقذف به من الشرفة و يستقر الى جانبنا ، واذا به جثمان الملك ، ثم تلت ذلك فترة صمت

واذا بجسم آخر يهوى الى أرض الحديقة و ينثر الدم حوله ، كانت ذلك جثـة دراجا ماشين وقد شوهت جسمها الجميل عشرات الطلقات والجروح .

«ثم ظهر ماشين وأمرنا بحمل الجثتين ولـكن إلى أين ؟ ذهبنا بهما الى مطبخ القصر ، ثم الى قاعة البليارد حيث تركناهما على المائدة

« وفى اليوم الثانى دفناهما فى مقبرة متواضعة فى كنيسة سان مارك ، وهكذا طويت مابين يوم وليلة قصة الملـكة دراجا ماشين ابنة الشعب التى أبى أن يعترف بها الشعب » .

وكانت أوربا على شفا حرب ضروس من نتائج هذه المغامرة ، لولا أن بطرس هذا قد أثبت أنه ملك عظيم و بطل من أبطال الصرب جاء وعاش فى وقت كانت بلاده فى حاجة إلى مثله .

روسكى سار

لعل « روسكى سار » أفخر مجالس بلغراد ، فهى أشبه بمقهى بلغاريا فى صوفيا مجمع الطبقة الراقية ومجلس الشباب الأنيق ، ومع أن الاسم الذى يحمله هذا المقهى روسى أومتأثر بالحماية الروسية على صربيا القديمة إذ معناه (قيصر روسيا) بيد أن روح هذا المقهى

« ڤينية » فمقاعده العريضة من الجلد أو المخمل و زخارفه البديعة تشبه بعض مقاهى الرنج فى فينا .

ولكن أنَّى لبلغراد أن تنقل روح فينا نفسها ، فالناس غير الناس وألمسوى غير الصربى ، كان الكثير من المقاعد فى تلك الساعة خاليا فما تخيرت ركننا هادئا مريحاً حتى جاء الخادم يعتذر و يطلب أن انتقل لبعض المقاعد الفردية المنثورة فى وسط المكان ، فسألته عما اذا كان هذا الركن محجوزا ، واذا كان فكيف لا توضع بطاقة على المائدة كما جرى بذلك العرف! ولكنه اكتفى بالاعتذار والرجاء .

ثم جاء رئيس الخدم يؤمن على كلام الخادم حتى كدت أثير ثورة فى المكان لولا أنه فسر عمله بأن تقاليد الصرب لا تجوز جلوس غريب إلى غريب كما هو شائع فى برلين و باريس بل وفى بوخارست وصوفيا ، لذلك كان على الجالس الوحيد أن يتخير كرسياً منفرداً و يترك هذه المقاعد العريضة الوثيرة الى الجماعات !

وكان الخدم يجيدون الألمانية ، وكانت المجلات الألمانية تقدم للزائرين محفوظة فى أغلفة جلدية نقشت عليها أسماءها ولكنها كانت مشوهة بعشرات الأختام وأطراف صحائفها ممزقة من كثرة العبث بها . كما رأيت التيمس والديلى ميل أما الصحف الفرنسية

فلم أجد لها أثراً ، ولم أسمع أحدا يتكلم هذه اللغة كما فى صوفيا.

ويتورد روسكى سار — كما علمت — كبار رجال الحكومة فلا تخلو ليلة من وجود عدد من أعضاء البرلمان اليوغسلافى وبعض الوزراء والوزراء السابقين ومن اليهم من رجال السياسة . ويقبل على هذا المقهى صغار الضباط بأزيائهم الزاهية وسيوفهم المدلاة وقفازاتهم البيضاء .



بلغراد الجديدة

وجلست إلى جانبنا فتاتان كأمثل ما تكون الفتاة الحديثة أناقة ، وسرعان ماتبادل الجالسون الابتسامة، وما استعدت الفتاتان للخروج حتى كان الضابط ورفيقه يجمعان القفازات والسيوف استعدادا للخروج أو على الأصح لارتياد مقهى آخر !

ولما كنا فى موعد الشاى كانت الخادمة تدور بعربة الحلوى والفطائر والفاكهة ، وكان الكرواسا والبريوش يقدم ساخنا كما يقدم فى مقاهى الشانزلازيه فى مثل هذه الساعة ، ولم يتقدم الليل طويلا حتى بدأ الطابق السفلى من هذا المقهى ينبض حياة وأخذت وفود الداخلين تتحول إلى كاباريه روسكى سار براقصاته من بودابست وفينا وباريس !

وعندما اخترقت شارع البرنس ميشيل فى طريقى إلى الفندق وكانت متاجره مقفلة فى تلك الساعة رأيت منظرا عجيبا ، كان مئات من العابرين يقفلون جانبيه وكان السائرون يتقدمون فى اتجاه واحد خطوة خطوة ، ولما كنت مسرعا فقد عجزت عن اختراق هذا السياج وفضلت التريث لأعرف حقيقة الأمر وأكبر ظنى أن الناس كانت تسير فى موكب صامت ، ذكرنى بتلك الصفوف أمام مسارح لندن وهى تتقدم شبرا شبرا إلى نافذة المسرح ، ثم تيقنت

من أن موكبا سوف يخترق هذا الشارع ، إذ عندما حاولت عبور الشارع إلى الطوار الآخر أسرع إلى الجندى وردنى الى مكانى ، وكان الشارع خالياً من كل سائر ومرت دقائق طويلة حتى شقته دراجة واحدة راح صاحبها ينفخ فى نفير مزعج كأنه يشق طريقا مزدحماً !

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، فهذا الشارع أصبح متنزه أهل بلغراد يجتمعون فيه اذا أقبل الليل، ثم ان رجال الحفظ رأوا أن يعلموا الناس أساليب السير فى شوارع العواصم الكبيرة فراحوا يعلمون السائرين المشى فى اتجاه واحد ويمنعون السائرين من العبور من طوار الى طوار خوفا من فواجع السيارات ، التى لم أر واحدة منها تسير متباطئة أو مندفعة ، ولكن هكذا جرى الناس فى العواصم الكبيرة وهكذا يجب أن تكون بلغراد .

سرك !

من مميزات السير على غير هدى فى البلاد الأجنبية أن الغريب يكتشف صوراً من حياة هذا البلد من العسير أن يقع عليها اذا نظم أيامه بين الفنادق والمقاهى و بين المتاحف والمعارض . وبعض

هذه الصور من المتعة بحيث تصبح أعمق أثرا في النفس من كثير من مظاهر المدينة التي تفرض رؤيتها على الأجنبي فرضا .

وكلما أذكر بلغراد اليوم ، أذكر ذلك السرك الذي اكتشفته ذات مساء وأن أقطع الوقت جائلا بين شوارع المدينة دون غاية أو نهاية .

إلى جانب بعض الشوارع الكبيرة الجديدة في بلغراد رأيت حركة غير عادية مصدرها ثلمة توصل إلى فضاء كبير كومت فيه مواد البناء ، وشاهدت جموع الأطفال والصبية تنفذ من هذه الثلمة وقد ارتفع من ورائها ضجيج وأصوات ، ورأيت أن أتبعهم ، فاذا بذلك الفسيح قد ازحمت فيه جموع من الرجال والنساء والأطفال وقد ارتفعت على جوانبه الخيام والوجاقات وأراجيح الأطفال .

وجلس على الجانبين باعة السلع الرخيصة وأدوات الزينة الريفية ، من زجاجات العطر وأمشاط وعقود الخرز والشيلان الملونة والعصي وصور القديسين الزاهية والمرايا والشرائط الحريرية والأزرار والخيط ، وكان على المتفرج أن يجلس القرفصاء ليستعرض هذه البضاعة . وجلس إلى جانب هؤلاء بائعات الطعام والشراب ، فهاهي مواقد الفحم وقد صفت عليها أكواز الأزرة وها هي رائحة

الزلابية تفوح من أوعيـة الزيت الملتهب وقد وضع إلى جانبها عسل السكر تغمسها فيه البائعة قبل أن تقدمه اليك فى قصاصات من ورق الصحف .

وكان إلى يسار الساحة خيمة كبيرة وقفت على بابها فرقة عازفة من الغجر يتصدرهم زنجى قصير يدق على طبـل معلق إلى عنقه وقد تجمع حوله الصبيان والأطفال ووقف رجل فى بذلة سوداء قديمة يستقبل الداخلين الذين ازدحموا على باب الخيمة ، فتقدمت فى زحامهم وأخرجت قطعة ذات عشرة دنانير إذ كنت أجهل أمر الدخول ، وكان الرجل ومساعدوه يحفظون ما يجمعون فى جيوبهم ثم يسمحون المتفرج بالدخول ، ولمـا تسلم الرجل القطعة تلـكأت قليلا وانا معرض عنه بعض الاعراض كأننى أنتظر بقية يردها إلى ، وصح يقينى لأن الرجل أخرج قبضة من النقود وراح يعد تسعة دنانير أرجعها إلى ، أى أن أجر الدخول كان دون المليمين فـكان أقل ما دفعت من أجر للفرجة على مسرح من المسارح !

وصفت حول جوانب الخيمة مقاعد وعوارض من الخشب جلس عليها النظارة وهم كأشد ما يكون المتفرجون بهجة وغبطة وقد توجهوا بعيونهم إلى ستار فى طرف الخيمة تبدو من ورائه بعض الفتيات

فكانوا يتهامسون ويقهقهون وهم أشد ما يكونون شوقا وأنتظارا لمفاجأة سارة ، وكان الأطفال يثبون على مقاعدهم من الفرح وكان الرجال يفركون أكفهم غبطة وانشراحا حتى غمرتنى هذه النشوة وأصبحت كهؤلاء الجالسين شديد الشوق والرغبة ، التى لم تجس فى نفسى عند ما كنت منذ شهر مضى فى دار الأوبرا فى فينا أشاهد فاوست بملابس السهرة ، أو فى مسرح الفلهرمونى ، ولم أحس بهذه النشوة عند ما شاهدت سرك بنتام فى ملعب أولمبيا فى لندن ولا سرك بوش فى فينا ولا هيجنبك فى برلين ، فلم تسكن نظارة هذه المسارح والملاعب تفيض حماسة ونشوة كهؤلاء الصرب تحت هذه الخيمة .

وبطل دق الطبل وجاءت الفرقة العازفة يتقدمهم ذلك الزنجى وقد اقتلع المصباح الذى كان يضىء مدخل الخيمة وثبته فى وسط المكان فكان ذلك إيذانا ببدء اللعب .

ثم جاء رجل عار قيد نفسه بالسلاسل ونام على ظهره وجهد فى تحطيم هذه السلاسل فأبت أن تصيخ لارادته فراح يتلوى على أرض المكان كالأفعى وقد تصبب منه العرق فاستحال حماس النظارة الى مجانة وهزء به .

ثم ازيح الستار الداخلى وجاء رجل يدحرج برميلا حتى توسط المكان فعقدت العيون والالسن لهفة ثم فتح البرميل وظهرت منه فتاة فى ملابس ملونة رخيصة فدوى المكان تصفيقا واعجابا .

ثم جاء راقص وراقصة وراحوا يرقصون رقصا صربيا وروسيا حتى ملأوا المكان ترابا بأقدامهم و بلغ حماس الجالسين شدته وهم يترنحون إعجابا و يصفقون ابتهاجا .

وجاء المهرج بملابســه المزخرفة ووجهه المصبوغ فأثار ثائرة الأطفال ، وهكذا توالت الألعاب وكان كل لاعب يقابل بخير ما يرغب فيه ممثل من تشجيع ومضت ساعة و بضع ساعة ونحن فى نشوة وفرح شامل وخرج النظارة وهم راغبون فى المزيد ، وخرج ذلك الزنجى يحمل طبله والمصباح الكهربائى ، تتبعه الفرقة العازفة الى باب الخيمة لتستقبل وفود الداخلين وقد رفع كل منهم مليمين فى يده !

عرفان يونس

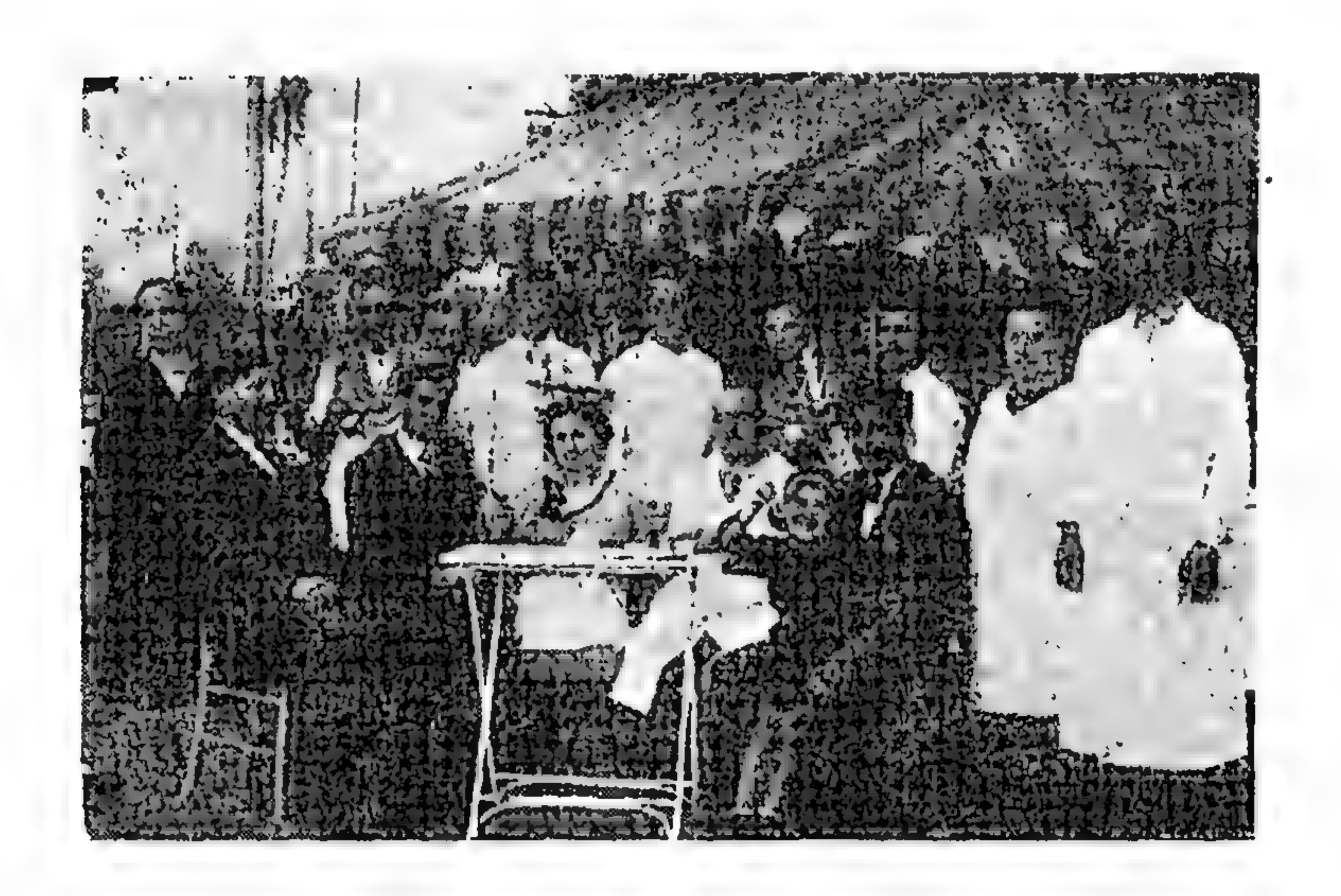
مضت أيام وأنا فى بلغراد قبل أن ابدأ دراستى عن الحياة الاسلامية فى يوغسلافيا ، وكان لا بد أن أوثق الصلة ببعض أفراد

الجالية الاسلامية ليمهد لى السبيل لتحقيق هذه الغاية . لقد قابلت شابا اسمه جعفر أو نحو ذلك فى قهوة الفندق الذى أنزل به بيد أن المجال لم يكن مؤاتيا لمثل هذا الكلام ولم يكن صاحبنا مستعدا لمثل هذه الدراسة التى لم يكن فيها متعة من المتع .

كان الى جانب مسرح بلغراد وفى شارع الملك ميلان « قهوة شرقية » ولا يميز هذه القهوة عن غيرها إلا الزخارف العربية ومعدات القهوة المصنوعة من النحاس الأصفر اللامع على نحو ما نعرفه فى مقاهينا الوطنية والتى تخلق جوا خاصا فى مثل هذا المكان ؛ فعقدت العزم على أن أبدأ هذه الدراسة بعقد الصحبة بأصحاب هذه القهوة . كانت الساعة العاشرة أو نحوها وقد أخذت الفتاة الجالسة الى صندوق الحساب تستعد لترك مقعدها بعد ان قدمت الى القهوة فى فناجيل واسعة مزخرفة ، ثم ترك المكان الجالس الوحيد بعد ان قضى وقتا فى السمر والحديث مع صاحبى القهوة باللغة التركية .

ولا أعرف كيف فرضت وجودى على هذين الرجلين فقد قضيت وقتا طويلا فى لفت أنظارهما إلىّ وما تمكنت من ذلك حتى أقبلا على وكانا من حسن الحظ يعرفان اللغة الألمانية . كان

الأخ الأكبر عرفان يونس من أولئك الأتراك ذوى الشوارب السوداء المفتولة والقامة المرتفعة يمثل رجال الحرب فى تركيا القديمة .



جماعة من المسلمين فى بلغراد

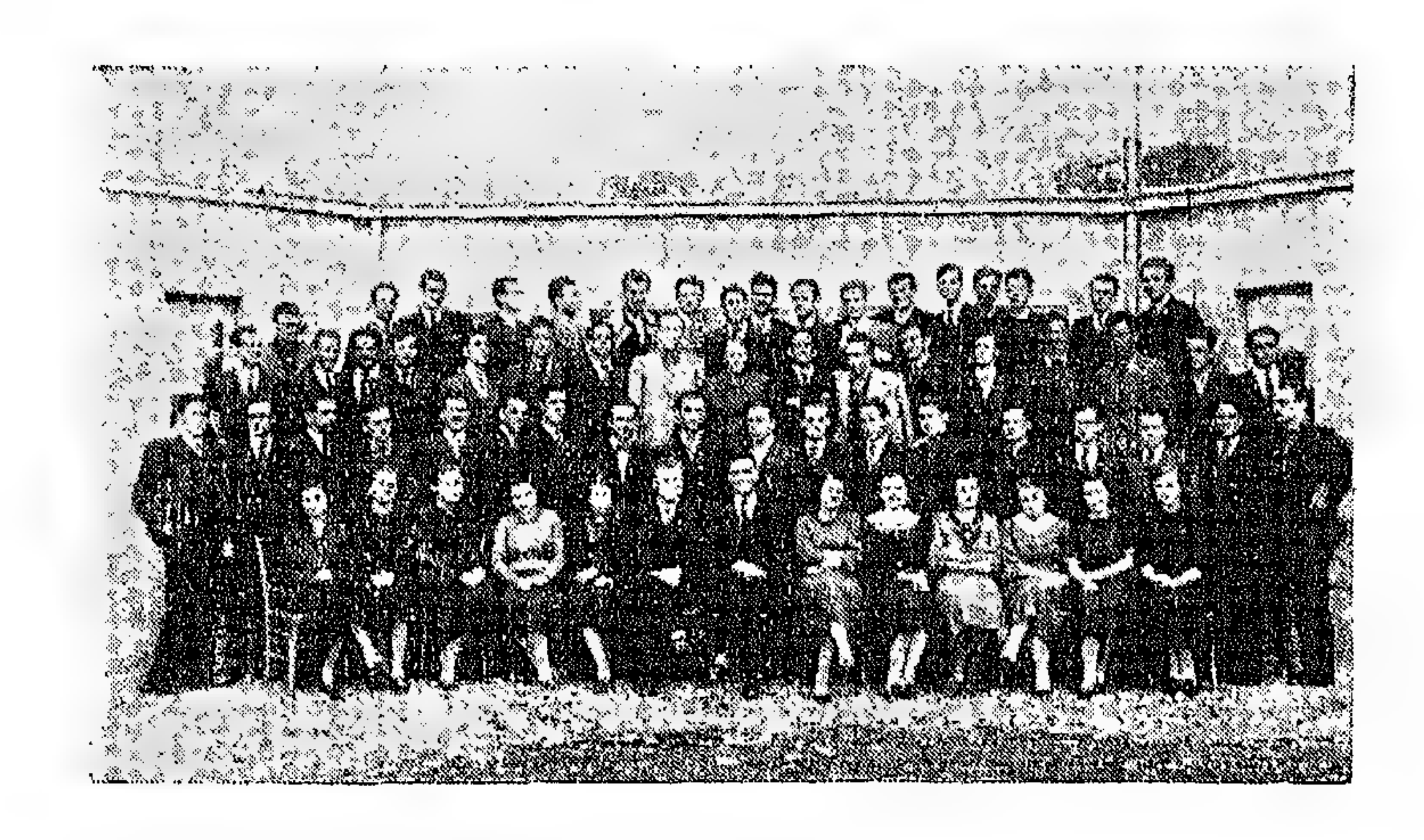
وكان على النقيض من شقيقه يفيض دعابة حتى إذا تبادلنا الحديث أقبل على كصديق قديم وراح يروى الحكاية بعد الحكاية والقصة بعد القصة ، بل إنه عمد الى أوراقه فأخرج صورة له ولعائلته وأهداها الى تذكارا لهذه المعرفة ، ثم أنه صحبنى إلى الطابق العلوى من قهوته وهو مكتب ايطالى للدعاية وعرفنى بأصحابه ، وراح يفيض

على من أخباره وأخبار الطائفة الاسلامية فى يوغسلافيا — وان كنت حريصاً فى قبولها على أنها حقائق ثابتة ، ولكنها كانت طريفة على كل حال ، ومهدت لى السبيل الى ما كنت أبحث عنه .

المعهد الاسلامى فى بلغراد

خرجت من قهوة عرفان يونس مزودا بطائفة من الأسماء والعناوين ، وكان المعهد الاسلامى أو « دوم خيريت عثمان جيكج » أهم ما لفت نظرى من بين هذه الأسماء .

كان عثمان جيكج هذا شاعرا مسلما من شعراء البوسنة كتب باللغة الصربية وذاع أدبه قبل الحرب . ذهبت الى حيث هذه المدرسة فى ولماتسكا أوليزا وكنت واثقا من أن هذا البناء كغيره من بيوت الأوقاف يتميز بقدمه وانهيار أركانه وكانت أبنية ذلك الحى جميعها قديمة متواضعة . ولكن العجيب انى رأيت من بعيد بناء حديثا بدت جدرانه أكثر ارتفاعا وضخامة وأناقة بين أبنية هذا الحى الواطئة ، تكتنفه حدائق وتقود اليه بوابة واسعة أنيقة ، كان بهندسته الحديثة كأروع ما تكون الأبنية العامة .



صورة تذكارية للطلبة والطالبات فى معهد بلغراد الاسلامى

عبرت الحديقة واعتليت الدرج الى الردهة الوسطى فرأيت شبانا وفتيات ما بين خارج وداخل ، البعض فى ملابس الرياضة والبعض يراجع كتبه متمهلا ما بين الغرفات . ووجدت من بين هؤلاء من إستخبرته عن مدير هذه المدرسة فعلمت أنه الدكتور « محمد بوجافتش » وكان فى تلك الساعة يلقى محاضرة له فى جامعة بلغراد التى يعمل استاذا فيها . وبعد ساعة أو نحوها رجعت ثانية وكان أمر زيارتى قد شاع بين التلاميذ والتلميذات فتجمعوا حوالى وراحوا يسألون ويستفسرون كعادتهم ، ثم جاء الأستاذ فدعانى الى غرفته ، وهو رجل فى دور شبابه يدل أسلوبه

فى الحديث على ما يتمتع به من ثقافة ممتازة ، زار مصر منذ سنين وما زال يحتفظ بقصاصات الصحف المصرية التى قامت بواجب تكريمه وضيافته .

والغرفة التى كنا جلوسا فيها دائرة الشكل مزخرفة برسوم وألوان عربية بديعة ومفروشة بسجاد شرقى ومؤثثة تأثيثا شرقيا ممتازا ، و بعد أن تناولنا القهوة حرصت على تسجيل صوره لنا فى هذا المكان ، ثم قادنى إلى أنحاء المكان متفرجا فرأيت مدرسة من أحدث ماتكون المدارس والمعاهد نظاما، طفت غرفات للدراسة والمذاكرة والمكتبة وقاعة للصلاة ثم زرت قاعات الأكل وغرفات النوم الزاهية الأنيقة فكانت جميعها أنموذجا لما تكون عليه كل واحدة منها ، ورأيت فى الفناء الخلفى الفتيات يقبلن على ضروب مختلفة من الرياضة .

لم يكن هذا المكان مدرسة بل هو على الأصح بيت للطلبة المسلمين ممن يدرسون فى جامعة بلغراد وإن كانت تدرس فيه بصفة خاصة اللغة العربية والتركية و بعض العلوم الاسلامية التكميلية ، و يأوى اليه مائة وأربعون طالب وطالبة ، يدفعون أجرا تافها مابين مئتى

دينار وأربعمائة أى ما لايزيد عن الجنيه والنصف ، ومن بين هؤلاء خمسون لايدفعون أجرا .

وفى جامعة بلغراد مئتا طالب من المسلمين وعشرون طالبة يدرسون القانون والطب والفلسفة والآداب والعلوم ، ولا يعمل هؤلاء عادة فى بلغراد أو ما جاورها لأن الطوائف الاسلامية تتجمع فى غرب يوغسلافيا وجنوبها .

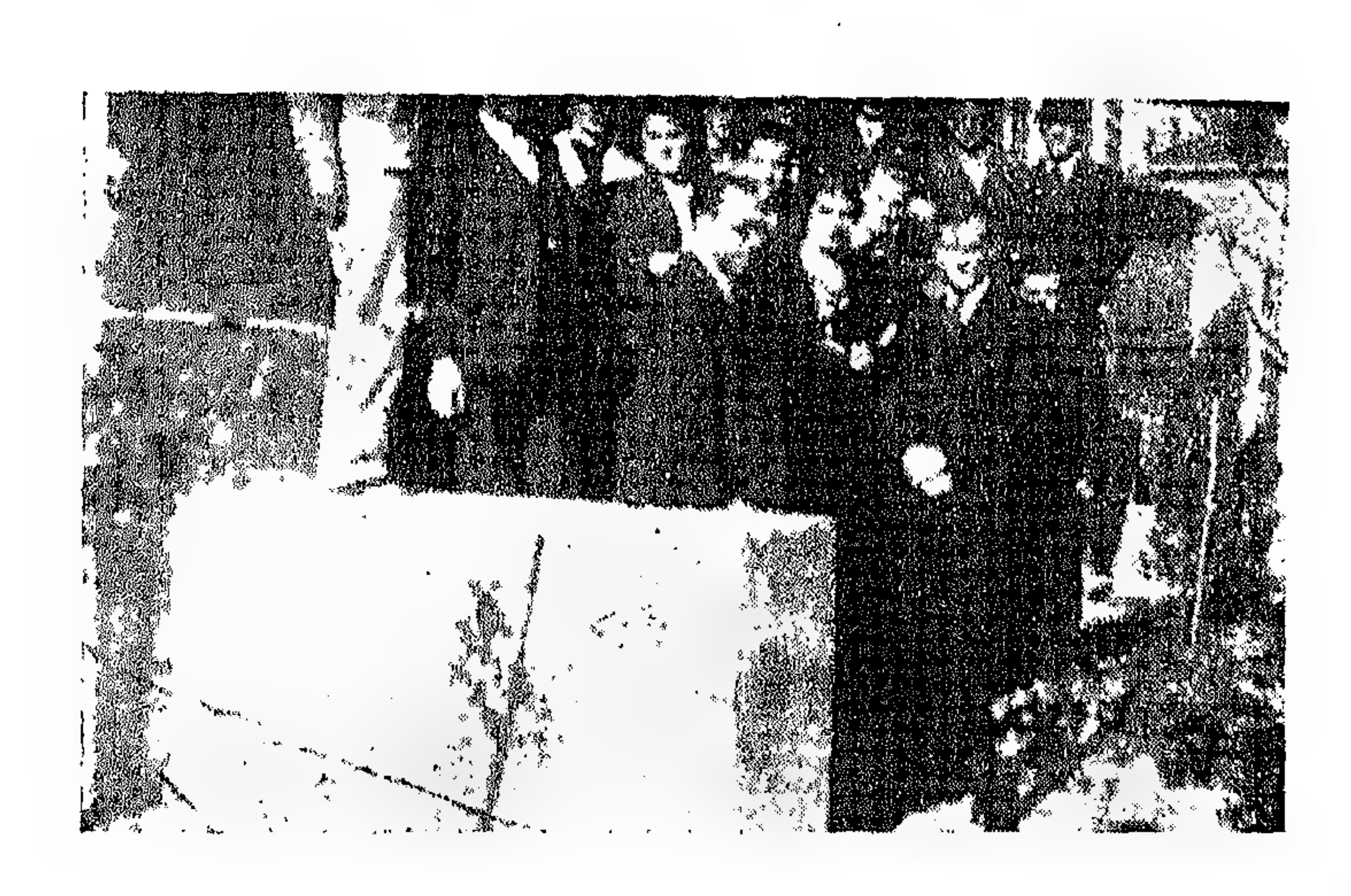
المسلمون فى يوغسلافيا

يعيش فى يوغسلافيا من المسلمين ضعف ما فى بلغاريا أو مادون المليونين وهم أكبر طائفة إسلامية تضمها دولة أوربية إذا استثنينا روسيا وتركيا ، وهى تتجمع فى مناطق معينة من يوغسلافيا تكوّن فيها أغلبية مطلقة وتستقل فيها استقلالا ثقافيا تشاهده فى عمارة هذه البلاد وفى حياتها الاجتماعية وفى أزياء رجالها ونسائها وفى لغتها وهى اللغة التركية بحروفها العربية .

تجتمع الطوائف الاسلامية فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود وهذه تطل على مياه البحر الأدرياتى ثم مقدونيا فى الجنوب ، وفى كل منطقة من هذه المناطق مدينة تعتبر المركز الثقافى لكل واحدة منها فمن هذه زغرب وسيراجيفو وأسكوبيا وغيرها ، وليس للباحث

عن الشئون الاسلامية فى يوغسلافيا الا أن يزور بعض هذه البلاد ليرسم صورة صحيحة عنها .

ففى البوسنة والهرسك نحو من ثمانية ألف مسلم ، ومثل هذا العدد فى مقدونيا ، وفى كل إقليم منهما نحوا من ألف ومائتى جامع وألف مكتب للتعليم الأولى وفى المناطق ذات الأقلية الاسلامية يتعلم الاطفال فى المدارس الصربية ويقوم معلم بجمع تلاميذ المدارس المتجاورة فى فرقة واحدة لتدريس أصول اللغة التركية والدين والقرآن ، كما هى الحال فى بلغراد .



صورة تذكارية المؤلف مع أساتذة المعهد الاسلامى فى بلغراد وطلبته

وهذه النسبة لها ما يقابلها فى التمثيل النيابى فللمسلمين خمسة عشر مقعد فى البرلمان وستة فى مجلس الشيوخ يمثلون أحزابا سياسية مختلفة ، ولهم فى الحكومة وزيران ، رأيت أحدهما ذات مرة فى بعض شوارع بلغراد .

والحرية الدينية مكفولة للمسلمين كما علمت ، فالقانون اليوغسلافى ينص على تطبيق الشريعة الاسلامية فى الوقف والزواج والأحوال الشخصية . والأوقاف الاسلامية كثيرة غنية يبلغ دخلها أربعة وخمسون مليون من الدنانير .

ويمكننا القول بأن للثقافة الاسلامية فى يوغسلافيا ثلاثة مراكز ، هى ساراجيفو وزغرب فى البوسنة والهرسك ، ثم اسكوبيا فى مقدونيا ففى كل من ساراجيفو واسكوبيا محكمة شرعية عليا وكذلك فى كل منهما مدرسة ثانوية حكومية للشريعه الاسلامية وتعرف المدرسة الاخيرة بالمدرسة الكبيرة . ولو أنك تسمع من أتراك الجيل الماضى كلمات الحمد والشكر على حالة الرغد والدعة والحرية التى ينعمون بها ويؤكدون لك ذلك ، إلا أن نغمة الحديث وأسلوب المحاورة يدل على حرص فى التعبير ، فهؤلاء الاتراك الذين عاشوا أسيادا فى هذه الاقاليم يحسون بوجوه الاختلاف والتباين بين العصرين

فللأقلية روحها مهما كانت وسائل الحياة موفورة لدى أهلها ؛ وانك لتسمع هذه النغمة عالية من أفواه الشباب ، من هؤلاء الطلاب الذين اجتمعت بهم فى المعهد الاسلامى ، وهم ككل شباب متعلم مثقف قد تفتحت عينه لوجوه النقص وطغت عليه روح التبرم والسخط فتراه ينتقد أباءه و ينتقد وزراءه وممثليه و ينتقد من ناحية أخرى الحكومة واستبدادها أو سوء إدارتها . ولكن ما من شك فى أن هذه الاقليات الاسلامية تتمتع إلى حد كبير بما يجب أن تتمتع به الاقليات الكبيرة فى مجتمع متمدين .

مقبرة العرب

صحبنى أحد طلاب المعهد الأسلامى فى زيارة بعض العيون الأسلامية فى بلغراد وكان أول هذه جامع بلغراد وهو الجامع الوحيد فى بلغراد على ما أظن ، و بقية ثلاثين جامع فى هذه المدينة أتى عليها الزمن ، فمنها (بطل جامع) الذى كان يحتل مكان البرلمان الصربى والذى هدم فى أوائل هذه القرن . وبلغراد لم تكن فى يوم من الأيام تركية أو مدينة إسلامية ولم يسكنها إلا رجال الحكومة وعساكر الانكشارية وغيرهم ممن كانوا يعيشون خلف أسوار

القلعة فلما أجلتهم السياسة عنها عادت إلى بلغراد روحها الصربية الأصيلة .

ولم يكن جامع بلغراد من العمائر البارزة ولا هو بالذى يقارن بعشرات الجوامع الأخرى المنثورة ما بين دلماشيا ومقدونيا . وقبل أن نصل إلى حيث هذا المسجد قادنا الطريق إلى الحى التركى والسوق التى ما زالت تعرض صورا من حياة الأسواق التركية القديمة من متاجر الحرير والسجاجيد والنحاس والحلوى والفاكهة وقد احتلت جانبى الطريق حتى تعسر فيها السير . وليس لهذا المسجد تلك الروعة التى يستقبلك بها جامع صوفيا أو جوامع اسكوبيا وساراجيفو التى تفاخر بمنائرها وقبابها جوامع اسطنبول نفسها .

ولما كان شيخ الجامع غائبا — إذ كنا ما بين العصر والغروب — طرقنا غرفة الحارس المجاورة فاطلت علينا فتاة تعمل فيه ، ومن العجيب أن تكون هذه الحارسة المانية مسيحية ! فحمدت الله على أن روح المسامحة الدينية قد بلغت هذا المبلغ .

ثم أننا خرجنا إلى ظاهر المدينة لنزور مقابر العرب ، وهم أولئك العرب من أبناء المغرب الذين حاربوا وصرعوا فى صفوف الحلفاء تحت أسوار بلغراد . وقد حدثنى عرفان يونس بأن شواهد هذه

القبور كانت قد نقشت عليها الصلبان أسوة بآلاف غيرها وقد مرت عليها سنون قبل أن ينتبه أولو الامر إلى هذه الملاحظة ، التى زعم عرفان هذا بأنه صاحبها .

ومقابر بلغراد مدافن واسعة مسورة إذا اقتربت منها استقبلك عشرات من بائعى الزهور وصانعى الرخام والصور ، وقسمت مدينة الموتى هذه أقساما لكل قسم منها باب عريض يفتح و يقفل فى أوقات محسوبة . وكانت مقابر العرب فى قسم المقابر التذكارية لجنود الحرب العظمى . وقد رأيت بالفعل أن رسوما حذفت من هذه الشواهد ونقشت مكانها أهلة فوق أسماء أصحابها .

ولاشك أن الحروب الكثيرة التى نشبت حول أسوار بلغراد قد عملت كثيرا على « احياء » مدينة الموتى هذه ، وعملت الحرب الأخيرة كثيرا فى هذا المقام . فأول قنبلة انفجرت فى يوليو سنة ١٩١٤ كانت فى صميم بلغراد ، لم تكن فينا إذ ذاك راضية عن هؤلاء الصرب فلما اغتيل الأمير فردناند النمسوى وزوجته فى ساراجيفو أرسل فرنسوا جوزيف يسأل غليوم الثانى هل حان الوقت للخلاص من الصرب والقضاء عليهم فرد عليه امبراطور الشمال « الآن والا . فلن . . » .



تحية شهداء العرب فى بلغراد — المؤلف يصحبه احد طلاب المعهد الاسلامى

وهكذا بدأت الحرب عندما استيقظت بلغراد فى التاسع والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩١٤ على قصف المدافع النمسوية الألمانية وسرعان ما وقعت المدينة فى يد غزاتها . ثم كر الصرب على مدينتهم فأجلوا المغيرين عنها ودخلها الملك بطرس منتصرا فى ديسمبر ، ووقع فى أسره مئات من أعدائه بيد أن القدر كان يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، إذ انتشر بينهم التيفوس فهزم الطائفتين .

وفى سبتمبر من السنة التالية رجعت جيوش فينا و برلين إلى بلغراد وأرسلت عليها جحيما من نيران المدافع أسبوعين كاملين حتى لم يبق فيها بناء قائم على أساسه وأخلاها أهلها قبل أن تقع فى يد أعدائهم فى اليوم التاسع من شهر اكتوبر ؛ و بقيت بلغراد مدينة ألمانية حتى وضعت الحرب أوزارها ، ولم يرجع إليها أهلها من الصرب إلا بعد أن محيت من خريطة أوربا امبراطورية عتيدة ، ونقشت عليها اسم مملكة جديدة هى يوغسلافيا .

اسكوبيا

إن دراسة الحياة الاسلامية فى يوغسلافيا الحديثة لا تتيسر فى مدينة مثل بلغراد . ولابد للسائح أن يزور البوسنة والهرسك أو

مقدونيا ليرسم صورة صحيحة عن المراكز الأسلامية فى الصرب .

واسكوبيا احدى هذه البلاد ذات التاريخ الأسلامى الطويل ، تبعد عن بلغراد نحوا من ثمـانى عشرة ساعة دون توقف وهى لا تبعد عن الحدود اليونانية إلا مسيرة أربع ساعات . ويطلقون على هذه المدينـة « أصقب » كما يطلقون عليها اسكوبلى . وهى فى مكانها على نهر فردار حيث تنفرج جبـال البلقان تحتل مركزاً جغرافيا هاما ، تعبرها إذا ما قطعت البلقـان من الشمال إلى الجنوب .

وفى منتصف الرحلة من بلغراد الى اسكوبيا تعبر نيش ، تلك المدينة التى حفظت اسمها منذ عشرين سنة فى كتاب الجغرافيا الابتدائية والتى كان يجد فيها معلمنا فرصة للايقاع بنا فى امتحاناته ؛ ثم جاء دور تاريخ الفتوحات التركية فحفظنا اسم نيش من بين تلك الاسماء الطويلة للمواقع والمعاهدات التى يتميز بها هذا التاريخ .

وكان الاستيلاء على نيش لا يقل خطورة فى تلك الحروب عن الاستيلاء على بلغراد نفسها ، وفى اليوم الذى انسحب الاتراك عن نيش نودى باستقلال الصرب ، ولـكن مقام أولئك الأتراك كان طويلا فقد عاشوا فى هذه المدينة ، يحرسون الطريق إلى الدانوب

خمس مائة سنة كاملة . والزائر إلى بعض أطراف هذه المدينة يشاهد أثراً من آثار تلك الأيام يدعونه باسمه التركى برج الجماجم وقد أقامه الاتراك تذكارا لانتصارهم على الصربيين فى سنة ١٨٠٩ بعد أن ردوهم عن نيش ، فشيدوا هذا البرج من جماجم أعدائهم !

وفى نيش يتقابل المسافرون من بلغراد وصوفيا وأسطنبول وأثينا ، وعلى محطة نيش الفسيحة نشاهد «اكسبريس الشرق» بعرباته المفتخرة يحمل رجال المال والأعمال من بحر المانش إلى خليج فارس ، ولا أظن مدينة صغيرة تستقبل عشرات الجنسيات من الشرق والغرب مثل نيش فلم يكن غريبا إذاً أن يطلب الحمال منى نقداً من أى لون ، فجميع النقد لديه سواء وهو على رصيف يستقبل الانجليزى المسافر إلى بغداد والفرنسى إلى دمشق والتركى إلى برلين .

وصلنا نيش فى منتصف الساعة الواحدة من الصباح وانتقلنا من محطة إلى محطة فى أنتظار القطار من بلغراد إلى أثينا ، ولقد كان ذلك الجمع من الصرب والأتراك صورة رائعة لدراسة الشعوب البلقانية وقد بدت خالية من زينة العواصم ، لقد ملأوا قاعة المحطة الفسيحة وجلسوا رجالا ونساء على الأرض وراحوا يأكلون

ويغنون ، فلما جاء القطار فى الساعة الثانية من الصباح اندفعوا بجوالقهم ومتاعهم حتى أمتنع الصعود والنزول وارتفع فى الجو الصياح والوعيد والسباب .

وفى الساعة السابعة وصل ركبنا إلى اسكوبيا وسرعان ما تفرق ذلك الجمع الحاشد الذى له ينم دقيقة فى تلك الليلة ، وكان الصبح بارداً نديا فبقيت بضع ساعة فى المحطة الخالية أعددت نفسى فيها لزيارة المدينة زيارة سريعة ، فاغتسلت من مضخة المحطة الارتوازية بعد أن عاونى على ادارتها بعض الحمالين ثم انتحيت ناحية وافطرت على ما كنت أحمله من صوفيا من عسل وشاى ساخن ، واشتركت معى فى هذا الفطور قطة سمينة جلست عند قدمى ، وكان بائع « البوغاشة » قد أعد بضاعته فى الحديقة المجاورة التى تستحيل على ما أظن مطعما فى أيام الصيف .

وتسير طويلا بعض الشيء لتصل إلى قلب المدينة فتخترق حقولا وحدائق وصفوفا من البيوت الواطئة حتى تصل إلى نهر فردار الذى شيدت المدينة على جانبيه وقد انحسرت عنه المياه إلا من جدول ضيق فى قلبه ، ثم تسير نحوا من عشر دقائق حتى تصل إلى القنطرة التي تصل بين طرفى المدينة وهي قنطرة من الحجر شيدت في

العصر التركى وقد بنى على جانبها الأيمن شبه قبلة من الحجر دون عليها بالحروف العربية اسم السلطان مراد الثانى ونقشت عليها ثلاثة أبيات شعرية باللغة التركية ، تمجيداً للسلطان دون ريب .

وكانت المدينة فى ذلك اليوم تتزين لاستقبال ضيوف فرنسيين فأقيمت منصة عالية من الخشب الملون وارتفعت حولها أعمدة زينت بفروع الأشجار الخضراء وازدحمت المقاهى حول الميدان بجموع المنتظرين . وكان القطار الذى حمل هؤلاء الضيوف هو قطارى إلى أثينا ، فرأيت المندوب الصربى يخطب بلغته مستقبلا هؤلاء الضيوف على مسافة نصف متر من رئيس البعثة الفرنسية حتى كادت ذراعه وهو يطويها يجذبها أن تعبث بوجه هذا الفرنسى ، الذى أدركه الملل والقلق لطول الحديث والتواء فهمه له ، فكان لا يصمت عن الحركه والتلفت هنا وهناك .

واذا وقفت على قنطرة السلطان مراد بدت لك اسكوبيا فى جلالها وقد ارتفعت فى سمائها عشرات من المنائر والمآذن الدقيقة الباسقة التى لا تراها إلا فى القاهرة أو اسطنبول أودمشق . وتتجمع هذه المساجد فى بعض أطراف المدينة ولعل هذا الحى كان فيما سبق قلب المدينة إلا أنه قد تحول إلى الضفة الأخرى من النهر حيث

قنطرة السلطان مراد . ورأيت من بين هذه المساجد ما لا يقل رواء وعظمة عن جامع السلطان احمد فى اسطنبول أو جامع محمد على فى القاهرة بمآذنه العديدة الباسقة وقبابه الوسطى . فجوامع اسكوبيا ذات نمط بيزنطى فى هندستها .

وما رأيت مدينة تحتفظ بطابعها الشرقى القديم كما رأيت هذه المدينة ، فالمنازل ذات الطابق الواحد تذكرك بالحواضر المصرية بنوافذها ذات الدرف الخشبية والمشبكات الحديدية ، وقد ثبتت على أبوابها دقاقة من الحديد على شكل قبضة ممـا كان شائعا فى البيوت المصرية فى العصر الماضى . و يتوسط البيت فناء داخلى تنبت فيـه حديقة صغيرة من أشجار الرمان والورد والأعشاب المتسلقة ويقود هذا البناء إلى (سلملك) كما تطل عليه نوافذ البيت الداخلية .

وبعد أن عبرت القنطرة سرت فى سوق حافلة تذكرك بتلك السوق ما بين كبرى غلطة فى أسطنبول وميدان أيا صوفيا ، بل أن سوق اسكوبيا هذه تفوقها روعة بروادها من لابسى الطرابيش الحمراء أو الطواقى السوداء ثم من لابسات السراويل الفضفاضة (والحبرات التركية) والصدارى المزخرفة ، وقد تحجبن بالسواد حتى

يخيل اليك أنك فى بغداد فى عصرها الذهبى . و يلبس الرجال سراو يل ضيقة تنتهى بأحذية شرقية حمراء وصدارى ملونة مزخرفة من الصوف والحرير .

وتسير فى هذه السوق وما يتفرع منها من دروب بين صفوف من المتاجر الصغيرة الضيقة ، وقد قسمت فروعا فهذه سوق النحاس والصاغة وسوق المنجدين ، وهاهى ذى دكاكين الحلوى وقد عرضت فيها البقلاوة والبوغاشة التركية و إلى جانبها باعة الحمص واللب المقلى و بين هؤلاء وهؤلاء تلك المقاهى الصغيرة وقد جلس زبائنها يرتشفون القهوة و يدخنون النرجيلة . ويزيد هذه الصورة فتنة وفود الريفيين بأز يائهم الزاهية جاءوا على حميرهم القصيرة وقد تدلت سيقانهم حتى تكاد تلمس أقدامهم الأرض وقد حملوا عليها الحطب والفحم .

ليلة ساهرة

كنت إذا أشكل علىّ الأمر فى بلغراد أقضى السهرة فى قهوة الفندق أتحدث إلى صاحبه وزوجته فيفيضان علىّ أخبارا وطرائف ، حتى إذا كانت الساعة التاسعة وما بعدها يبدأصاحبى فى الانصراف عني شيئا فشيئا حتى إذا تقدم الليل كان من الصعب تحويل نظره

إلىّ وهو قابع على منضدة الحساب يراقب زبائنه كالنسر .

ولا شك أن من أخطر المهن إدارة حانة ليلية فى مثل هذه البلاد ، فهذا النبيذ الرخيص يشجع الناس على الادمان حتى فقدان الشعور فيبيعون حياتهم زهيدة ، وما أسرع أن ينقلب الحديث والمزاح نزاعا ، والنزاع إلى قتال تستعمل فيه الخناجر والمدى كما تستعمل فيه المناضد والمقاعد .

وكانت تعزف فى هذا المقهى فرقة من الفتيات ، وكان للجالس الحق فى طلب ما يروق له من الألحان إذا قدم شيئا من النقود إلى



مسجد بلغراد

رئيسة الفرقة التى وضعت إلى جانبها كيساً كبيراً من القماش تجمع فيه هذه الهبات ، لهذا لم يكن عجيباً أن تنشب ما بين لحن ولحن ثورة بين المعجبين الذين يختلفون بالطبع فى رغباتهم وتتحول هذه الرغبة إلى التهديد والوعيد .

و بعض الجالسين يقدم منحاً مالية لأفراد معينة من الفرقة كمظهر من مظاهر الاعجاب والتقدير ، و بين فترة وأخرى تقوم إحدى الفتيات تجمع « نقوطا » من الجالسين ، فاذا ضاعف الجالس المنحة كان ذلك دليلا على إعجابه بفتـاة معينة من الفرقة ، فلما تعرف الفتاة الجالسة ذلك تقوم إلى حيث هذا المعجب وتجالسـه فى فترة الراحة . وهكذا يخلق هـذا التقليد نزاعا لا ينطفىء ، ولا تخلو ليلة فى هذه المراقص من هياج وثوران بين الزائرين . وقد حدث أن جلس إلى جوار الفرقة أحد المعجبين وراح يشرب لنفسه و يشرب نخب بعض الفتيات حتى ثمل وسئمت لجاجته الفتاة نفسها فانصرف إلى تحطيم الـكوبات وجذب المقاعد ، وظننت أن صاحب الفندق يثور أو يتقدم إلى الرجل فيطرده ولـكن شيئا من ذلك لم يحدث بل بقى الرجل جامداً سا كنا وراح الخادم يصلح المكان و يبدل الـكوبات المـكسورة بغيرها .

وتبرعت فتاة من هؤلاء العازفات بالجلوس إلى مائدتى دون دعوة أو تشجيع من جانبى وسرعان ما جاءت الخـادم وسرعان ماطلبت شراباً ثم آخر ، وأنا لا أعرف كيف أقطع الوقت بالكلام معها وهى لا تعرف إلا الصربية ولا أعرف كيف أتخلص منها ، ومما زاد الموقف حرجا أن وفد بعض المعجبين بها ممن يترددون على هذا المكان ، راحوا يتغامزون ويتساررون و يلوحون ، وأنا أدعو الله أن يحسن ختام هذه الليلة ، ثم توالت رغباتها فأخذت المسألة المالية كذلك فى التحرج .

ولسبب من الأسباب فهمت أن الفتاة حسبتنى طبيبا فتحينت الفرصة وأخرجت قرصـا من الاسبيرين الذى لا يفـارق جيبى وأفهمتها بالاشارة والتصوير ان سعالها العنيف لا يشفيه إلا هذا القرص تبتلعه بجرعة من الماء على أن تنصرف عن التدخين — وقد طلبت علبة أخرى من السجائر فتمنعت — وكذلك عن شرب الخمر فكان ذلك حلا سعيداً موفقاً .

وعلى السائح فى مثل هذه البلاد أن يجيد الاشـارة والتمثيل كوسيلة للتفاهم إذ يجهل لغة أهل البلاد ، وقد نجحت فى هذا نجاحا كبيراً بيد أن هنالك من يعجز عن فهم أبسط أنواع الاشارة

وذلك أن بعض أنواع الاشارة تفسر بمعنى يختلف عما اصطلحنا عليه. وليس أعجب من أن هز الرأس يميناً وشمالا وهى علامة الرفض عندنا تفسر بمعنى القبول فى بلغاريا و بلاد البلقان الأخرى ، كما يفسر هز الرأس من أعلى إلى أسفل بمعنى القبول .

وفى ذات يوم أحضرت بيضا نيئا إلى الفندق وطلبت من الخادمة أن تتفضل بسلقه فى المطبخ ، ولما لم تفهم قمت بتوضيح عملية السلق توضيحا شاملا فسكبت ماء فى القدح ووضعت فيه بيضا ثم وضعت القدح على مدفئة الحجرة الباردة ثم أخرجته بعد ذلك وأريتها كيف يقشر و يؤكل ، وبعد كل هذا أخذت الخادمة البيض وأبدت لى شكرها على هذه الهدية !

سملين

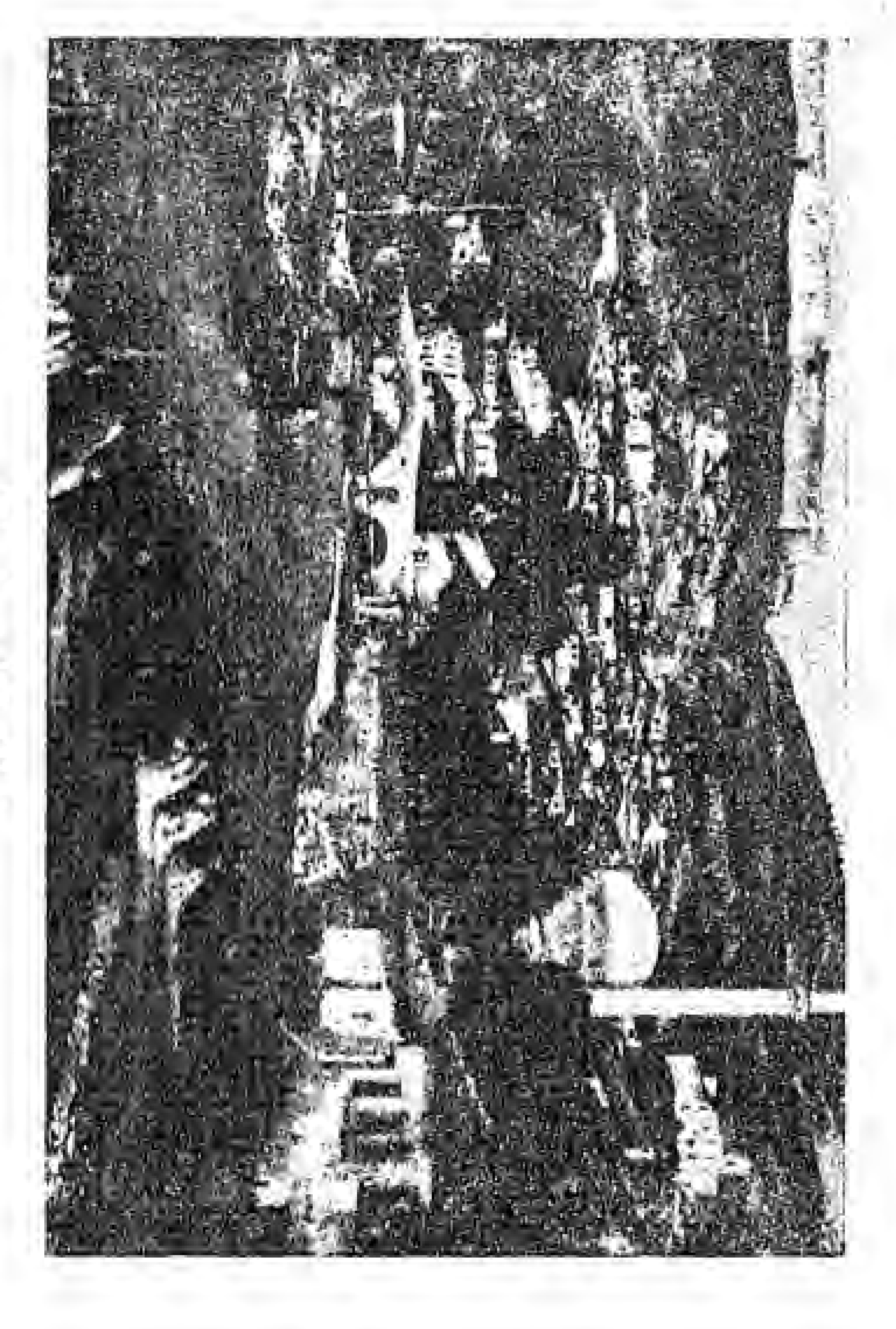
سملين كما كانت تدعى أو زيمون كما تعرف اليوم مدينة صغيرة على الجانب الآخر من الدانوب عند بلغراد ، أصبحت زيمون منذ السنين الأخيرة ضاحية من ضواحى بلغراد وصار يطلق عليها اسم بيوغراد — زيمون كما يطلقون بودا — بست على عاصمة المجر . وكانت زيمون إلى ما قبل الحرب حدا يفصل ما بين أمبراطورية النمسا والمجر وبين الصرب ، ومن مكان هذه المدينة هوجمت بلغراد

فى اليوم الأول من الحرب ومن هذا المكان تدفقت الجيوش الألمانية إلى البلقان .

وليس أدل على تاريخها المضطرب من هذا الخليط من السكان الذى تجمعه زيمون من مجر وسلاف وكروات وصرب وتشك وألمان بل ان للجالية الألمانية ضاحية مستقلة .

قضيت بعض يوم من أيام الأحد فى هذه الضاحية سرت إليها بالترام بعد أن عبرنا الساف عند القنطرة المعلقة التى يطلقون عليها اسم (قنطرة الملك اسكندر) و إن كان البعض يأبى إلا أن يسميها (القنطرة البلغارية) وتعليل ذلك أن هذه القنطرة كما يقولون بنيت بأموال البلغار . والعلاقة بين هاتين الجارتين لاتستريح إليها النفس فبين الصرب والبلغار قضايا لا تحل منذ الحرب البلقانية ومنـذ الحرب الأخيرة ، والدعاية بينهما قائمة على زيادة الخلف والتفرقة حتى إن قراءة الصحف البلغارية قد تجر صاحبها إلى السجن!

وتمر فى طريقك إلى زيمون بأرض المعرض وقد شيدت عليه أبنية للبلاد التى تشترك كل عام فى سوق بلغراد ، ثم تمر بوزارة الزراعة والطيران و بعض المدارس الحربية ثم تخترق مستنقعات و بركا وحقولا حتى تنتهى إلى شارع المدينة الأوسط .



قرية إسلامية في يوغوسلافيا

وليس فى كل هذا مايستحق الذكر ، وليس فى المدينة مايستحق المشاهدة فقد قضيت بضع ساعة أتمهل على شاطىء الدانوب الذى يشبه النيل عند بعض بنادر الصعيد ، إلا أن الزائر يرسم من هذا المكان صورة واضحة لبلغراد .

ثم زرت سوقا للفاكهة والخضر عرضت فيها على الأرض أكوام من التفاح المعطوب والعنب المحصرم تبيعه الفلاحات والغجريات . ثم إننى قضيت ساعة فى مقهى ألمانى أتسلى بمراقبة مواكب الفتيان والفتيات يذرعون الشارع ويتجمعون حول قاعة صغيرة للسينما وقاعة للرقص .

وداع بلغراد

لأمر ما لم أجد فى بلغراد ما يدعونى إلى فراقها وأنا آسف على ذلك ، بل كانت من تلك البلاد التى تزورها لتدرسها وتذكرها فى معرض البحث والدراسة لا فى معرض الذكريات الحبيبة .

وفى الليلة التى خلفت فيها بلغراد ذهبت لابتياع شىء من الجبن ، ولسبب من الأسباب نسيت أننى فى الصرب فكلمت الصبى باللغة العربية وما كان أشد عجبى حين سمعت ذلك الصبى يرد على بالعربية وباللهجة المصرية ، إذ كان ذلك الصبى من

مواليد الأسكندرية . وفى تلك الليلة نفسها طرقت متجرا آخر وإذا بالبائع يسألنى عن جنسيتى فإذا به قد عاش سنين فى القاهرة !

كان ذلك فى الليلة التى ودعت فيها بلغراد فليس غريبا إذاً أن يتحدث إلىّ ذلك الضابط الذى قابلته فى المتحف الحربى عن المستعمرة الصربية التى تعيش فى الأسكندرية ، قد يكون هذا صحيحاً ولكن من ذا الذى يحس بهذه المستعمرة الصربية وبيننا عشرات مثلها تأخذ علينا كل طريق !!

وفى صميم الليل ودعت بلغراد كما هبطتها وركبت متن الدانوب إلى بلاد المجر .

إلى المجر . .

خلفنا بلغراد ولكننا لم نترك بعد الأرض اليوغسلافية فما زال الدانوب يجرى بعد ذلك طويلا حتى بلاد المجر ، وما زالت مئتا وخمسون من الكيلومترات أمام مركبنا حتى مدينة بزدان آخر محطة نهرية للصرب على الدانوب .

بعد أن يترك الدانوب عاصمة الصرب يرجع إلى حياته المتوحشة من جديد ، فتبدو شواطئه فى ثوبها الطبيعى تغطيها الأشجار والغابات وتكسوجروفه الحشائش المرتفعة التى تتخللها المياه ، وتطير

عليها أسراب كثيرة من الطيور المائية البيضاء ، وتكثر فى هذه المناطق أنواع من السمك يخرج إلى اقتناصها الصيادون والهواة بشباك ينصبونها حول هذه الجروف فتجمع هذه الأسماك جملة .

وبعد أن نودع نهر الساف عند بلغراد نستقبل نهيراً من فروع الدانوب — لولا اتصاله بهذا النهر لعد من أنهار أوربا الكبيرة — فنهير الثيس يبلغ طولا نحوا من ألف كيلو متر ، وعندما يتصل فرع كبير كالثيس بالدانوب يستحيل النهر إلى بحيرة عظيمة وتتباعد شواطئه حتى يفقد مظاهر الأنهار .

وبعد أن تقطع مرحلة أخرى من حيث هذه النهير تصل إلى « نوفى ساد » أكبر مدينة صربية على الدانوب ما خلا بلغراد . وعلى الضفة الأخرى من هذه المدينة الحديثة وعلى مرتفع تعلوه أطلال قلعة قديمة تذكرك بقلعة بلغراد تجثم « بترو فارادين » مدينة كان لها شأن كبير فى القرن الماضى وما سلفه من القرون ، فكانوا يطلقون على هذه القلعة اسم «جبل طارق بلاد المجر» إذ كان الدور الذى لعبته هذه القلعة عظيما فى حروب المجر والترك ، ولكنها اليوم فقدت هذه المكانة الحربية ولم تعد تذكر إلا بتاريخها هذا ، ثم بسبب رواية يذكر أصحابها أن بطرس الراهب مثير الحروب

الصليبية ولد فى هـذه القرية ، وسواء أكان ذلك صحيحاً أم خرافة فمما لا شك فيه أن هذه القرية قد شهدت فى أواخر القرن الحادى عشر تلك الجموع التى قادها بطرس الراهب فى طريقه إلى القدس ، تلك الجموع التى لم يرجع منها أحد إلى أوربا ليقص قصة تلك المأساة !

ولـكن « نوفى ساد » على الضفة الأخرى من النهر تمثل المدينة الصناعية الحديثة ، وهى فوق ذلك مركز من مراكز الثقافة الصربية أعرق تاريخا من بلغراد نفسها فـكانوا يطلقون عليها اسم « أثينا الصربية » ففى نوفا ساد أنشئت أول مطبعة صربية وأول معهد دينى وأول مدرسة ثانوية ، وكانت فى خلال القرن التاسع عشر مركز الطباعة والتأليف باللغة الصربية .

وفى نوفى ساد تتمثل مظاهر المدنية الغربية فشوارعها مرصوفة يشقها الترام وتزين ضواحيها عشرات من « الفلات » الحديثة يطل بعضها على مياه الدانوب وقد أقيمت على أعمدة من الخشب ، وفى طرفها ملعب كبير يدل على أن الموجة الرياضية التى هى مظهر من مظاهر الثقافة الشمالية قد غزت هذا الجانب من أوربا وتصل

ما بين ضفتى النهر قنطرة حديدية ، كانت فيما سبق قنطرة من القوارب المعقودة إلى بعضها

وبعد هذه القنطرة يتسع الدانوب فجأة وتتوسطه الجزائر الطينية التى تغطيها الغابات والحشائش ، ثم تقطع ثمانين كيلومتراً حتى تصل إلى ڤوكوفار وهى مدينة زراعية ذات عشر آلاف نسمة لها شهرة بما تزرعه من بطيخ ، كما لها شهرة صناعية لما عرف عنها من براعة فى صنع نسيج أشرعة القوارب ، تصدره إلى ما وراء حدود هذه البلاد .

ولكن ما يستلفت نظر المسافر على الدانوب عند فوكوفار تلك العشرات من الطواحين المائية التى تتتابع بكثرة حتى تدخل الاراضى المجرية . وهذه الطواحين التى تستعمل لطحن الحبوب — أو على الأصح الأذرة — تقام على أرماث تطفو على سطح الماء بعيدا عن الشاطىء وتتكون من قارب عريض وعجلة تدير الماء ، ثم من بيت خشبي عائم . ومن العجيب أن هذه الطواحين تحمل جميعها اسماء المانية صريحة ، وعرفت بعد ذلك أن أصحاب هذه الطواحين من الالمان الذين نقلوا نظامها إلى هذا الجانب من الدانوب وما زالوا يحتفظون بهذا التراث إلى اليوم .

وتعيش فى هذا الجانب من يوغسلافيا أكثرية كرواتيـة وهم يكوّنون قسما كبيرا من الأقليات التى تضمها يوغسلافيا . وهؤلاء الـكروات الذين كانوا يعيشون تحت السيادة النمسوية حتى ظهور يوغسلافيا الحديثة يعتبرون أعمق ثقافة من الصرب ، فبينما الصرب من الارثوذكس الذى اعتنقوا المسيحية من الشرق إذا بالكروات قد دخلوا فى المسيحية من الغرب فاصبحوا من الـكاثوليك ، ربطتهم بايطاليا رابطة الدين والثقافة فكانوا يرسلون إبناءهم من قديم إلى جامعات روما و بدوا وفاورنس فى العصر الذى كانت فيه الشعوب الصربية تعيش حياة بلقانية محضة .

فلما جاءت الحرب الاخيرة توزع الحريات وتهدم دولا وتشيد عروشا ، اجتمعت كلمة الصرب والكروات والسلاف على أن يعيشوا أحرارا متضامنين تحت راية واحدة فعقدوا ميثاقا فى جزيرة كرفو وقعه ملك الصرب الشريد إذ ذاك ، وكان لهؤلاء ماأرادوا ، ولـكن ماأسرع أن أحس الكروات بان هذه الشركة لا تحقق ماطمحوا فيه من مساواة وانهم قد استبدلوا حماية فينا باستعباد بلغراد وما أبعد الفرق ! فبـدأوا حياة الثورة من جديد وامتنع ممثلوهم من الاجتماع تحت قبة البرلمان فى بلغراد ، فلم يجزع الصرب بل رحبوا بغياب

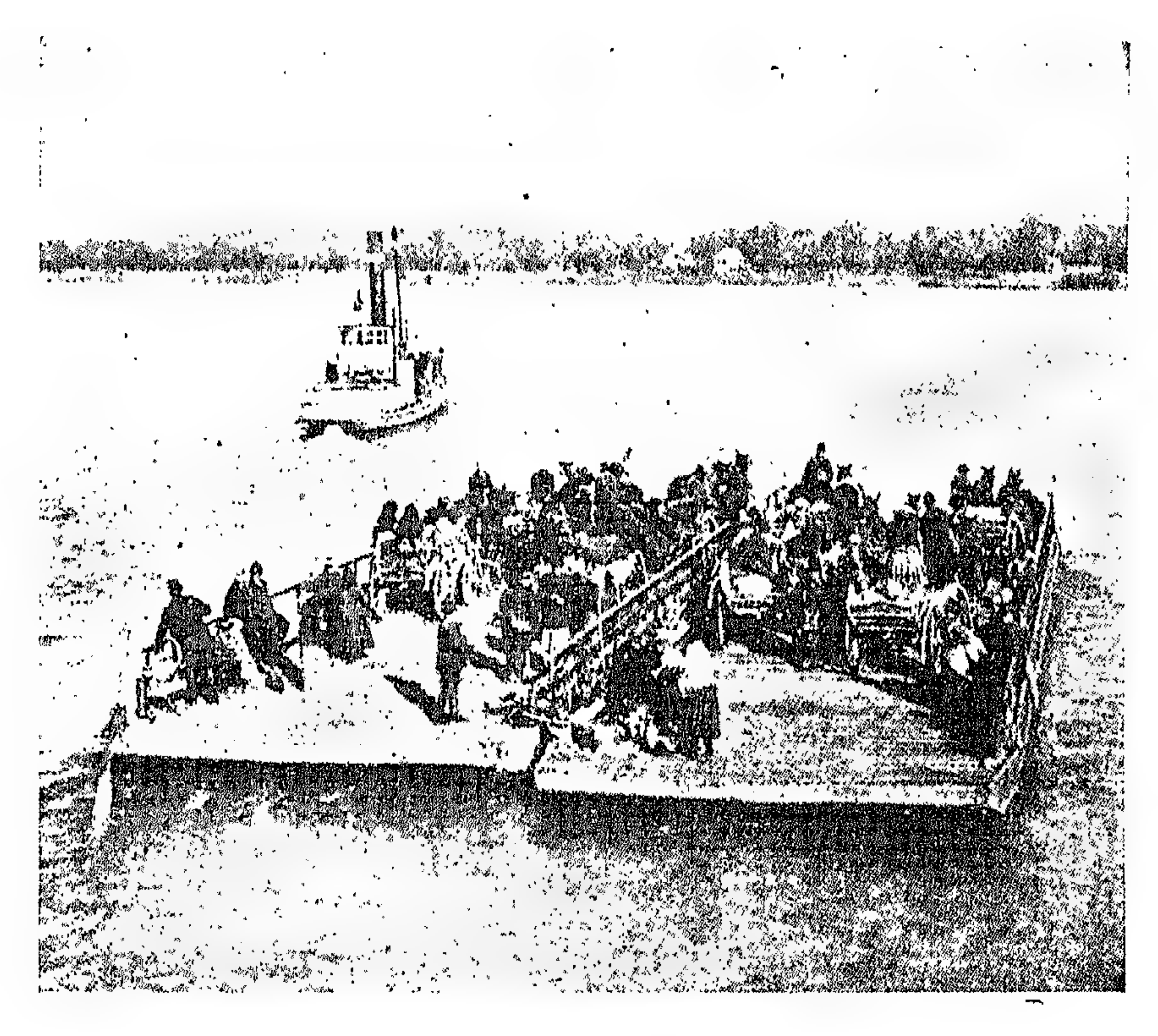
شركائهم فأداروا دفة البلاد تبعا لرغباتهم وأغراضهم ، فزادت الشقة بين الجنسين و بدأ الكروات يطلبون الانفصال والاستقلال وصاروا يدبرون المؤامرات و يلوحون باغتيال ملكهم الصربي قبل اغتياله فعلا بسنين و بيد واحد منهم . فهؤلاء الكروات يرسمون صورة واضحة للأقليات البلقانية التى تعيش حياة ثورة دائمة فى هذا الجانب من أوروبا .

وعند فوكوفار يتجه الدانوب صوب الشمال مودعا يوغسلافيا عند بزدان ، وقبل أن يعبر المسافر الحدود إلى المجر يمر على بيوت حجرية تنفذ من كواتها الضيقة فوهات عشرات المدافع تتجه صوب الحدود المجرية ! انك لتعجب من هؤلاء الجيران الذى يعيشون فى حذر دائم و يبيتون الوقيعة والدسيسة و يستعدون للنزاع والحرب قبل أن توقد للحرب شرارة .

على الدانوب

فى

المجر



الدانوب عندموهاكس (المجر)

موهاكس

إن هذه الحدود التي نعبرها في البلقان فواصل وهمية لا وجود لها ، تتقدم وتتأخر وتتمدد وتتقلص بعد كل حرب أوربية . وفي أي تاريخ تجوس خلال البلقان تسمع هذه الشكوى بأن أبناء وطنهم وعشيرتهم يعيشون وراء الحدود ، وإن هذه القرية أصلها مجرى وأن هذا الاقليم الروماني أصله بلغاري ، وتعدل هذه الحدود فتسمع الشكوى من جديد . فشعوب البلقان أشبه بالقبائل والعشائر والبطون تتجمع وتتوزع وتتداخل في بعضها ، فقد تجد في قرية واحدة جميع شعوب البلقان ممثلة فيها حتى يصعب الحكم على قوميتها .

وإذا عبرت الحدود المجرية تتمثل لك هذه الحقيقة ، فهذا

الشعب الذى عرفت عنه الرغبة فى الاستمتاع بمباهج الحياة من موسيقى ورقص وغناء ، لا تتحدث إليه إلا وتراه باكياً نائحاً يرثى حاله و يندب مصيره و ينظر إلى جيرانه العديدين على أنهم جميعاً شعوب مغتصبة لحق من حقوقه ؛ فالمجرى فى كل بلد من هذه البلاد شخصية غير مرغوب فيها لأن روحه هذه قد أظهرته بمظهر المرأة الحقود الحسود التى لا تبقى على صداقة رفيق ولا حب حبيب .

لا تكاد تطوى عشرة أميال وراء الحدود المجرية حتى تقف عند « موها كس » وهذه القرية الكبيرة لها فى تاريخ المجر صفحة بارزة ، فهى كووترلو أو فردون تفصل عصرا عن عصر ، فاذا ذكرت موها كس على اسماع مجرى تثير ثائرته إلى حد الجنون ، كما تثير زهوه وكبريائه .

نحن الآن فى اسطنبول فى الثالث والعشرين من شهر ابريل سنة ١٥٢٦ نودع السلطان سليمان القانونى على رأس مائة ألف من الفرسان والرجالة فى طريقه إلى هذا الجانب من الدانوب بل إلى هذا الفسيح الذى يمتد أمام البصر عند موها كس هذه .

وكانت البلقان بعواصمها و بلادها مستعمرة تركية استقبلت هذه الجيوش وقدمت لها الزاد وهى فى طريقها الى المجر للخلاص



فاتنة القرية ...

من هذا الشعب المشاكس . ووصلت هذه الجيوش بتروفاردين التى خلفناها منذ ساعات فاحتلت قلعتها ثم انحرفوا يسرة وعبروا نهير الدراف على قنطرة أقاموها عليه ، وفى الثامن والعشرين من أغسطس كانت هذه الجيوش فى سهول موهاكس التى تجمعت فيها جموع المجر وفرسانهم يقودهم البطريق توموري والملك لويس المجرى .

واندفع فرسان المجر فى صفوف هؤلاء الغزاة حتى ردوا فرقة الأنضول ، ثم ان أربعاً وثلاثين من هؤلاء الفرسان أقسموا فيما بينهم على اغتيال سليمان أو الموت ، شقوا طريقهم إلى السلطان وأمطروه وابلا من سهامهم لم ينجه منها إلا ثوب الزرد الذى كان يلبسه ، ولكن ما أسرع أن دارت الدائرة و بدت الهزيمة فى صفوف المجر وأخذت فرسانهم فى الهرب واندفعت فرقة إلى الماء فغرقت وقضى على أخرى فى الأوحال ! و بينما كان الملك يجد فى الهرب عثر فرسه فوقع على ظهره فلم يجد من يقيل عثاره ولم يقدر على رفع دروعه الثقيلة التى دفنته فى الطين . وهكذا شهدت موهاكس خاتمة المجر ، وأستحالت تلك المملكة القديمة مستعمرة تركية بعد أن قتل على سهولها ثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل .

وفى شهر أغسطس نفسه وفى هذا المكان عينه بعد مائة وأربعين

سنة قابل المجر ونصراؤهم من النمسويين وغيرهم على سهول موهاكس غرماءهم الترك الذين بدأ ظلهم يتقلص من سهول الدانوب العليا ، وهكذا تشهد موهاكس مرة أخرى الفصل الختامى لاستعمار المجر فتبدأ هنغاريا صفحة جديدة من حياتها .

ولم يبق بعد تذكار تلك المواقع الفواصل إلا الكنيسة التذكارية وتمثال الملك لودفج (لويس) وتذكار قتلى موقعة موهاكس من البولنديين .

وليست موهاكس اليوم إلا قرية كبيرة من تلك القرى المجرية التى تحتفظ بطابعها القومى ، فتصيد الأزياء الوطنية فيها عيونَ الزائر للمرة الأولى ، هذه الأزياء التى تسمع عنها كثيرا إذا زرت بودابست ولكنك لا تراها لأن بودابست قد أصبحت عاصمة غربية ، أما فى قرية مثل موهاكس لاسيما اذا هبطت فى يوم من أيام الأحد أو فى بعض الأعياد تشاهد معرضاً طريفاً من معارض الأزياء وقد ارتدت كل فتاة ثوبها التقليدى بألوانه العديدة وبنقوشه الوطنية وقد امتدت أطرافه حولها ، فاذا سار ثلاث منهن فى بعض دروب القرية الضيقة أقفلنه . وهذه الأثواب المصنوعة من المخمل والحرير المقصب والمخرمات الدقيقة تكلف صاحبته مبلغاً

باهظا ، ولـكنه يعيش معها عمرا طويلا لأنها تحتفظ به وترعاه ولا يظهر فى ضوء الشمس إلا فى مثل هذه المناسبات .

وكان الدانوب قد بدأ ينحسر عن الشـاطىء المرتفع فخلف جروفا من الطين مددنا فوقهـا جسرا ، وجاء بعض السقائين بحميرهم يخوضون الماء لملء براميلهم بعيدا عن أوحال الشاطىء . كما جاء جمع من الحمالين ينقلون الفحم الى مركبنا وغيرها من المراكب الواقفة ، فان موهاكس قد أصبحت ميناءً نهريا للفحم الذى لا تبعد مناجمه عن هذا المكان كثيرا .

ثم اننا خرجنا جماعة الى القرية فسرنا فى طريق زراعى تحفه الأشجار انتهى بنا الى شارع القرية وقد ارتفعت على جانبيه بيوت ذات طابق واحـد استحالت مداخل بعضها الى متاجر صغيرة ووقف على أبوابها النساء والأطفال يرقبون جمعنا ، ونحن نهرول على أرض الشارع التى رصفت بأحجار جعل السير عليها قطعة من العذاب .

وانتهى هذا الطريق إلى ميدان واسع تصدرته كنيسة ذات قبة شرقيـة كبيرة تستلفت النظر لغرابتها و إلى اليمين حديقة أقيم فيها نصب مرتفع . ثم إننا عرجنا على بنك القرية لاستبدال بعض

ما معنا من النقود فوجدنا الباب مقفلا إذ كنا فى غير ساعة العمل ، إلا أن صبيا أجاب على ندائنا وراح بدوره ينادى صراف البنك الذى كان فى بيته فى تلك الساعة ، ووقفنا طويلا نستمع إلى حديثهما التليفونى الذى أطاله نباح كلب وقف تحت النافذة . وما كاد الصراف يدخل علينا حتى سمعنا صفير المركب إيذانا بالرحيل ، فخرجنا نهرول وقد حمل الرجال أطفالهم على أكتافهم وجروا زوجاتهم من ورائهم ، ورحنا نلهث من العدو على هذه الأحجار اليابسة ، وما كدنا نبلغ الشاطىء حتى كان المركب قد رفع مراسيه وأبى قائده أن يسمح لنا بالنزول الاّ بعد فرض عقاب مالى .

يدخل الدانوب بعد لوهاكس فى سهل المجر الكبير ، وهذه الحقيقة سرعان ما يلمسها السائح ولو كانت عيناه لا تتفتح عادة لمثل هذه الحقائق الجغرافية . إذ لم تعد تحجز امتداد البصر تلال أو جبال أو صخور ، ولم تعد شواطىء الدانوب تشرف من علٍ على مياه النهر المتدفقة ، ولم يعد المسافر على الدانوب يكشف بنظرة واحدة خطط القرى المنحدرة على التلال كما هى الحال عند نوفى ساد .

فهذه السهول الواطئة المنبسطة التى يشقها الدانوب فى مرحلته



ولاحة عند موها كي تحمل رعيها

هذه حتى بودابست ، تمتد مئات الأميال شرقا وغربا دون أن يعترضها عارض ، وفى هذه السهول يعيش الفلاح المجرى حياته القديمة كما يعيش الفلاح المصرى فى وادى النيل راضياً قانعاً ، لا يكاد يتصل بالعالم الخارجى ولا يتأثر بمظاهر المدنيات المتتابعة المتغيرة .

وهكذا تهبط ضفاف الدانوب إلى حدها الأدنى ، فيطغى ماءه عليها وتكثر فيها الجزر ، فيتعرج الشاطىء ويغزو الماء كل فجوة ، ولكن مياه النهر تبدو مع ذلك ساكنة كالبركة . ولا تسير طويلا حتى يصب فى الدانوب نهير أو فرع جديد وقد تتجاور هذه الفروع وتتوازى فتبدو مع ذلك وقد كسيت بالاشجار كأنها مناظر اصطناعية شقت فى بعض حدائق العواصم الكبيرة . وتتوالى كذلك عشرات من تلك الطواحين المائية التى ترسل اليها ما تنبته هذه السهول الفسيحة من الأذرة ، وما كدنا نقترب قليلا من إحدى هذه الطواحين حتى أسرع أربع من الألمانيين وفى يد كل واحد منهم آلة للتصوير لتسجيل صورة لهذه الطاحونة ، وليس هذا بعجيب فهذه الطواحين على الدانوب فى الصرب أو فى المجر مستعمرات المانية قديمة !

طوينامابين موهاكس و بودابست مائتين من الكيلومترات مررنا فى خلالها بعشرات من القرى المجرية يميناً و يساراً ، فالدانوب يسير فى هذه الرحلة فى أرض مجرية بحتة لا ينازعها فيه منازع .

وعلى هذه السهول الممتدة تمرح ملايين من البقر والأغنام والخيول ، تعد ثروة قومية كبيرة فى المجر تعرف خطورتها إذا ما زرت المتحف الزراعى فى بودابست . ولكن السائح لا يعرف مصادر الثروة فى بلد من البلاد إلا من الكتب . فهذه الحقائق لا تبرز لعين المسافر المجردة . ولكن هذه المراعى بأبقارها وخيولها ثروة فنيـة جعلت لسهول المجر شهرة فى كتب السياحة على الاقل .

واذا ما تركت شواطىء الدانوب وأوجلت فى السير شرقا أو غربا فانك تعبر منطقة واسعة من البرارى التى تكسوها الاعشاب ، وتصادف فى طريقك قطعانا عظيمة من الأغنام ترعى فى هذه البرارى تحت عيون كلبين أو ثلاثة . ورعاة هذه الأغنام لا تكاد تميزهم من بين القطيع نفسه حتى تقترب من الواحد منهم ، ذلك لأنهم يلبسون ثوبا يعرف (بالسوبا) يصنع من جلود هذه الحيوانات دون جز صوفها أو دبغهـا ، وهى أشبه شىء

بكيس كبير يعقد حول العنق فاذا رأيت أحد هؤلاء الرعاة متكئاً على عصاه فانه يصعب عليك تمييزه من بين أفراد القطيع .

ولكن رعاة الخيل الذين يعرفون فى المجر باسم «الشيكوس» يمثلون طبعة ممتازة فريدة فى هذه السهول وهم يعتبرون أنفسهم



رعاة الخيل على سهول المجر

أرفع مقاماً من جيرانهم رعاة البقر ، وإن كان هؤلاء يرفعون أنوفهم تيها على رعاة الأغنام وهكذا درجات .

وللشيكوس براعة ممتازة فى رعاية الخيول البرية و براعة فى ضروب الفروسية التى تتطلبها هذه المهمة . و بينما لا ترى الفلاح يعيش منعزلا حيث يعمل فى مزرعته بل يعيش فى قرى قد تتباعد كثيرا عن بعضها ، إذا بهؤلاء الشيكوس وحدهم يفضلون الحياة المنقطعة على هذه السهول فى أكواخ تجاور حظائر الخيل ، ولا يترك الشيكوس وحدته إلا عند ما يزور القرية المجاورة كلما أعوزته حاجة . و إن السبب فى رغبة الفلاح المجرى فى حياة القرية تعود بنا إلى تلك الأيام التى كانت فيها هذه البلاد تحت رحمة الغزو التركى المفاجىء مما كان يجعل هؤلاء الفلاحين فى خطر ما لم يتجمعوا فى مكان واحد لصد هؤلاء الغزاة .

و يتميز الشيكوس بلباسه التقليدى المصنوع من القماش المزخرف المنقوش وبقبعته الدائرة ذات الريش . و يعرف هذا الثوب باسم « الزوب » وله أكمام واسعة كأكمام العباءة بيد انه لا يدخل ذراعيه فيها بل يخيطها عند أطرافها فتستحيل بذلك جيوباً واسعة رحبة .

ومما تشاهد على هذه السهول ، بل مما تتميز به سهول المجر وحوض الدانوب تلك الآبار التى ثبتت عليها سارية عالية تبلغ عشرة أمتار تدار كما يدار الشادرف فى الريف المصرى ، ونشاهد هذه الآبار بسواريها العالية من بعيد . وقد زادت ارتفاعاً فوق هذه السهول المتسعة التى تشبه طواحين الهواء فوق السهول الهولندية الفسيحة .

بودابست

هبطت بودابست فى الليل منذ سنين ، ثم عدت وهبطت بودابست فى الليل مرة أخرى ، ثم عدت وهبطتها فى الفجر .

وكان سحر بودابست فى نفسى عظيما ، لأنها كالفتاة التى تتجمل لعرسها لا تعرض نفسها إلا إذا أكملت زينتها ، والليل يفيض على العروس سحرا ، وفى الليل تبدو بودابست فى ثياب عرسها تبدو رائعة فاتنة ، إذا استقبلتها على مياه الدانوب .

والمجرى يعرف هذه الحقيقة فهو ينصحك أن تستقبل بودابست فى الليل وأن تفد عليها من ضفاف النهر ، بل إنه قد يلح عليك الحاح صاحب الحاجة ويعمل على توقيت وصولك إلى عاصمة المجر فى ساعة محسوبة . وقد سمعت من يقول بأن

القانون يجب أن يسد مثل هذا النقص فيفرض على الأجنبي أن يستقبل بودابست من الدانوب لا من الأرض وأن يهبطها فى عتمة المساء لا فى جلوة النهـار ، إذا ما أخذت المدينة زخرفها وازينت لاستقبال ضيوفها .

وبودابست عند المجرى مكة مقدسة مكرمة ، فهى كالفتاة التى بلغت كمال شبابها عند أم عطوف غيور حسود تزهو بهـا وتدل بجمالها وتشيد بحسنها حتى انها لتنفر السامعين من فرط ما أسرفت فى ازجاء المديح .

وبودابست بعد هذا ليست مجرية ، فهى من تلك العواصم التى ترسم صورة كاذبة عن أهلها ، فليس فيها ما يجب أن نسميه مجريا ، فأزياء المجر الزاهية تراها مرسومة على الورق ولا تراها فى شوارع بودابست ، وليس فيها ما ندعوه فنا مجريا من مطعم أو أو مقهى أو بناء، فمتاجر بودابست تعرض ما تعرض متاجر لندن وفينا وبرلين، ومع ذلك فانك تسمع كثيرا عن بودابست «المجرية» .

وإذا اقتربت من بودابست يتقدم إليك بعض رفاق السفر من المجريين ، يتقدم إليك دون دعوة أو معرفة سابقة ليمهد ذهنك لاستقبال هذه المدينة ، فيصف لك فتنتها ويعدد لك ألوان الجمال فيها

و يذكر لك أنك قادم على مدينة هى زينة المدائن وعروس الدانوب.

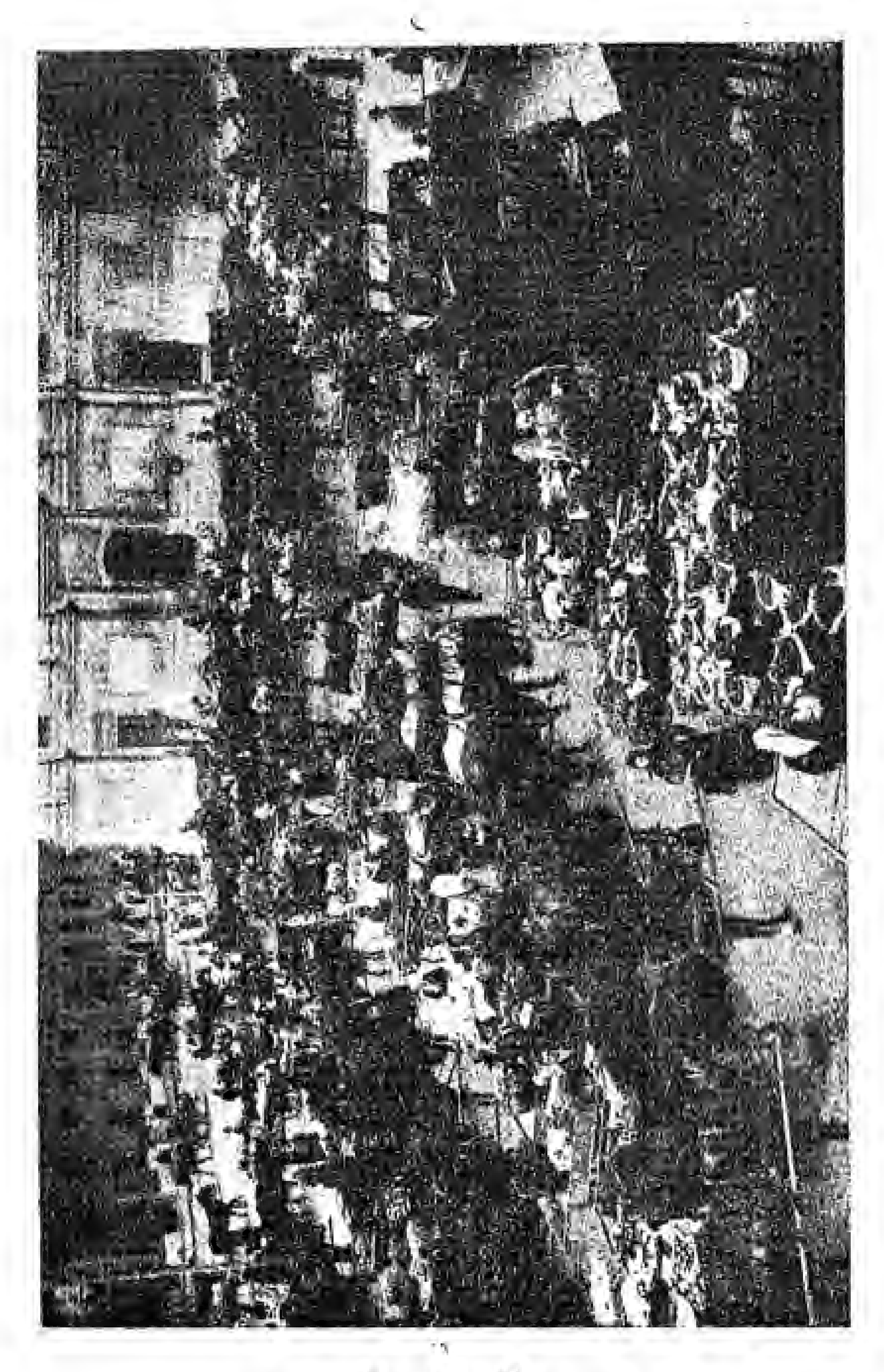
وأذكر تلك الليلة التى قدمت فيها بودا بست للمرة الأولى وأذكر تلك الفتاة المجرية كلارا تورما ؛ التى صحبتها من فينا إلى بودا بست ، وأذكر أنها كيف نسيت كل شيء وقد بدت بودا بست من بعيد وراحت تحكى وتقص وتصف وتمعن فى الوصف ، وراحت تمنحنى النصيحة لتتفتح عيناى لاستجلاء محاسن المدينة ، فلما بدت أنوار بودا أخذت تفصل ما كانت تجمله فى الوصف ، مشيرة بأصبعها فى الظلام إلى ما لا تراه العين ، ولكنها كانت حريصة كل الحرص على ألا يفوتك من مشاهد بودا بست شيئا . ثم إنها صحبتنى فى زيارة بودا بست حتى تركتها .

و بعد ذلك بسنين صحبنا فى الدخول إلى بودا بست مجرى مثل ذلك الدور بعينه وصحبنا فى زيارة بودابست حتى لم يترك لنا فرصة لاختيار ما نرغب فى زيارته ، بل إنه كاد يفرض علينا رغبته فرضا . إن هذه النزعة التى قد نسميها حبا أو وطنية تثقل على الأجنبى مهما كانت الدوافع والأغراض .

تستقبلك بودا بست بأنوارها من بعيد وقد سلطت الأضواء على كل شيء فيها ، على الماء والحجر والأشجار والأبنية والتماثيل ،

وأضيئت القناطر والسفن الراسية والمقاهى والفنادق حتى لم يعد مظالما إلا الانسان ، ففى وسط هذه الأنوار المرسلة والمعكوسة بقى سكان المدينة وحدهم ينتقلون كالأشباح السارية فى وسط هذا النور ! لا شبهة فى أن هذا النور الفائض يبعث فى نفس الزائر أجمل الأثر ، ولا شبهة فى أنه يبعث المرح والفرح فى كل قلب ، ولكن النور الباهر كالموسيقى الصاخبة سرعان ما تسأمها النفس ، وهكذا بودابست بأنوارها الساحرة تحطم أعصاب زائرها بعد قليل ، لأن لليل حرمة وللظلام روعة . وإذا تفتح الصباح فى بودابست أحسست بأن المدينة ما زالت نائمة وأن تلك الزينات الليلية الصامتة قد أصبحت مقبضة حزينة تحت ضوء الشمس ، وأن الدانوب ما زال غافيا بعد ليل طويل .

وإن كان من شىء تدل عليه هذه الحياة الصاخبة فى بودابست ، فليس أدل من حب المجرى للغلو فى التعبير ، فاللغة المجرية نفسها لغة رنانة لها صرير وطنين ، وليس من شعب ينزع رجاله إلى التفنن فى الزى كما ينزع المجرى ، فالأزياء الرسمية سواء أكان صاحبها من رجال الجيش أو من صغار الخدم تبدو للعين كالأزياء المسرحية بألوانها الفاقعة وأشرطتها المذهبة وأزرارها العديدة ، وذكروا أن



يوم السوق في بودابست

هذه الموجة بلغت أشدها بعد « الثورة البيضاء » التى قضى فيها الأميرال « هورتى » على الثورة « الحمراء » فطفق رجال الجيش يفتنّون فى زخرفة لباسهم حتى قيل إن كل واحد من هؤلاء كان له زيه الخاص !

و إذا رأيت شرطيا قرو يا فى المجر بشوار به المفتولة ولباسه المزخرف لتظنه بعض ملوك القرون الوسطى تيها وعجبا . فالمجر ولا أقول بودابست مسرح للأزياء الرومانتيكية التمثيلية .

بودا — بست

ليس من مدينة على ضفاف الدانوب من سولينا على البحر الأسود إلى ريجنز برج فى باقاريا فاض عليها هذا النهر روعة كما فاض على بودابست . لقد رأينا الدانوب فاتنا عند كازان ، ورأيناه رائعا عند آطه قلعة ، ورأيناه مهيبا عند شرنافورة ، ولكنه عند هذه المدينة يبدو فاخرا عظيما . لقد أفاضت عليه « بودا » من روعة مرتفعاتها وقلاعها ، ومنحته « بست » بهجة المدينة الكبيرة !

وليس من عاصمة ربطت شخصيتها بضفاف النهر الذى تقع عليه كما فعلت بودابست : فأنت لا تحس بالسين فى مونمارتر ، ولا بالتيمس فى بيكادلى ولا بالاسبرى فى كورفرستندام ، ولكنك

أنى سرت فى بودا بست فان الدانوب يقطع عليك السبيل ، و يقطع عليك البصر . و إذا غاب النهر عن بصرك استحالت بودا بست إلى مدينة من الدرجة الثالثة .

ولا شك فى أن بودا قد جعلت من عاصمة المجر مدينة يتغنى أهلها بجمالها فدعوها عروس الدانوب ، ولولا مرتفعات بودا التى تنحدر فجأة إلى النهر كما تنحدر مرتفعات « جرنزى بونار » فى بلغراد ، لكان المسافر يعبر هذه المدينة دون أن يحس حيالها بلون من ألوان الجمال .

واستحالت مرتفعات بودا أحراشا وحدائق فاتنة ، تحرسها القلعة القديمة التى إذا أمسى المساء سلطت عليها الأنوار فتبدو أسوارها الحجرية بيضاء كالمرمر ، وتوجت هذه المرتفعات القصور الملكية وزينتها عشرات التماثيل والنصب الحجرية ، وأقيمت على منحدراتها الخلفية بيوت حديثة أنيقة يعيش أهلها بعيدا عن صخب بست مدينة التجارة والأعمال .

و إذا وقفت على هذه المرتفعات امتدت أمامك « بست » على الجانب الآخر من الدانوب وقد صبت شوارعها الفسيحة المنبسطة عند النهر ، تقاطعها البولفارات الدائرية التى تجمع ما بين

أطراف المدينة على نسق ما نراه فى فينا من شوارع الزنج التى تعرف فى بودابست باسم « كُروت » .

ومنذ نحو من ثمانين سنة أصبحت بودا وأبودا (أى بودا القديمة) ضاحيتين لمدينة بست ، بعد أن كانت كل واحدة منهما قرية على جانب النهر الآخر ، وعقدت الصلة بينهما سبع قناطر تعبر الدانوب . وما زالت بودابست تبنى قناطر جديدة كان آخرها قنطرة « هورتى » الجديدة فى طرف المدينة الشمالى ومن هذه القنطرة يرسم الزائر للدانوب صورة سريعة عن بودابست . وهذه القنطرة الحجرية المنبسطة تتنافر مع تلك القناطر التقليدية القديمة التى عرفت عن بودابت بأسوارها الحديدية المتموجة التى تبدو عظيمة إذا تطلعت اليها من بعيد ، وتبدو فاتنه فى الليل إذا زينت أسوارها المتموجة بآلات المصابيح المضيئة .

وبين بودا وبست تجسم فى وسط الماء جزيرة « سان مرجريت » وقد غطتها ألوان النبات حتى إنك لا تكاد ترى عشرات المقاهى والأندية المتبعثرة بين أطراف هذه الجزيرة الأنيقة ، بل إن هذا يستهويك لقضاء يوم بينها .

فى بعض ليالى شهر أكتوبر وصلت بودا بست للمرة الأخيرة لأكتب هذا الفصل ، وكانت الليلة باردة مظلمة ، ومع أن عشرات الأنوار ما زالت تتلألىء على مياه الدانوب كما عرفت بودا بست من قبل ، إلا أنى أحسست بأن المدينة ساكنة صامتة ، وأن أيام الصيف قد ذهبت بروحها وريحانها .

ووقف على الرصيف الحجرى جماعة من الرجال أكثرهم من العمال وأضرابهم يستقبلون المركب المقترب وقد التحفوا بمعاطفهم واختفت أيديهم فى جيوبهم من قسوة البرد .

وعند ماخرجت إلى الطريق النهرى باحثا عن هذا وعن ذاك ، لم أجد قليلا ولا كثيرا ، بل ألفيت ذلك الطريق مقفرا ساكناً مظلما إلا من بصيص مصابيح الشارع ، وبعض الأنوار التى تبص من وراء النوافذ وأبواب الفنادق والمقاهى المرتجة . .

وعند ما تهبط بودا بست فى ليلة من ليالى الصيف تحس بأن الدنيا قد تجمعت فى هذا الطريق وقد صفت مئات المقاعد فى شرفات الفنادق المتجاورة ، وتجاورت المقاهى الصيفية حتى اختلطت مقاعدها ، وتجمع السائرون على أرصفة الشارع وعلى مقاعده العامة

يستمعون إلى عزف الموسيقى ويحس الزائر بأن هؤلاء جميعا فى استقباله تطفح وجوههم بشرا وإيناسا . وليس بعجيب إذاً أن أحس بهذا الفراغ الشامل عند ما وقفت تحت هذه الفنادق العظيمة المقفلة .

وفنادق الدانوب هذه التى تحمل أكثرها أسماء إنجليزية تمثل طبقة ممتازة فى عالم الفنادق ، تفتح أبوابها فى موسم الصيف أو نحوه ، وقيل إن بها طهاة من بين الشعوب التى تجيد هذا الفن . ولكن أما أعرفه أننى وقفت مرة على سور الدانوب إلى جوار بعض هذه الفنادق فجاء إلى صبى يسألنى أن أتبعه لأن أحدا من الناس يرغب فى الحديث معى ، فلما سألت عنه أشار بأصبعه إلى خادم أسود فى شرفة فندق من هذه الفنادق وقال إنه يرغب فى الحديث إليك كأنه حبشى يصنع القهوة فى هذا الفندق !

وأذكر فى هذا الصدد أن إعداد القهوة التركية فن يوكل أمره فى مقاهى الدرجة الأولى إلى خبيرين عارفين ، فالسنغالى ما زال يقدم القهوة «الفلتر» فى مقاهى باريس الكبيرة ، وإن كان السنغال من غير صانعى القهوة ، وفى برلين ما زلت ترى بعض أبناء الكمرون يلبسون الطربوش الأحمر ويقدمون القهوة التركية فى الفاترلند

وغيره من أندية برلين الفاخرة . وعلى كل مركب من مراكب الدانوب الألمانية تركى يبيع القهوة التركية كما يبيع راحة الحلقوم فى حجرته التى تستحيل مقهى تركيا صغيرا .

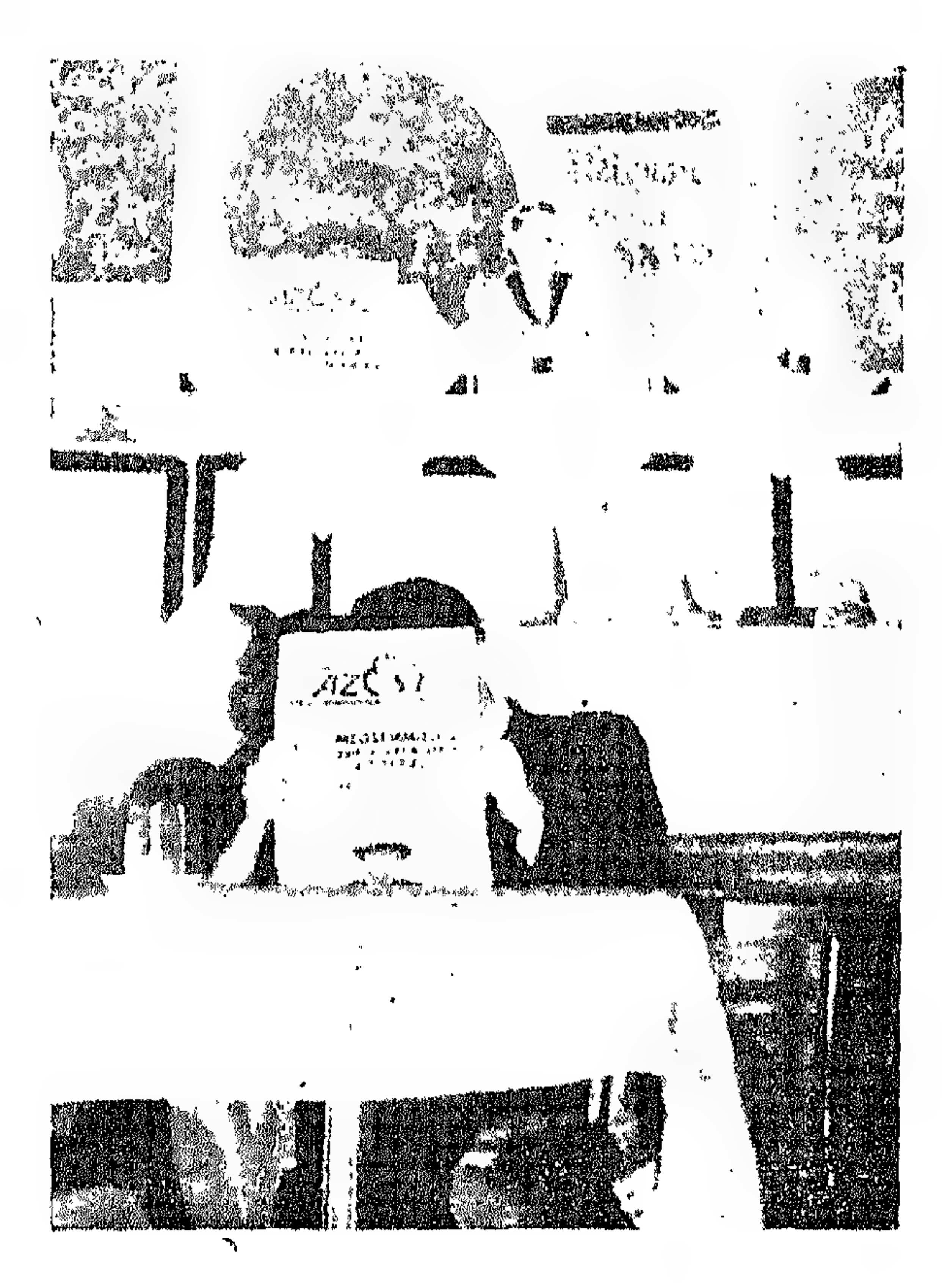
مقاهى بودابست فى روحها مزيج من مقاهى باريس وفينا . فهى تمتد على أرصفة الشوارع تظللها العرائش والخيام كما فى باريس وهى بعد ذلك أندية لقراءة الصحف والمجلات كما ترى فى فينا . وفى هذه المقاهى يتناول الزائر طعام الفطور كما يتنـاول وجبات اليوم الأخرى .

ومع ذلك فان المطـاعم فى بودابست مكانتها الخاصة ، لأن فن الطهى المجرى قد أصبحت له من الشهرة « الدولية » ما للرقص المجرى مثلا ، وأصبحت كل عاصمة أوربية لا تخلو من مطعم مجرى فمطعم «هنغاريا» معروف فى ميدان بيكادلى فى لندن ، ومطعم « أونجارن » لا تخطئه فى كورفرستندام فى برلين .

وشهرة الطهى المجرى هذه التى اكتسحت غرب أوربا لا تقوم على أساس حق ؛ وكل ما فى الأمر أن المجر كغيرهم من شعوب البلقان قد أخذوا فى إعداد طعامهم عن الأتراك الشيء الـكثير ، ولما كانت المجر أقرب هذه الشعوب إلى قلب أوربا لذلك كانت

الطريق إلى نشر هذه الألوان من الطعام شمالا وغربا .

تسمع كثيرا عن «الجولاش» وتدفع ثمنا لهذا الطبق فى مطعم هنغاريا فى لندن بضعة شلنات ، فاذا بهذا الجولاش خليط من اللحم والبصل والصلصة والفلفل ، على نحو ما نأكله كل يوم فى مصر



مجالس بودابست ...

قبل اصدارها إلى الشرق حتى أصبحت هذه التجارة فى خطر المقاطعة .

وكثيرا ما كنا نتردد على مطعم « أونجارن » فى برلين لما يقدم فيه من السمك الذى يعد فى الفرن على نحو ما نعرف ، وكنا ندفع لهذه الشهرة ثمنا غاليا .

والتوابل والأفاويه مازالت سرا من أسرار الشرق كما كانت فى القرون الوسطى ، ومع أن اسواق كوفنت جاردن فى لندن أو الجران هال فى باريس لاتجهل جوالق الفلفل والثوم والبهار إلا أنها لاتجد من يشتريها إلا طهاة حى سوهو أو زائرو الحى اللاتينى .

و بعض مطاعم بودا بست مزخرفة بنقوش مجرية ، لاتعدو تزيين الخشب برسوم زخرفية وصبغه بألوان فاقعة لامعة أو نقشه بصور ريفية تمثل رعاة البقر ورعاة الخيل ، ولكن هذه المطاعم «دخيلة» على بودا بست أعدت على هذا النحو لجذب عيون الزائرين الذين يبحثون فى عاصمة المجر عن صورة للحياة المجرية الأصيلة ، فبودا بست فقدت كل صلة لها بالحياة المجرية وأخذت تسابق العواصم الغربية في تقاليدها وأساليبها ، فلما بعدت الشقة بينها و بين

الوطن طفق أهلها من جديد يعملون على حماية هذا التراث الذى كادت تودى به نزعة التجديد .

وفى السنين الأخيرة انتشرت فى بودابست المطاعم «الأوتوماتية» الأمريكية ، وكنت أتردد عليها بدافع واحد لما يقدم فيها من البطيخ المجرى الشهى ، وهذا البطيخ أصغر حجما وأشد حمرة وحلاوة ، يباع بالوزن لا بالحجم .

وبينما تقفل قهوات الدانوب أبوابها فى أيام الشتاء ويقفر ذلك الجانب من المدينة ، تبدأ من ناحية أخرى منتديات المدينة الوسطى فى الازدهار فاذا سرت فى بولفار الياصبات أو كما يدعونه «ارزبت كوروت» أو فى بلفار «اندراسى» المعروف فانك تستعرض عددا من هذه المقاهى الشتوية الرحبة الأنيقة التى تزدحم فى الساعة الخامسة أو نحوها كما تزدحم بعد العشاء بالمتسامرين وبالراغبين فى قراءة الصحف والمجلات الأجنبية لاسيما الألمانية والانجليزية . وبعض هذه المقاهى قد أخذت بمظاهر التجديد فى أثاثها وزينتها وفى وسائل الاضاءة الحديثة على نسق ما يُرى فى مقاهى الشانزليزيه ، وكنت أجد فيها متعة لقضاء ساعة الشاى .

وفى ذات ليلة خطر لى أن أقضى المساء فى ظاهر المدينة حيث



يمدون اللحوم إلى انجلترا

لا أثر لحياة العواصم : فعبرت الدانوب إلى بودا حتى انتهى طريق الترام فى موضع موحش، وكانت الليلة مظلمة حالكة حتى كاد يتعذر السير، وليس من ضوء يبص من مصباح أو نافذة، وسألت سائق الترام عن مطعم أو نحوه نقضى فيه بعض الوقت فأشار الى بيت فى نهاية الطريق أخفته الأشجار العالية يطلق عليه اسم « الوعل » فكان اسمه يتناسب مع هذه الأحراش التى تحيط به والتى أكسبها الظلام لون الغابة السحيقة .

فطرقنا الباب ودخلنا المكان فوجدناه خاليا خافت النور فانتحيت مع صديقى ع . ركنا وجلسنا نتأمل زخرفة القاعة التى كانت ألوانها زاهية تفرح القلب، زينت بقرون الوعول والغزلان و بعض حيوان الصيد، كما تدلت من الأعمدة والابواب ألوان الخضر فكان المنظر بهيجا ؛ فلم نرد أن نقطع حبل هذا السكون الشامل بالنداء على الخادم من الحانة المجاورة التى يفصلها من هذه القاعة باب مستور . وقد اجتمع حول موائدها رهط من الملاحين والصيادين يلعبون الورق و يحتسون الجعة حتى إذا مضى بعض الوقت خرج هؤلاء وفتح الباب فدوى ضجيجهم ؛ فلما عرفوا مكاننا رجع بعضهم يخبر صاحب المطعم فتجمعوا خلف زجاج الباب

ينظرون الى هؤلاء الضيوف الغرباء .

وكان صاحب هذا المقهى ألمانياً كما دل على ذلك اسم المكان وأكواب الجعة الباڤارية الكبيرة وزخرفة المطعم ، فقدم إلينا بيضاً وأرزا مسلوقا و بعض الخضر وشراب التوت .

وفى المجر نحوا من مئتى ألف من هؤلاء الألمان يعيشون حياتهم و يحيون تقاليدهم . و يتكلمون لغتهم و يمثلون طبقة معينة لاسيما فى حياة المجر الريفية ، والفلاح المجرى مع حرصه ورغبته فى الاستقلال بموارد قريته عاجز عن الخلاص من هؤلاء الألمان الذين يعرفون أصول الفلاحة والتجارة والصناعة بأساليب تجعل الفلاح المجرى تحت سيادتهم ، فهو يحقد عليهم لعجزه عن منافستهم ولكنه يحس بأنهم أقدر منه وأكثر معرفة وحذقا ومهارة ، فالمنافسة معهم لا تجدى ولا تفيد ، وهذا الحقد يبديه الفلاح كذلك لكل غريب يهبط القرية لاسيما إذا كان من أبناء المدن ، فهو يتوجس منهم خيفة و يرميهم بالغدر و يعاملهم على حذر و يكف يده عن مساعدتهم ، لأنه فوق ذلك يعتبر أبناء المدن عالة عليه يعيشون من كده ونصبه فالرجل الذى لا يزرع ولا يحصد ولا يرعى الخيول والخنازير مثله لابد وأنه يعيش بالنصب والحيلة

فأبناء المدن جميعهم من هذه الفئة التى لا تستحق رعاية وعطفا فقد حدث مرة أن أصاب سيارة عطل فلم يتقدم فلاح واحد إلى مد يد المساعدة لصاحبها بل أنهم تجمهروا حولها متفرجين حتى جاء رجال الشرطة وأنبوهم على تقاعسهم هذا ، ومع أن هذه الروح حقيقة واقعة غير أن الفلاح المجرى معروف بكرم الوفادة إذا ما أمن جانب الغريب الطارىء .

ولو أن اللغة الألمانيــة تعرفها الــكثرة الغالبة فى بودابست وغيرها من بلاد المجر ، إلا أن المجرى يتجاهل هذه الحقيقة بشتى الوسائل . فهذه اللغة تذكر السامع بأيام الامبراطورية النمسوية ، كما تذكره بالسيادة الثقافية الجرمانية على هذا الجانب من أوربا وهذا مالا يريد أن يقره مجرى . فقد رأيت مجريا يتحدث إلى بالفرنسية — وهى لغة مجهولة فى أوربا الوسطى — لأن هذه اللغة لا ترتبط بمثل ما ترتبط به اللغة الألمانية من ذكريات . وسألت مرة سائقاً للترام فتصامم وعمل بعض الركاب على ترجمة كلامه المجرى ، حتى إذا خلا المكان عادت قدرته على فهم اللغة الألمانية والــكلام بطلاقة ! وكأنه كان يخشى أن يسمعه سامع وهو يتكلم بهذه اللغة . وقد ذكرت إلىّ سيدة فى فينا أنها نزلت فى ضيافة عائلة مجرية فى بودابست

تجمعها وإياها أواصر القرابة ، وشاء هؤلاء إلا أن يلتزموا خطة الكلام بلغتهم حتى امتنع الحديث والسمر وأصبحت أيام الضيافة ثقيلة لا تحتمل .

واللغة المجرية ليست من اللغات التى تشجع الغريب على التقاطها أو تفسير ألفاظها ، فقد عرفت فى رحلة الدانوب صبيان من أبناء فينا حذقوا مبادىء كثير من لغات البلقان إلا أن اللغة المجرية أعجزتهم عن تعلم أصولها أو بعض عباراتها الشائعة . ومع أن بودابست من مدن السياحة إلا أن اللغة المجرية هى التى تدون وحدها على اللوحات العامة وغيرها من الأماكن التى يتردد عليها الزائرون كالمتاحف ونحوها — وحدث مرة أن وقفت طويلا لأفرق بين ما هو مدون على بعض الأبواب العامة أهى للرجال أم للنساء ؟

الغجر

أصبح الغجر عنصراً عاملا فى الحياة المجرية . فالحياة المجرية ينقصها الكثير إذا خلا مكان هؤلاء « السيجانه » كما يسمونهم فى المجر ، بل إن المجر تفقد ثروة وطنية كبيرة إذا نزح هؤلاء الغجر عن سهول هذه البلاد .

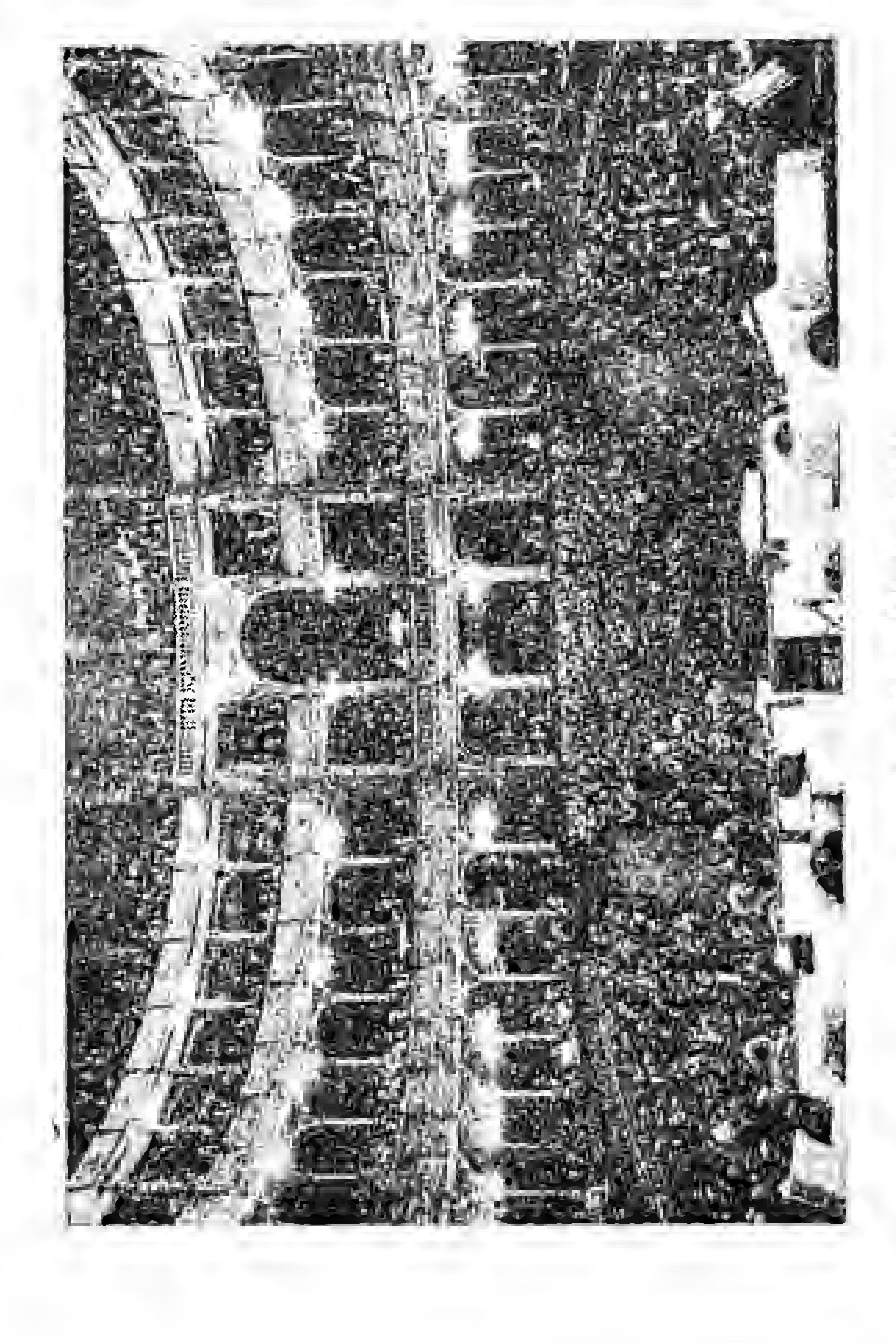
وفى كل طريق يتشعب على البلقان وفى كل قرية على الدانوب

تجد قوافل الغجر تذرعها شمالا وجنوبا ، وتجد مخيمات هؤلاء السيجانه تستعد للمقيل وتستعد للرحيل ، بيد أنهم فى المجر تتهيأ لهم من أسباب الحياة ما يجعل تقاليدهم تبدو فى أكمل صورها وأزهى ألوانها ، فالموسيقى الطروب هى موسيقى هؤلاء الغجر التى أصبحت فناً له طابعه الخاص .

والعجيب أن هؤلاء الغجر يتلقون أصول الموسيقى من الطبيعة نفسها فليس فيهم من يعرف أن لهذه الألحان والنغم قواعد وأصولا ، وجمهرتهم أميون يجهلون القراءة والكتابة . وليست لألحانهم التى يرددونها كلمات تفسرها بل هى موسيقى صامتة ، ولكن وراء هذه الألحان لهم قصصاً وحكايات هى التى توحى لهم بتلحينها .

والغجرى يعزف بكل ما تصل اليه يده من آلات الموسيقى بل هو الذى يفتن فى صناعتها حتى قيل إن الغجرى إذا أعطى صندوقا فارغا وقطة ميتة سرعان ما ترى فى يده مزهرا يرسل الأنغام والألحان ! فهو يعزف على ما يشبه الربابة والقانون والعود و يضرب على الدف والرق و ينفخ فى الناى ، يصنعه من القصب والعود كما كان يفعل قدماء اليونان .

وأصبح هؤلاء الغجر حماة الموسيقى على شواطىء الدانوب



ليلة فى دار الاوبرا فى بودابست

يتصدرون الأفراح والأعياد والمحافل والليالى الراقصة ، وليس أروع من أن تشاهد ليلة عرس راقصة بين الغجر وقد نصبوا خيامهم بعيدا عن العيون المتطلعة ونسوا كل شيء إلا متعة الجسد فنصبوا قدور اللحم والجولاش أو الماماليجا على نار الحطب وطفقوا يأكلون و يشربون و يعزفون و يغنون و يرقصون رقصات أعمتها الشهوة حتى لا يعرفون موضع أقدامهم ، فإذا ثقلت رؤوسهم وكلت أقدامهم تمددوا حيث يجدون أنفسهم رجالا ونساء جنبا إلى جنب دون تفريق أو تمييز !

وهكذا مهدت الموسيقى لهذه القبائل الجائعة الرحالة الطريق إلى الغنى و إلى حياة المدنية ، فوجدت موسيقى الغجر مكانا لها فى المقاهى والمراقص والفنادق الكبيرة ، وعرف أهل بودابست أن الأجنبي إذا ما هبط المدينة سأل عن هؤلاء الغجر لا حبا فى الموسيقى ولكن رغبة فى استجلاء صورة ارتبطت بالحياة المجرية أوثق رابطة ، لذلك مهدوا لهؤلاء الغجر السبيل إلى العاصمة ودعوهم يهجرون خيامهم وقدورهم وكلابهم إلى حياة تنفر طبيعتهم من قيودها وتقاليدها ، ولكن المدينة سحرها على كل حال .

ومقهى (أوستند) فى بودابست كرّسه أصحابه لموسيقى الغجر

فأصبح له لونه بين مقاهى بودابست . طرقناه ذات ليلة فى رفقة شاب مجرى عرفناه على الدانوب ولم يرد إلا أن يكون دليلنا ، ومع أننا كنا نتهرب من لقائه ونخلف مواعيده فلم يزده هذا التخاذل إلا ثباتا و إمعانا فى الملاحقة ، ولا أنكر عليه كرمه وحسن وفادته فقد أبى إلا أن يدفع ثمن ما طلبنا فى تلك الليلة وأن يشترى بعض البطاقات التذكارية عربونا لهذه الصداقة ، ولكن ما آخذه عليه هو هذا الامعان فى الملاحقة وهذه الرغبة الملحة فى أن يوجه ضيوفه حسبما يروق له لا كما يحلو لهم .

ولم يكن ذلك المقهى الفسيح حافلا بزائريه حين طرقناه فى الساعة التاسعة ، ولكن ما دارت الساعة دورة حتى لم يكن فى المكان مقعد خال ، وجاءنا الخادم بأطباق الفاكهة وأطباق الجوز واللوز والبندق فكان تقليدا طريفا بدلا من أقداح القهوة والشاى لا سيما فى مثل هذه الساعة المتأخرة . ثم جاءت بائعة الورد تتخير الموائد العامرة بالمرأة ، وراح بعض المعجبين يرسل معها باقات الورد إلى الموائد المجاورة عربونا لصداقة فى دور الازدهار . وكانت تقدم للجالسين مذبات من القش نقش عليها اسم ذلك المقهى .

وفى الساعة العاشرة بدأت الفرقة فى عزفها . وقد قيل لنا إنها

فرقة من أطفال الغجر فكان ذلك أكبر حافز لنا على ارتياد المكان ولكنى لم أر بينهم من أدعوه طفلا إلا بضعة نفر ، وكان البقية من الصبيان والشبان بيد أنهم كانوا يلبسون أزياء الطفولة مما جعلهم يظهرون بمظهر الصغار وان كان البعض منهم قد نبت شعر وجهه . وكان كل طفل أو صبي يقود الفرقة مرة، فاذا جاء دور أحد هؤلاء الصغار رفعه بعض الخدم على مقعد عال حتى يكون فى موضع النظر .

ولا شك فى أن هؤلاء الصغار بعيونهم الواسعة السوداء وشعرهم الفاحم وبوجوههم التى لم تهذبها بعد رقة المدنية وهم يعزفون ويوقعون ألحانهم الفطرية ويترنحون فرحا ومرحا كغيران سكرى أذهلها الشراب ، لا شك فى أن رؤية هؤلاء مما لا ينساه الزائر لبودابست .

وكانت تنقل الموسيقى بالمذياع ، فوضع فى صدر المكان الجهاز اللاقط والى جانبه مقعد عال وقف عليه رئيس الفرقة وهو فى السابعة من عمره وراح يلوح بعصاه ويبتسم ويضحك وينحنى للمصفقين . حتى إذا انتهت الاذاعة نزل من مكانه وأخذ يدور حول الجالسين

يبيع بطاقات تذكارية . وكان عليه أن يكتب اسمه بلغة السيجان خلف كل بطاقة ، فكان امتحانا قاسيا له .

• • •

وليست قبائل الغجر جميعها ترتزق بالموسيقى وليست شهرتهم فى البلقان معقودة باستعدادهم ومقدرتهم الفنية هذه . بل إنهم



الغجر

على النقيض من ذلك غير مرغوب فى جوارهم فقد عرف عنهم ما جعل الناس فى حذر وفرق منهم . فالقتل والقسوة عرفتا عن قبائل

الغجر فى الصرب الذين يقطعون الطرق المنعزلة على السائرين ولا يتورعون عن القتل والسلب والنهب ، وقد يغيرون على قرية لسرقة طفل ولا يتورعون عن فقأ عينيه وتحطيم ساقيه ليكون وسيلة للاستجداء .

والسرقة والنشل فى طبيعة الغجر ، وهم لا يتعففون عن سرقة ضيوفهم والاحتيال على الصغار والأطفال ، ومهارتهم فى ذلك مثار للعجب فلعل تلك الأصابع الدقيقة التى تلعب بالأوتار هى بعينها تلك الأصابع التى ترسل برفق إلى الجيوب والصدور للنشل ، فاذا هبطت قافلة من الغجر قرية من القرى تفتحت لهم العيون ، فالطفل الغجرى أشد خطرا من أبيه والفتاة الغجرية الفاتنة أشـد خطرا من أمها .

وهم بعـد ذلك يعيشون بالحيل وأساليب الخداع فيبيعون الأحجبة والتعاويز ويقرأون المستقبل ويبيعون الخيل المسروقة ، والخيول الهرمة بعد علاجها بأدوية تعيد شبابها إلى أن تنتهى الصفقة . ولما تـكتشف حيلهم تـكون القافلة قد اختفت .

و بعض هؤلاء الغجر يشتغلون بصناعات عرفت عنهم كالحدادة و برادة المسامير والصياغة واعداد الفحم من الخشب وطلاء آنية النحاس ، وهم يهبطون القرى فى فصول معينة و يعيشون فى عرباتهم

و ينصبون خيامهم فى ظاهر القرية ، فيغتسلون و ينشرون ملابسهم و يوقدون نارهم و يحملون بضاعتهم يجوسون بها خلال القرية .

وليس لهؤلاء الغجر زى يعرفون به الاهم إلا الأطمار البالية والثياب المهلهلة ، ولكنهم مع ذلك لهم شهرة فى تفضيل الألوان الفاقعة والأزياء الصارخة والتزين بما يقع تحت أيديهم من أنواع الحلى .

واذا وقع فى يد أحدهم معطف من معاطف الجيش تاه به زهوا وراح يزينه بكل ماتصل اليه يده من الأزرار وقطع الزجاج والأشرطة الملونة ، فحب الزينة عند الغجر نساء ورجالا حب عميق ولعله من دوافع السرقة عندهم ، فالغجرى يزين ملابسه بكل ماله بريق واو كان من غير أدوات الزينة .

و يعيش أطفال الغجر صبيانا و بنات عرايا إلى سن متقدمة ، ولاتتستر الفتاة إلا بما يقع فى يدها من الثياب دون تمييز بينها ، فالحياء الجنسى أضعف مايكون بين هؤلاء الغجر .

واللص. كما يقولون لا يثق باللص وهكذا هؤلاء السجان ، ولما كانت فرق الغجر لاتمنح عادة أجرا بل تكتفى بما تجمع من منح السامعين ، فقد قيل إن من يرسلونه لجمع هذه النقود فى قبعة

مفتوحة يضعون فى يده اليسرى ذبابة حية حتى لا تمتد شماله إلى ماتحمله يمينه، فاذا عاد فحص زملاؤه الذبابة فعلى حياتها تعتمد درجته من الأمانة وقد حدث مرة أن شكّت الفرقة فى أمانة رسولها مع أنه رجع وفى كفه الذبابة حية ، وحجتهم فى ذلك أنها ليست الذبابة التى أوتمن على حياتها !

القصر الملكى

كانت زيارة القصر الملكى فى بودا زورة عاجلة، بل كان البحث عن باب هذا القصر قد استنفد وقتا أطول من تلك الدقائق التى قضيناها بين جدرانه ، ودفعت بنجوين أجرا الدخول . والقصور الملكية فى أوربا التى خلت من أصحابها لا تكاد تعد ، ومع ذلك فانك تكتشف بعد أن تزور أربعة أو خمسة منها كيف أنها تتشابه وتتقارب ذوقاً وتقليدا ، فالملوك يقلد بعضهم بعضا كما تقلد الجماهير بعضها . وهم يتنافسون فى دائرة محدودة فلا يكاد يبرز فنان أو مصور فى بلد من البلاد ولا يكاد يفتح قصر من القصور الملكية أبوابه لمثل هذا المصور حتى تجده قد تلمّس طريقه إلى القصور الأخرى دون استثناء . ففن « الباروك » الذى تشاهده فى قصر سان سوسي و بونسدام تشاهده فى هذا القصر ،

ثم ان أولئك الفنانين الذين زينوا شن برون فى فينا هم أنفسهم الذين زينوا قاعات هبسبرج فى هذا القصر .

ومع ذلك فليس لك فى أن تزور بودابست دون أن ترتقى مرتفعات بودا ، واذا كان لك ذلك فان بضع دقائق تقضيها بين جدران هذا القصر ليست بالوقت الطويل إذا كان أجر الدخول أمراً تافهاً لديك



يحرسون تاج المجر

ارتقينا هذه المرتفعات بعربة من عربات الاجرة — وكان ذلك على غير رغبة منى اقتصاداً بالطبع — وأخذ سائقنا يدور ويلف فى طريقه إلى رأس هذا التل الذى يعرف باسم « جيلرت تيجى » أو جيلرت برج ، تمجيدا لاسم ذلك القديس جيلرت أسقف سَناد الذى قيل إنه أجلى الوثنيين عن هذه المرتفات منذ تسعمئة من السنين ؛ وفى المكان الذى مات فيه هذا الرجل وبعد ثمانية قرون من وفاته جاء من رأى تخليد ذكره فأقيم فى طريق السائرين من الدانوب إلى القصر الملكى تمثال كبير للقديس جيلرت وهو ممدود الذراع كأنما يبارك النهر .

وطفق سائقنا فى دورانه يبحث عن باب أو نحوه يقف عنده حتى اقترحنا عليه أن نكفيه مشقة البحث فطرقنا بابا بعد باب دون أن نجد حارسا أو نسمع مجيبا . فهذا القصر الذى يمتد ثلاثمئة متر على الدانوب ويحوى تسعمئة غرفة أصبح بعضه سكنا للوصى على عرش المجر وبعضه معرضا للفرجة ، وبعضه مقفلا لا لهذا ولا لذاك .

حتى إذا اهتدينا إلى الباب تقدم إلينا دليل بخطى متثاقلة وهو ينظر الىّ وصديقى دون رغبة صادقة لرفقتنا إذ أن ما ينتظره من

منحة لا يقاس بها ينفح إذا كان الزائرون عصبة كبيرة . وكان ذلك من حسن الحظ لأنه اقتصد فى شرحه واقتصد فى طوافه . وكان صاحبي ممن لا يرغبون فى استقصاء بل كان يكتفى بالنظرة الشاردة إلى القاعات والجدران والصور ، وكنت بدورى زاهدا فى ذلك بعد أسابيع طويلة قضيتها فى فينا ، حتى أصبحت حياة القصور أمرا لا يثير فى النفس أكثر مما يثيره عرض تمثيلى .

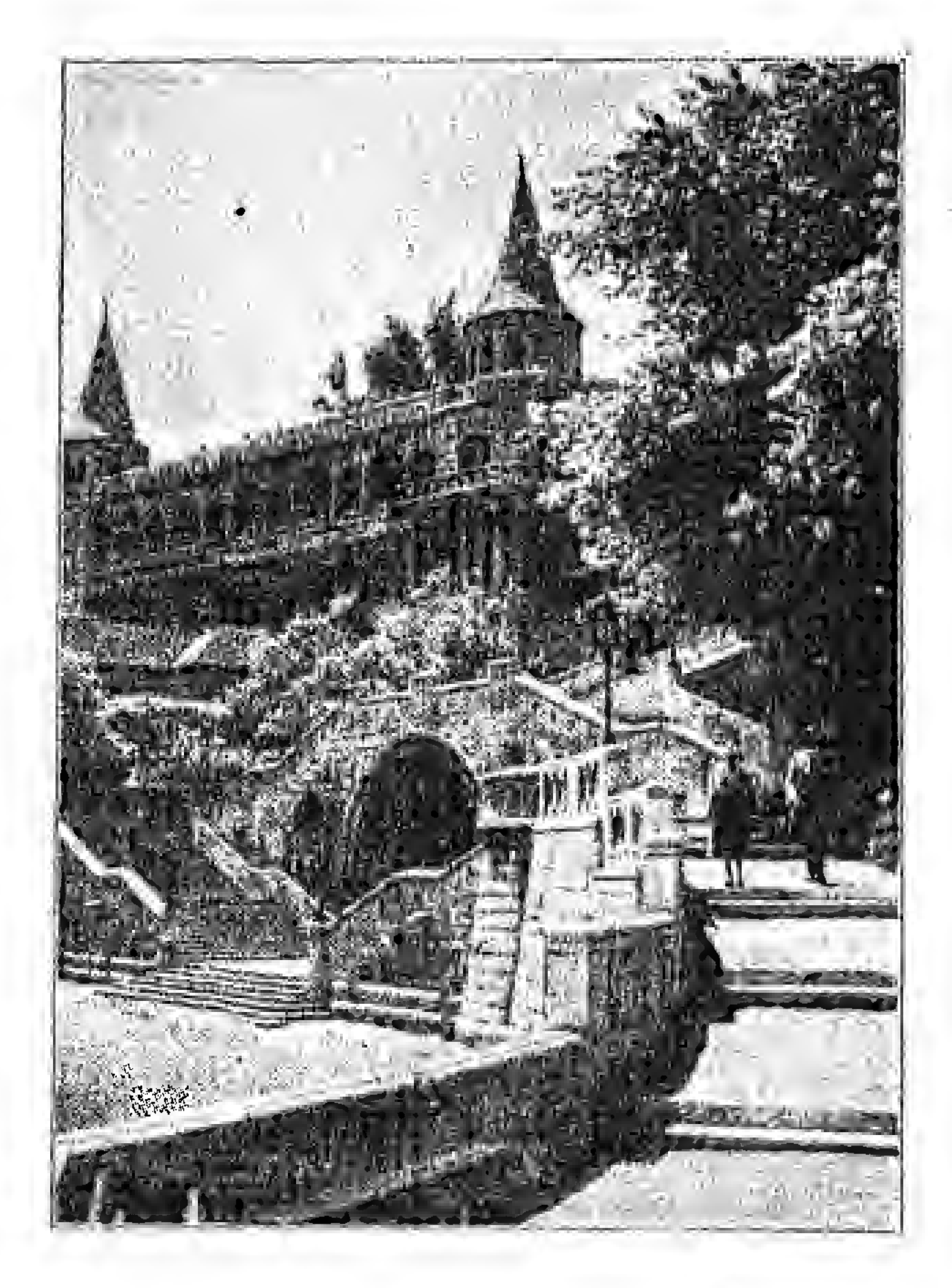
ففى قاعة ماريا تريزا — أمبراطورة النمسا — تدلت ثريات من الخشب الدقيق على أسلوب ما يفعله تلاميذ المدارس ، ولكنك إذا شققت قاعة الرقص الواسعة الرحيبة ترى ثريات من الفضة الخالصة ومن زجاج البندقية يبلغ وزن ما فيها من فضة طنا كاملا ، و يبلغ عدد مصابيحها عشرين الف مصباح — وقد ذكر دليلنا أنها اثنان وعشرون الف مصباح على سبيل المبالغة دون حاجة إلى ذلك كأن عشرون الف ليست بالعدد الكبير !

وفى قاعة الرقص هذه مكان لفرقتين من فرق الموسيقى العسكرية والغجرية ، وقد زينت جدرانها بالرخام الملون تذكرك بقاعة الرقص فى قصر برلين . و إذا دخلت هذه القاعة من الباب الاوسط تخترق ردهة صفت فيها مئات المشاجب التى يودع عليها

الزائرون والزائرات معاطفهم ومظلاتهم . وعندما زار ملك ايطاليا بودابست منذ بضع سنين أقيمت فى هـذه القاعة حفلة استقبال راقصة .

وتعلو قاعة هبسبرج قبة القصر الوسطى وهى التى تراها تتوج مرتفعات جيلرت من بعيد وفى هذه القاعة تماثيل نصفية لماريا تريزا والملكة الياصبات والامبراطور فرانز جوزيف وكارل الثـانى . ومن أجمل طرائف الفن فى هذا القصر تمثال سارق الاوز وكنت أعجب بهذا التمثال من قديم بيد أنى لم أكن أعرف أنه من مخلفات قصور بودابست : وهو تمثال من المرمر الأبيض يمثل بعض صبيان الغجر يسرق أوزتين . ولا أظن أن فى القصر بعد ذلك مايستحق التسجيل أو لعل دليلنا لم يسمح لنا إلا بهذا القدر فكان فيه الكفاية .

وأخذنا طريقنا إلى النهر مشيا على الأقدام وليس لك الا أن تركض وأنت تهوى مئتين من الأمتار من رأس هـذا التل إلى القنطرة المعلقة ، فوق درجات عريضة واسعة متقاربة تضاعف الجهد ، وتمر فى طريقك بمـا يعرف فى بودابست باسم « هالاس باستاى » أو منعطف السماكين ، إذ كان سماكو الدانوب يحرسون



على مرتفعات بودا — هالاس بستاى

هذا الجانب من النهر فى تلك الايام التى كانت فيها بودا فى خطر الغزو المفاجىء .

متحف البرلمان

دار البرلمـان فى بودابست كدار البرلمان الأنجليزى تشرف كل منهما على مياه التيمس وعلى مياه الدانوب ، بنيت كلتاهما من حجر جيرى لوحته عوامل الطبيعة وقد شيدتا على النمط القوطى ببروجه الدقيقة واعمدته العديدة ونوافذه المتجـاورة فبينما كانت بودابست تحت سيادة النمسا إذا بها تشيد دارا للتشريع تفوق بهاء وفخار دار البرلمان فى فينا نفسها إذ قضوا خمسة عشر عاما فى بنائها واستكملت عمارتها فى أول هذا القرن . ومع أن تاريخ النمسا راعية المجر أوسع نطاقا فان دار البرلمان فى بودابست يحف بها تسعون تمثالا و يزين أركانها مائة وستون تمثالا آخر !

ثم تدخل من الباب السابع عشر ! إلى حيث المتحف البرلمانى وهو متحف يضم تذكارات تمثل المراحل البارزة فى تاريخ المجر والحياة الدستورية فيها منذ القرن الماضى ، وقد يكون فى هذا الوصف شىء من المغالطة لأن هذا المتحف كما يحكم عليه الزائر قد انشىء لتمجيد أفراد بل فرد واحد له أثره فى تاريخ المجر فى خلال القرن

التاسع عشر ، هذا هو لاجوس كوسوث .

والزائر الذى يجهل تاريخ هذا الرجل يفقد الكثير من معانى معروضات هـذا المتحف . وبعد ان قرأت تاريخ هذا الزعيم خرجت بحقيقة واضحة هى أن كوسوث هذا خير مثال يصور المزاج المجرى لهذا ليس عجيباً ان يصبح بطلا من أعظم أبطالهم فى تاريخهم الحديث ، لا لأن كوسوث حقق اطماعا أو آمالا قومية (وهذا لم يفعله تماما) بل لانه عرف كيف يثير عواطف قومه ، والعجيب ان كوسوث فقد جنسيته المجرية لانه عاش نيفا وعشر سنين وراء حدود المجر ومات فى تورين فى عام ١٨٩٤ .

يشاهد الزائر لهذا المتحف مجموعات من الرسائل ، وهذه حجر الزاوية فى تاريخ كوسوث ، فقد بدأ حياته بكتابة رسائل شخصية يصف فيها ابحاث المجلس النيابى ، وكانت فينا ترى ان فى نشر مثل هذه الابحاث ما يوقظ القومية المجرية ، ولاقت هذا الرسائل نجاحا حتى انها أصبحت شبه جريدة ذات نسخة واحدة تتداولها الايدى . ومن ثم اشتغل كوسوث بالصحافة والتأليف ثم بالخطابة وكانت له القدرة على اثارة حماس رجل الشارع حتى ان رسائله كانت تقرأ فى شوارع فينا نفسها .

وكان كوسوث يسعى للتخلص من الحماية النمسوية و يعمل على استقلال المجر ونجح فى ذلك حتى وصل الى مقعد النيابة وكرسى الوزارة . بيد انه كان يرمى بالانانية لابالوطنية المجردة ، وكانت طبيعته الثائرة تدفعه الى خلق المشاكل التى لايمكن لمثله أن يعيش فى غير ظلها فعندما قلد وزارة المالية أصدر أوراقا مالية كان اسمه عليها أوضح نقش فيها حتى دعاها العامة « أوراق كوسوث » وعندما انشأ حزبا دعى جريدة الحزب باسمه فليس غريبا ان يتهمونه بالانانية المرة .

وسجن كوسوث و بقى فى محبسه خمس سنين فنقش بذلك اسمه بين أبطال بلده ، ثم إنه تعلم الانجليزية وهو فى سجنه فبذلك شق طريقه إلى العالم الأوربى والأمريكى ، ثم توالى هربه وتشريده وحمل معه تاج الملك اسطفان ودفنه فى ركن مهجور على ضفاف الدانوب فى رومانيا كما فات ذكر ذلك . وانتهى بكوسوث المطاف فى تركيا عدوة المجر القديمة ففتحت له صدرها وأنزلته وزوجه وأولاده منزلا رحباً فى كوتاهيا ، ومن ثم نزح إلى فرنسا ثم انجلترا ثم أمريكا الشمالية والجنوبية ثم ايطاليا ، وكان فى هذه الأثناء جميعها يعمل على الدفاع عن قضية استقلال بلده بالكتابة والخطابة ، حتى أن استقباله فى لندن كان حافلا لا يقارن إلا باستقبال لندن للزعيم

الايطالى غاريبلدى بعد هذا التاريخ بعشر سنين . يمثل هذه الفكرة عن حياة كوسوث تزور المتحف البرلمانى لتشاهد فصول هذه الرواية عن حياة هذا الرجل الذى اختلف فى تصويرها رجال السياسة ، ولكنه ما فتىء فى نظر كل مجرى بطلا من أبطال النهضة الحديثة ، فتشاهد مصوراً جغرافياً كبيرا على نحو ما تطبعه شركات الملاحة وقد رسمت عليه خطوط تمثل رحلات كوسوث الى أوربا وأمريكا وآسيا تذكرك برحلات البارجة امدن فى الحرب الكبرى ، كما عرضت صور للحفاوة به فى لندن ونيويورك وقصاصات للصحف التى تكلمت عنه ، وقد كانت جريدة التيمس فى ذلك التاريخ ميدانا لكوسوث ونصرائه وخصومه ، كما نقش مجمل لترجمة حياته بخمس لغات دونت بخطوط كبيرة على بعض جدران المكان .

ثم عرضت غرفة كان يسكنها هذا الزعيم ، كما عرض أثاث غرفتين لزعيمين آخرين من زعماء الاستقلال هما فرانس ديك واستيفان تيزا تذكرك بغرفة موسولينى التى كان يسكنها فى ميلان إبان اشتغاله بالصحافة والتى عرضت فى المتحف الفاشستى فى روما ، كما تستعيد إلى ذاكرتك غرفة نابليون فى سنت هيلين التى يعرضها متحف الشمع فى بلفار مونمارتر فى باريس . وفى هذا المتحف كثير من

الطرائف التى لا تسأم العين النظر اليها لا لأهمية خاصة بل لأنها صور نابضة للحياة، فهذه الخطابات بظروفها وعناوينها وأختامها وهذه المكاتبات والمذكرات الشخصية بخطوطها الرديئة التى كان يكتبها ويدونها ويتبادلها رجال السياسة فى عصور مختلفة ، هذه المخلفات لها أثرها فى النفس لأنها خالو من التزويق ، والمخلفات لها قوتها فى رسم صور التاريخ : فمنديل نابليون فى متحف الانفاليد كغيره من ملايين المناديل ولكنه مع ذلك يستثير الخيال عند رؤيته ، أو كهذا الجواز الذى كان يحمله كوسوث باسم مستعار ، أو كهذا الملتمس الذى ذيل بعشرات الأسماء ، كل هذا جعلنى أتمهل فى زيارة هذا المتحف الذى ينفرد عنه غيره من المتاحف .

وفى الطابق العلوى — وقد فرشت درجات السلم الرخامية بالأبسطة الملونة — عرض تاريخ المجر فى سلسلة متلاحقة من الصور دوّن إلى جانب كل صورة منها تفسير لما تمثله كل صورة من هذه الصور فاذا انتهى الزائر من ملاحقة هذه الرسوم فانه بذلك يرسم صورة مجملة عن تاريخ المجر أو على الأصح للحوادث البارزة فى هذا التاريخ ؛ وليس عجيباً أن ترى عصوراً بأسرها نسى الرسام تسجيلها لحاجة فى النفس ، فالعصر التركى الذى امتد قرنا ونصف قرن قد أهمل

بأسره ! و بينما كنا ندور حول هذه القاعة إذا بموكب طويل من تلاميذ المدارس يندفع إلى مكاننا ، فالفنان كان ولا شك محقاً فى تجنيه على التاريخ ، لأن هذه الفجوات فى تاريخ الشعب تضعف تلك العاطفة النبيلة التى تعصف فى نفوس الصغار .

ثم اننى ختمت هذا التطواف بقاعة أخرى مثل فيها تاريخ الحرب الكبرى بصور شمسية ملأت الجدران حتى لاتكاد تعرف أين تبدأ وأين تنتهى ، ولكنها كانت كمئات غيرها من الصور التى تزدحم بها المتاحف الحربية فى طول البلاد وعرضها . والى جانب هذه عرضت صور حديثة وقصاصات من الصحف تمثل زيارة ملك ايطاليا الى مجر كما تمثل الأميرال هورتى وصى العرش المجرى فى بعض سياحاته الأجنبية ، فمتحف البرلمان كما ترى جدير بأن تمنحه بضع ساعة إذا ما حدث وزرت هذه المدينة .

سنت مرجريت

منذ سبعمئة سنة حكم هذه البلاد ملك يسمونه « بيلا الرابع » وفى هذا التاريخ أو نحوه كانت جيوش التتر قد نفذت إلى قلب أوربا فحكمت أهلها بالسيف والنار ، واستطاب هؤلاء التتر سهول المجر وعولوا على الاقامة طويلا ومامن قوة تدفع هؤلاء الغزاة عن ذلك !

فدعا الملك بيلا ربه أن إذا نجاه و بلاده من هذا البلاء فانه ينذر ابنا من أبنائه لعبادته. ولكى تصطبغ هذه القصة بروعة الخرافة فقد حدثت الاعجوبة إذ عاد التتر أعقابهم من بلاد المجر، وبر الملك بيلا بقسمه فدفع طفلته الوليدة إلى الرهبنة، و بنى ديرا فى جزيرة ترتفع على مياه الدانوب بين بست وبودا كانوا يدعونها جزيرة الارانب. وفى هذا الدير وعلى هذه الجزيرة عاشت الأميرة الراهبة تتعبد وتصلى وتجمع الحطب وترفع الماء من البئر.

وكان اسم هـذه الاميرة الراهبة مرجريت، وسميت جزيرة الأرانب من بعدها بجزيرة القديسة مرجريت.

و إذا هبطت بودابست فى يوم من أيام الصيف كان اسم جزيرة سنت مرجريت أول ماتسمع فى معرض الكلام عن مباهج هذه المدينة، وأول مايُقترح عليك أن تشاهد فى بودابست، ولم تعد سنت مرجريت ديرا يزار و ينقطع فيه الرهبان إلى العبادة والصلاة، بل أنها أصبحت جنة من جنان الدنيا، تتلمس بين أركانها ألوان المتع الأرضية جميعها.

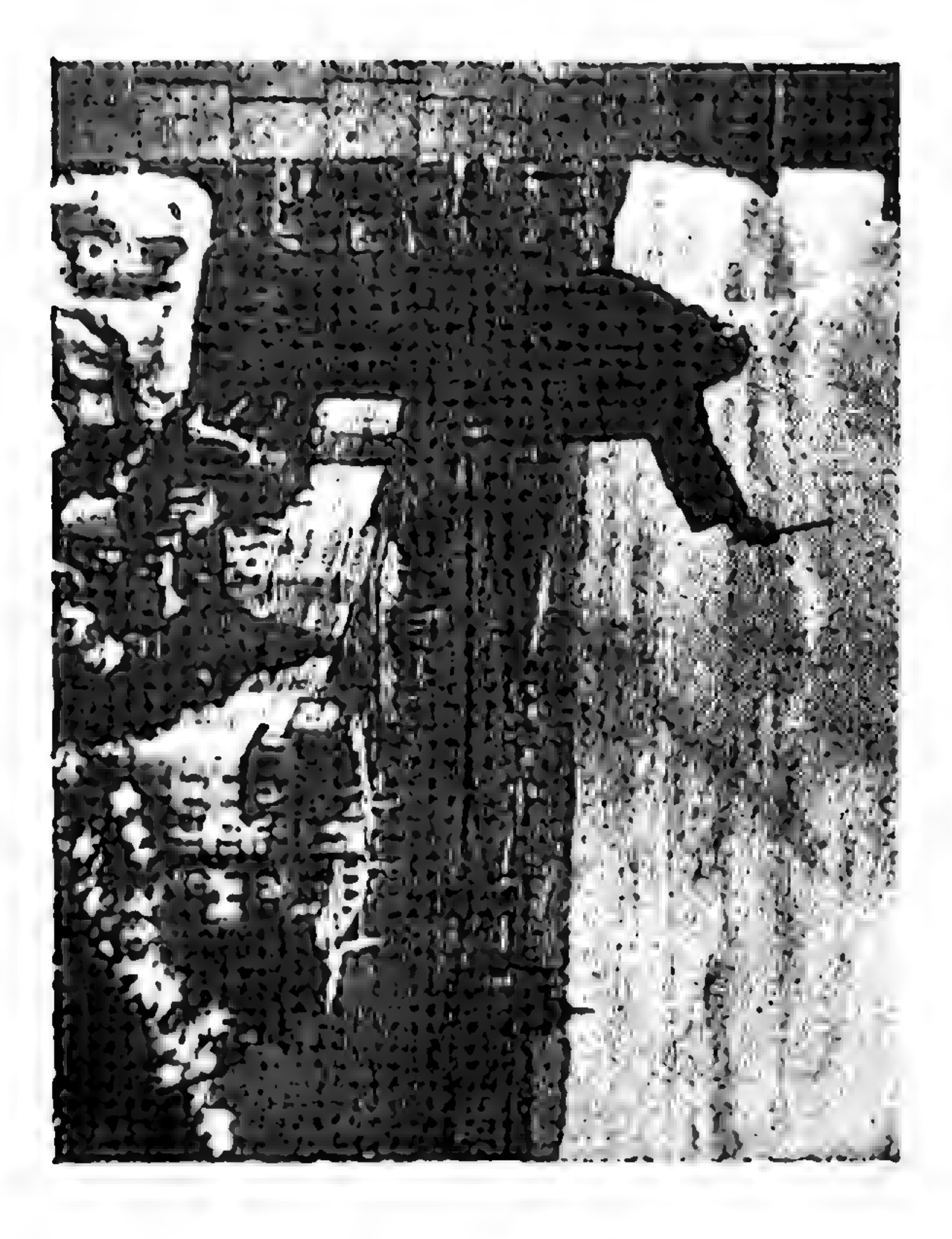
وتمتد إلى طرف الجزيرة قنطرة تصل مابين شطئ الدانوب بيد أنها لاتلمس هذه الجزيرة بل يتفرع من القنطرة امتداد ينتهى

عند رأسها ، فبذلك جمعت جزيرة مرجريت بين وحدة الجزر وبين ماتتمتع به ضاحية فى قلب عاصمة كبودابست .

ولا يقف الترام العابر عند رأس الجزيرة بل يتركه روادها عند هذا الحد ويدفعون أجرا لدخول الجزيرة يختلف قدرا بحسب الأيام والمواسم .

ولاشك أن بودابست تفقد الشيء الكثير إذا لم تكن هذه الجزيرة ، فهى حديقة واحدة ممتدة تتدلى أشجارها على مياه النهر ، وبين مسالك هذه الحديقة ومساربها أقيمت ملاعب للرياضة فقد رأيت مدرسة لتعليم ركوب الخيل كما رأيت مدرسة لرياضة الخيل نفسها ! وليس أبهج على النفس من فنون الرياضة الرشيقة التى يمارسها صاحبها فى وسط ساحر مثل هذا المكان ، لقد ذكرتنى هذه الملاعب بمثيلاتها فى لوزان عند لوشى وقد امتدت على ساحل البحيرة ، فبدت بهيجة عندما مررت بها فى الصباح الاول وقد حفلت بروادها ورائداتها الفاتنات .

وكان موعدى الأول فى بعض مغانى هذه الجزيرة ، وهو مقهى صيفى كبير يشرف على مياه الدانوب يحمل اسما بولنديا أو روسيا لا اذكره ، وقد توسطت المكان حديقة وفسيح للرقص وكانت



ست جيتن

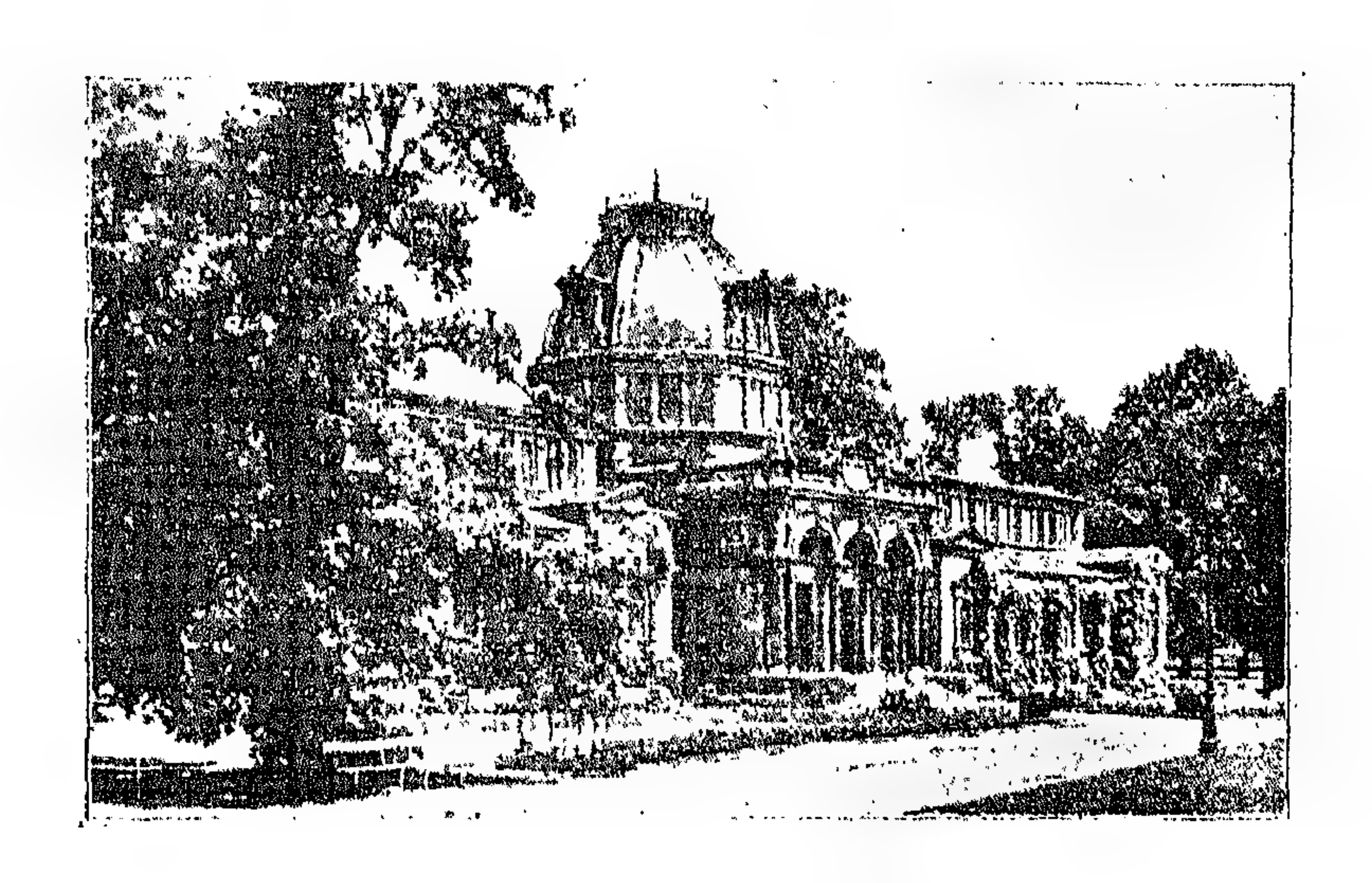
الموسيقى تعزف ضروب الرقص الغربى ؛ وجاء الخادم باقداح الشاى الأنجليزى الصميم وباطباق الكعك الشهى فكان كل ماحولى ساحرا حتى كدت اتقدم لأراقص واحدة من هؤلاء الفتيات ، بل ان الخادم احس بوحدتى فجاء يسألنى عما إذا كنت ارغب فى أن يقدمنى لأحد فتصنعت الزهد لانه أقل كلفة !

وتمتد هذه المقاهى والمطاعم صفوفا . وقد اقيمت على الجزيرة حمامات طبية تبذل بودابست كثيرا للدعوة اليها كما أقيم عليها حوض للسباحة سلطت على قاعه تيارات ساخنة ، يتجمع حوله أهل بودابست فى أيام الصيف . وتنتقل بعض مراقص بودابست الى هذه الجزيرة فى ليالى الصيف ، هذه المراقص التى اشتهرت بموسيقاها وبفتياتها الجميلات — فالفلاحة المجرية راقصة بطبيعتها والراقصة المجرية فاتنة عندما تهيأ لها سبل الاناقة الحديثه .

الطاحونة الحمراء

عند ما خرجنا من مرقص (مولان روج) الليلى فى شارع ناجيمزو اوتسا منح كل واحد منا سجلا مصورا لهذا المرقص ولمرقصين آخرين تدير ثلاثتها جماعة واحدة ترعى الحياة الليلية فى بودابست .

وأخذت أقلب هذا السجل فى الساعة الثالثة من الصباح فى غرفتى فوجدت من بينها صورة لفتاة مصرية جلست الى جرتها فى ملابسها الريفية — واستعرضت راقصات تلك الليلة لأتذكر هذا الوجه المصرى فعجزت ، فأثار هذا احساسا عجيبا فى نفسى وكان ما زال فعل الموسيقى وما اليها قويا عنيفاً



جزيرة سنت مرجريت — الحمامات

مولان روج من الاسماء التى اصبحت علما على المراقص الليلية فبينما الطاحونة الحمراء قد استحالت داراً للسينما فى باريس اذا بسميتها فى بروكسل وفى بودابست من المراقص الفاخرة، وكان دوق

ونزور حين كان ولياً للعهد يتردد على هذا المرقص و يعجب بنبيذه و بما يعرض فيه من فنون الرقص .

والاجنبي في هذه المراقص موضع الرعاية والاعتبار ، فما كدنا نتوارى وراء بابه الأول حتى بدأت خطوات استقبالنا ، وما كدنا نرفع العين إلى شرفة من الشرفات حتى كان دليلنا يخليها ممن اجتمع فيها من فتيات ، واشتد ترددنا فكان فينا من يفضل الأركان البعيدة المنزوية عن العين ، ويرى آخرون أن نجلس حول ساحة الرقص وكان لهؤلاء ما ارادوا .

وفي مثل هذه المراقص الليلية يتقدم اليك رئيس الخدم بقائمة موشاة بالجلد دونت فيها صنوف النبيذ الفوّار « الشمبانيا » فاذا استبهظت أثمانهـا رق لحالك واخرج لك من جيبه الخلفي قائمة اخرى أقل ارستقراطية كأنه بعض الحواة ، وإذا كنت ممن لا يشربون النبيذ تعجب اذ تجد هذه القوائم خلوا من انواع الشراب الأخرى من قهوة وشاي وعصير الليمون والبرتقال .

ومع ذلك فلا يرفض الخادم إذا اصررت أن يقدم لك ما اردت من قهوة وليمون وهو متأفف غير راغب ، كأنك كسرت تقليداً رهيباً من تقاليد هذه المراقص ، أو كأنه اقسم الاَّ ان يرى زواره ما بين سكران ونشوان .

لا أنكر انى زرت هذه المراقص فى كل عاصمة أوروبية ، ورأيت ماتفعل الزينة « والماكياج » فى وجوه الراقصات حتى انى لم أعد اصحب منظاراً مقربا إذا زرت الفولى برجير أو الكازينو دى بارى لأنه كان يقتل ذلك السحر الذى تفيض به وجوه الراقصات من بعيد ؛ لقد كان بعضهن فى غير دور الشباب ، ولقد برت وجوههن المساحيق وبدت عليها تجاعيد الشيخوخة القاسية ، ولكننى فى هذا المكان رأيت راقصات يفضن حياة وشبابا لم يعبث بهن الشراب والسهر ، لقد كن رائعات فاتنات بقدر ما تحوى هذه الصفات من معانى ، لقد رأيت واحدة منهن ترقص مع بعض الجالسين وتتأود فى رقصها وتتلوى كأنها ساحرة من ساحرات المعابد .

ثم إن هؤلاء الراقصات تقدمن جماعة يطلبن مراقصة الجالسين فقام كل جالس إلا أصحابنا ، ثم وزعت على الموائد اللعب فتقاذفتها الأصابع ودوى المكان بالصفير والتزمير وانعقدت فى الهواء الكرات الملونة وحبال الورق .

وفى هذه الثورة برحنا مكاننا بعد أن تقدم الينا الخادم بقائمة طويلة فدفعت ثمن فنجان القهوة مضاعفا ودفع كل واحد منا

بانجو ونصف بانجو أجرا لغطاء المائدة التى كنا جلوسا حولها أى أن أجر هذا الغطاء كان نحوا من خمسين قرشا ، فحمدنا الله على أننا لم نعتزم شراءه .

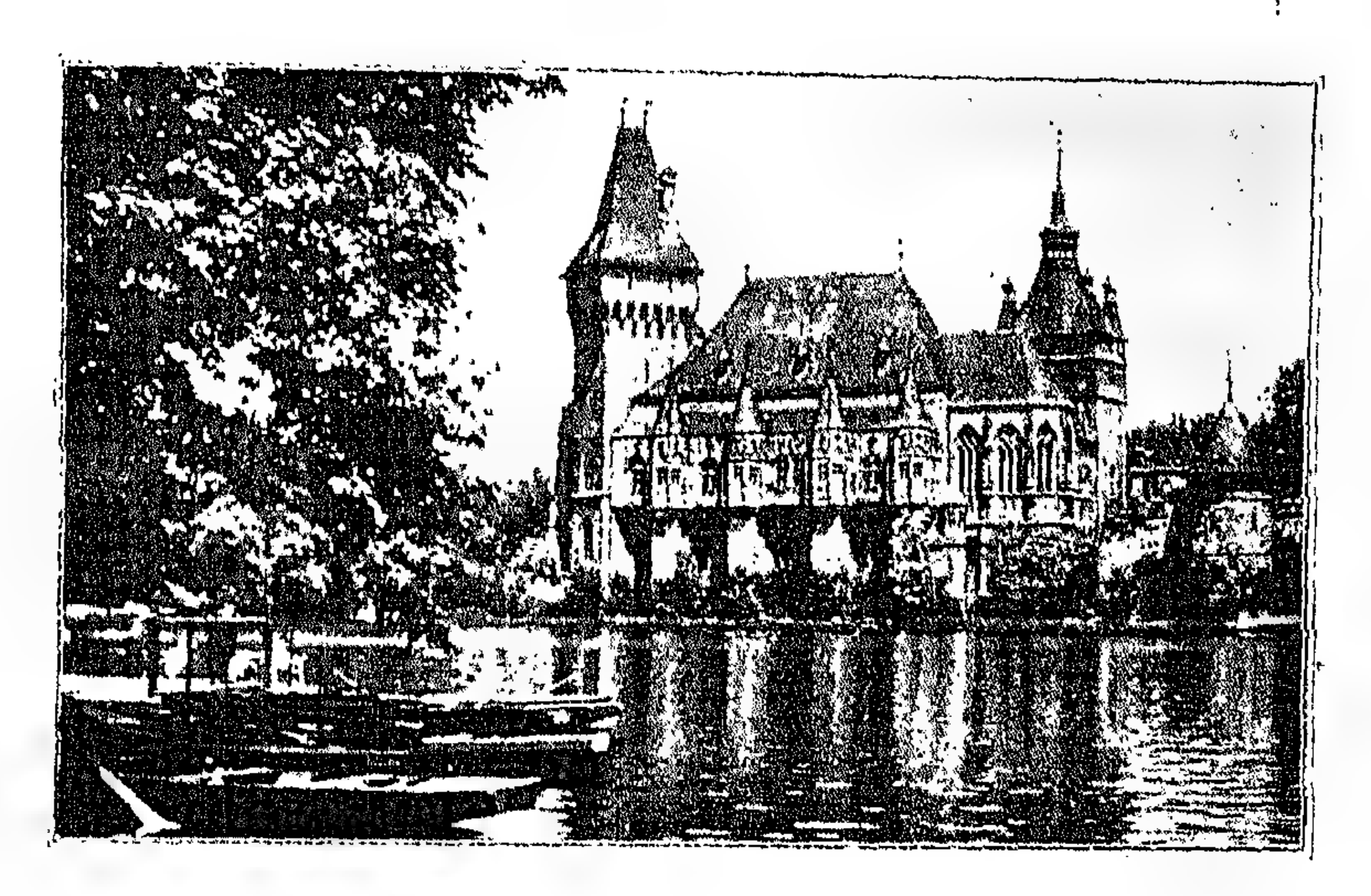
المتحف الزراعى

فى بودابست متحف زراعى ولهذا المتحف الزراعى شهرة مستفيضة بين الذين تعنيهم فنون الزراعة ، فالمجر بلد زراعى يعيش على ماتنبته الأرض وماترعى نبات الأرض من أبقار وماشية ومن خنازير ، ومن أوز ودجاج ثم من خيل ، والمجرى لا يكاد يطلب مددا فى أمر طعامه وشرابه من بلد من البلاد ، فأذرته وقمحه تفيض عما يصنعه من الخبز ، ولحوم أبقاره وخنازيره يصدرها مثلوجا إلى بلاد الشمال ، ولبنه وجبنه و بيضه وفير ، ثم ان نبيذ كرومه يكفى لأن يثمل كل رجل على سهول المجر ، وفى متحف بودابست الزراعى تبدو لك هذه الحقيقة بجميع أطرافها .

والمتحف الزراعى قصر قديم تتمثل فيه فنون متعاقبة من فنون المعمار ، وهو بعد ذلك قصر فاخر استخدم فى تزيينه الرخام والمرمر والخشب الثمين ، وفى مثل هذا المكان يبدو الجلال فى كل شىء ولو

كان ذلك الشيء خنزيرا ميتا ، وهذا وأمثاله ما تراه بين أركان هذا القصر .

وعندما وصلنا إلى باب المتحف بعد أن عبرنا حدائق البلدية الواسعة وطفنا بالبحيرة « ناجى تو » التى يطل عليها هذا القصر ، تقدم إلى سائق السيارة بعض رجال الشرطة وأشار إليه أن يبتعد عن درجات المتحف ، إذ كان يزوره بعض وزراء الدولة زيارة رسمية ، فامتنع الدخول ، وامتدت الأبسطة الحمراء وصفت فى بعض قاعات المتحف المقاعد المذهبة على نحو ما نألف فى مثل هذه المناسبات ، ثم قدمت بطاقتى إلى مدير هذا المتحف وهو ممن أفنوا أعواما



المتحف الزراعى — بودابست

فى مصر فى اعداد متحفنا الزراعى فسمح لنا بالدخول ؛ وكان ذلك يومنا الأخير فى بودا بست .

ولعل هذا المتحف الزراعى هو الصلة العلمية الفريدة بين مصر و بلاد المجر ، فكل وفود هذه البلاد من فرق الموسيقى والفرق الراقصة التى لايحس بوجودها بيننا إلا العاكفون على ارتياد هذه المراقص ، وجاء انشاء المتحف الزراعى فى القاهرة تحقيقا لرغبة المغفورله الملك فؤاد بعدزيارة بودا بست ، فاستقدم الكثير من رجال هذا المتحف فعملوا سنين طويلة فى اعداده محتذين أساليب العرض فى هذا المتحف .

وتستقبل الداخل رسوم واحصاءات عن شئون الزراعة والتجارة فى بلاد المجر ، ومن بينها مصور للعالم يضاء بالانوار يمثل ما تصدره هذه البلاد إلى أنحاء العالم وكان نصيب مصر منها أسراب الخيول ؛ ومنذ سنين التقيت فى طريقى إلى البندقية بمجرى عائد من مصر بعد أن حمل إليها فصيلة من الخيل المجرية الممتازة .

وجميع ما فى هذا المتحف مجرى ، إلا فى قاعة النبيذ فقد عرضت معصرة مصرية قديمة وكأن الحضارة المصرية لم تبرّز فى ناحية من نواحى الصناعة إلا فى معاصر النبيذ التى لم يبق لها من أثر أو ذكر

فى حياتنا المصرية بعد أن أصبح وادى النيل بلدا إسلاميا يحرم الخمر.

وبين هذه العشرات من الغرف والقاعات التى عرضت فيها فنون الزراعة وأساليبها وضروب الصناعات الزراعية وتطورها يجد الزائر بينها الشىء الكثير من الطرائف ؛ فطواحين الفلفل الأحمر ولاريب من الأشياء التى تستلفت النظر، كما تستلفته قاعة الخبز التى عرضت فيها نماذج مما يصنعه الفلاح تتباين حجما ولونا ومذاقا.

وللغابات قسم فسيح أقيمت جدرانه وسقوفه من أنواع الأخشاب التى تنبت على مرتفعات الدانوب وهى التى كانت مجرية فى يوم من الأيام وأصبحت اليوم وراء الحدود الرومانية، ولكى يوفق العارض بين هذه الحقيقة وبين النماذج الطريفة فى هذا القسم فقد رسم مصوراً جغرافيا كبيراً سماه « المجر الكبرى » امتدت أطرافه إلى ما يحيط بالمجر الراهنة من بلاد الصرب والرومان والسلوفاك وغيرها، وهى التى سلختها معاهدة تريانون من الامبراطورية النمسوية المجرية، والتى ما زال أهل المجر يطالبون بردها ويؤمنون بأنها سوف تعود إلى أحضانهم فى مستقبل قريب.

وانتهى طوافنا بقسم الاسماك وقسم الصيد فعرضت فى القسم الأول صنوف الاسماك التى تعيش فى مياه الدانوب كما عرضت أنواع الشباك والشصوص ، وفى قسم الصيد عرضت رسوم ونماذج بديعة لحيوانات الصيد فى أحجارها وأوكارها وأعشاشها فبدت وكأنها قطعة من الطبيعة الحية . وزينت جدران القاعة برؤوس الوعول وقرون الغزلان .

وتلفت باحثاً عن رفيقى فاذا به قد اختفى منذ خلفنا الطابق الأرضى ، وانتحى مع بعض الملاحظين ركناً هادئاً فى مقصف المتحف يحتسيان عصير الليمون ويسترجعان ذكرياتهما عن مصر باللغة العربية التى حذقها صاحبنا بعد أن قضى بضع سنين بين الجيزة الفيحاء والبلد النضر .

يهود بودابست

فى الطريق من بلغراد إلى فينا وقف مركبنا مرة يوماً كاملا فى بودابست ، فلما اكتمل الضحى الأول خرجت فى صحبة من رفاق السفر لنتخير مجلسا نفطر فيه ونقضى بعض ساعات اليوم ، فكان ان وجدت مقاهى المدينة ومطاعمها مقفلة ، بل كانت الشوارع خالية لأن متاجرها ما زالت موصدة الأبواب وتقدمت

الساعة دورة وطفقنا نجوب شوارع المدينة دون أن نهتدى إلى مقهى نلتهى اليه ، ولما كان اليوم من غير أيام العطلة فقد زاد عجبنا ، فلما استوضحنا بعض السائرين ذكر لنا أن اليوم عيد من أعياد اليهود وإن ما نرى من مقاهى ومطاعم ومتاجر موصدة هى من متاجر اليهود ! ولما كانت المتاجر وما اليها مقفلة جميعها لذلك لم يصعب علينا أن نصل إلى حقيقة أمر التجارة فى عاصمة المجر !

فالمجرى مع وطنيته وقوميته التى قد تثقل مظاهرها على نفس الغريب ، يعيش فى ربقة بضع آلاف من اليهود ، فهذا المجرى التى نراه لاتهدأ له ثائرة حتى يسترجع تلك القرى المجرية التى تعيش وراء الحدود إذا بعاصمة المجر نفسها تعيش تحت الحماية اليهودية الاقتصادية وكل مافعل هؤلاء انتقاما من أولئك اليهود أن ضاعفوا أجر النزهة فى حدائق سنت مرجريت بضع فلرات فى ذلك اليوم !

فالمجر كما رأينا شعب حساس يعيش بأعصابه وعواطفه لا قدرة له على أن يناهض اليهودى فى شئون المال ولكنه لا يعيش بعيون مقفلة بل يفهم هذه الحقيقة و ينتهز الفرصة، فاليهود هم الذين كانوا يعيشون فى دعة ورغد أبان الحرب ، وهم الذين قادوا الثورة

الحمراء للقضاء على المجر حتى أنقذها هورتى ، فان بيلا كون زعيم تلك الثورة كان يهودياً ، و إذا أحس المجرى بمرارة الأزمة المالية تلفت إلى اليهود حوله ، و إذا استيقظ فى يوم من أيام السبت ووجد بودابست مقفلة الأبواب وهو الكاثوليكى المتعصب أحس بالحسرة فى قرارة نفسه ، فالمجرى مع خوفه من الدعاية الألمانية النازية ، لأنها على الأقل ضرب من ضروب الحماية الثقافية التى لم يتحرر منها إلا منذ عشرين سنة ، فانه يجد فى هذه الموجة للقضاء على النفوذ اليهودى السبيل الوحيد للخلاص من مخالب اليهودية

فاليهود على ضفاف الدانوب فى خطر داهم لا يعرفون متى يسقط على رؤوسهم : فاذا قامت هذه القيامة فان بودابست ستكون ساحة معركة عنيفة ؛ فالمجرى الذى رأيناه يعيش لعواطفه سوف يناضل بقسوة للقضاء على حماة المذهب المادى . إنه لن ينسى تلك الأيام السوداء التى كان يحكم فيها بيلا كون بلاده كان يحكمها بحبل الجلاد ، فكان يغتصب ما تصل اليه يده فاذا امتنع الفلاح شنقه على أقرب شجرة ، فسادت الفوضى مرافق البلاد ، ولما تقدم الرومانيون إلى بودابست لم يتقدم لصدهم أحد ، وفرّ بيلا كون إلى روسيا وتفرقت جماعته التى كانوا يسمون «صبيان

لينين» ولحق الشعب الهائج بساعد بيلا كون «ساموبلى» وهو يعبر الحدود . ولكنه قتل نفسه بيده فكتب على قبره «هنا نفق كلب !» ثم محيت هذه الكلمات احتراما لكرامة الكلاب كما يقولون !

وعند ما هبطت بودابست للمرة الأولى منذ سبع سنوات ، نزلت فى فندق إلى جوار محطة الغرب ، وما كدت استقر فى غرفتى وقد تحللت من ملابسى ونثرت متاعى وأدواتى على المقاعد إذ كان اليوم من أيام الصيف القائظة ، سمعت دقا وما كدت أفتح الباب حتى رأيت رجلا غريبا يصحبه خادم الفندق وقبل أن أسأله حاجة أو أدعوه إلى الدخول رأيته فى قلب الغرفة ، ثم رأيته جالساً على المقعد تعبث أصابعه بالأوراق المنثورة على المنضدة !

كان هذا الرجل من رجال الشرطة السرية الذين يستقبلون الضيوف من وراء ستار خوفا من وفود الشيوعية التى لم ينس أهل المجر بعد أهوالها، وقيل إن هذا الرجل كان يتعقبنى بالذات إذ حدث بطريق الصدفة المحضة أن قد هبط بودابست فى يوم سابق وزير من وزراء مصر، فأثار وصولى شكوك رجال الأمن . .

مفارقات مجرية

والمجرى كفلاح رجل شديد التعلق بمظاهر الحياة الدينية

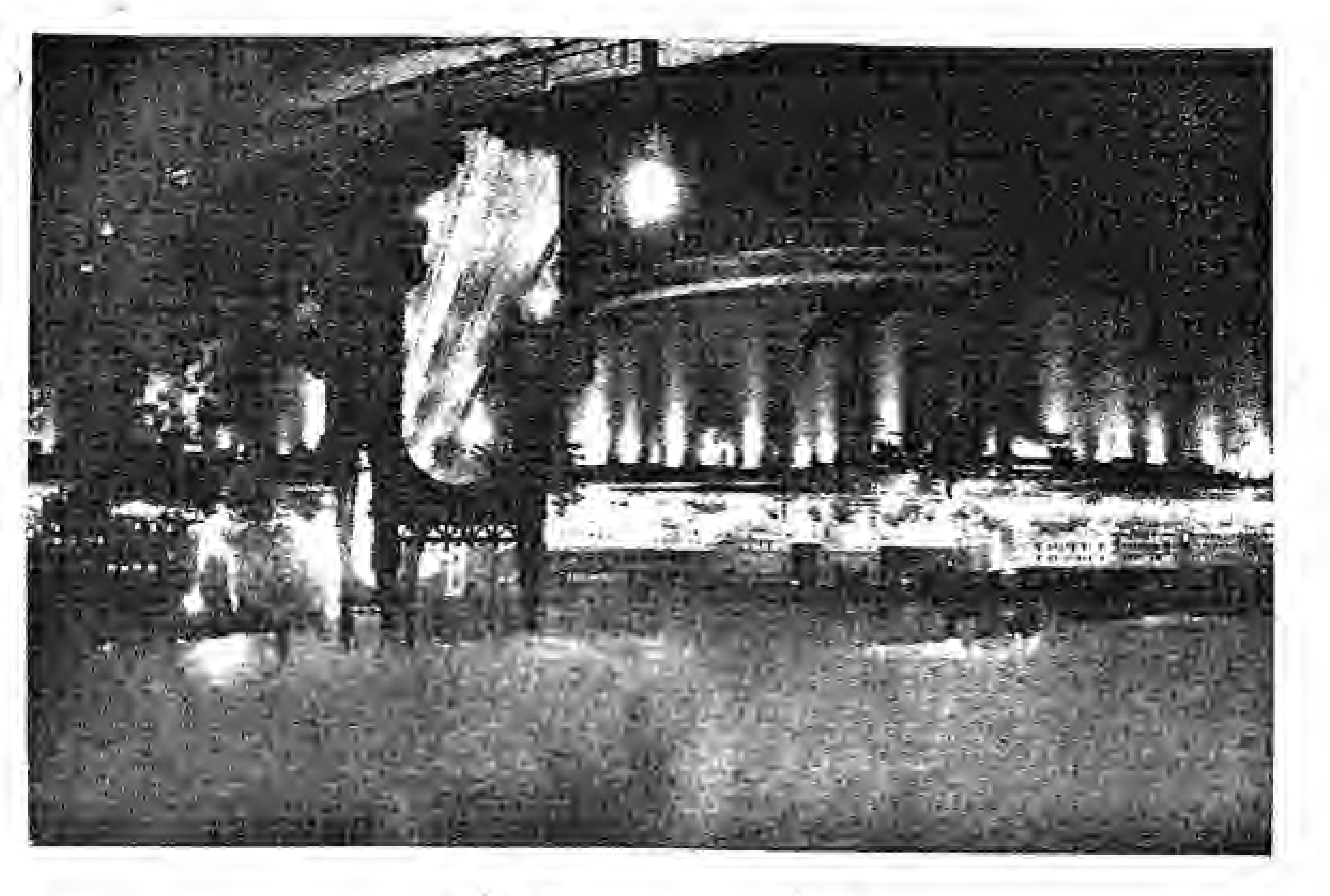
وتقاليدها فليس أغرب من أن تضاء على مرتفعات بودا صلبان كبيرة بدت فى الليل كأنها صلبان من نار أقيمت على سهول مجزرة من المجازر الانسانية ، ولكن أهل بودابست لايستثنون فى زينتهم حتى الصلبان فغمروها بالنور

وتشاهد على الأبواب لوحات صغيرة دونت عليها هذه الكلمات « نيم نيم سوها » على نحو تلك الامثال والدعوات التى تزين غرفات المنازل الريفية ومعنى هذه الكلمات « لا . لا . أبدا ! » وهى اختصار « لا . لا . اننا لن نقبل ان نرى بلادنا ذليلة » ، فالمجرى إذا أثيرت عاطفته عمل على تصويرها باروع أسلوب .

وفى صدر كل عربة من عربات الترام نقشت بين لوحات الاعلان ثلاثة أبيات من الشعر ، لاتكاد تعرفها من بين هذه اللوحات حتى تلمح أن كاتبها قد ختمها بكلمة « آمين »

« آمنت برب واحد . آمنت بوطن واحد »
« آمنت بان الساعة آتية لاريب فيها »
« آمنت ببعث هنغاريا — آمين »

فهذه اللوحات وهذه الدعوات التى يتمتم بها كل مجرى والتى تقع عيناه عليها فى كل يوم وفى كل ساعة ، تصور الفلسفة المجرية التى تعيش بالايمان كفقراء الهنود .



الظلام والنور على الدانوب عند بودابست

خلفت بودابست فى المساء ، وما استقبل مركبنا صدر النهر حتى بدأت أنوار المدينة فى الخفوت كأنما كانت ساهرة على ضيوفها فلما تفرقنا رغبت فى الهجود ، وأخذ ظلام المساء يبتلع هذه العقود المتأرجحة من المصابيح ، وما مرت دقائق حتى كانت بودابست بجسورها المتألقة قد ابتلعها الظلام فاستحالت بودا تلا أجرد رهيبا يرتفع على الدانوب كأنه صخرة جبل طارق ، واستحالت بست على الضفة الأخرى قرية فى صميم البرية نامت ملء جفونها .

كانت بودابست فى تلك الليلة تستعد للحرب ! وما الذى يخفت هذه الملايين من المصابيح ولألانوار إلا الخوف ؟ وما الذى يفرض النسيان على مثل هذه المدينة اللاهية إلا الفزع من الحرب !

وتحت جنح هذا الظلام الشامل وفى مركب اسدلت ستائره واطفئت انواره خلفنا عاصمة المجر وكأننا بعض القرصان

ثم يعود هذا النهر إلى حياته الريفية الساذجة فتمتد الاشجار والحقول إلى الافق ، وتقف ساعة بعد أخرى عند القرى الكبيرة التى تتعاقب مابين بودابست وبراتسلافا .

وبعد ساعة وصلنا (فاك) وهى من البلاد القديمة على الدانوب

التى تحتفظ بآثارها الرومانية وسبيلها التركى و بكنيستها العتيقة ، ثم بقوس نصر عظيم بنى عند استقبال امبراطورة النمسا والمجر ماريا تريزا . وفاك كغيرها من المدن والقرى التى تتاخم حواضر البلاد أصبحت ملتقى جيوش الأصدقاء والأعداء فتقابل على سهولها الأتراك والنمسويون والمجر والتتر ، وتقيم فاك فى كل عام أعياد النبيذ فتتقاطر عليها وفود الفلاحين للشراب والرقص والغناء .

و بعد فاك يجرى الدانوب شرقا وغربا ؛ ثم سرنا نحواً من عشرة أميال لنصل إلى فزيجراد ثم «زوب» ومن هذا المكان إلى أن يدخل الدانوب حدود النمسا (ألمانيا الكبرى) تتنازع شاطئه سلوفاكيا وهنغاريا فعلى كل عبر من عبريه جنود شاكية السلاح . وعلى كل نشذ من الأرض بروج للاستطلاع ومدافع مصوبة .

وفزيجراد المجرية تحمل اسما سلوفاكيا معناه «القلعة العالية» التى قيل إن جمالها كان يعمى العيون؛ وعندما يختلط الأمر و يشتد النزاع بين شعوب البلقان يكفى اسم مدينة لسلخها من بلد وضمها إلى أخر ، ومع ذلك فهاهى قرية مجرية على الحدود ما بين المجر وسلوفاكيا تحمل اسما سلافيا . و يقصون عن هذه الحدود المشتركة غرائب الحكايات فبعض هذه القرى تقع فى المجر ومحطتها الحديدية

فى سلوفاكيا وعلى المسافر أن يبصم جواز سفره قبل أن يلحق بالقطار ، وفى حالة أخرى يشتغل بعض العمال فى مناجم للفحم على الضفة السلافية أما مساكنهم فوراء الحدود المجرية ، وفى كل صباح ومساء تبصم جوازات سفرهم ذهابا و إيابا ، و يشتكى رجال الحدود من أن هؤلاء الفحامين يلوثون ملابسهم عند عودتهم كل مساء إلى بيوتهم وراء الحدود !

وبين زوب وكومارنو تصب فى الدانوب أربعة نهيرات تنحدر إلى مجراه من مرتفعات بوهيميا .

ثم تصل « استرجوم » أو « جران » عاصمة المجر المقدسة وهى مدينة لها مكانتها فى تاريخ هذه البلاد فقد كانت عاصمة المجر بالفعل حتى أوائل القرن الثالث عشر حين قضى عليها التتر وخلفوها أطلالا دارسة .

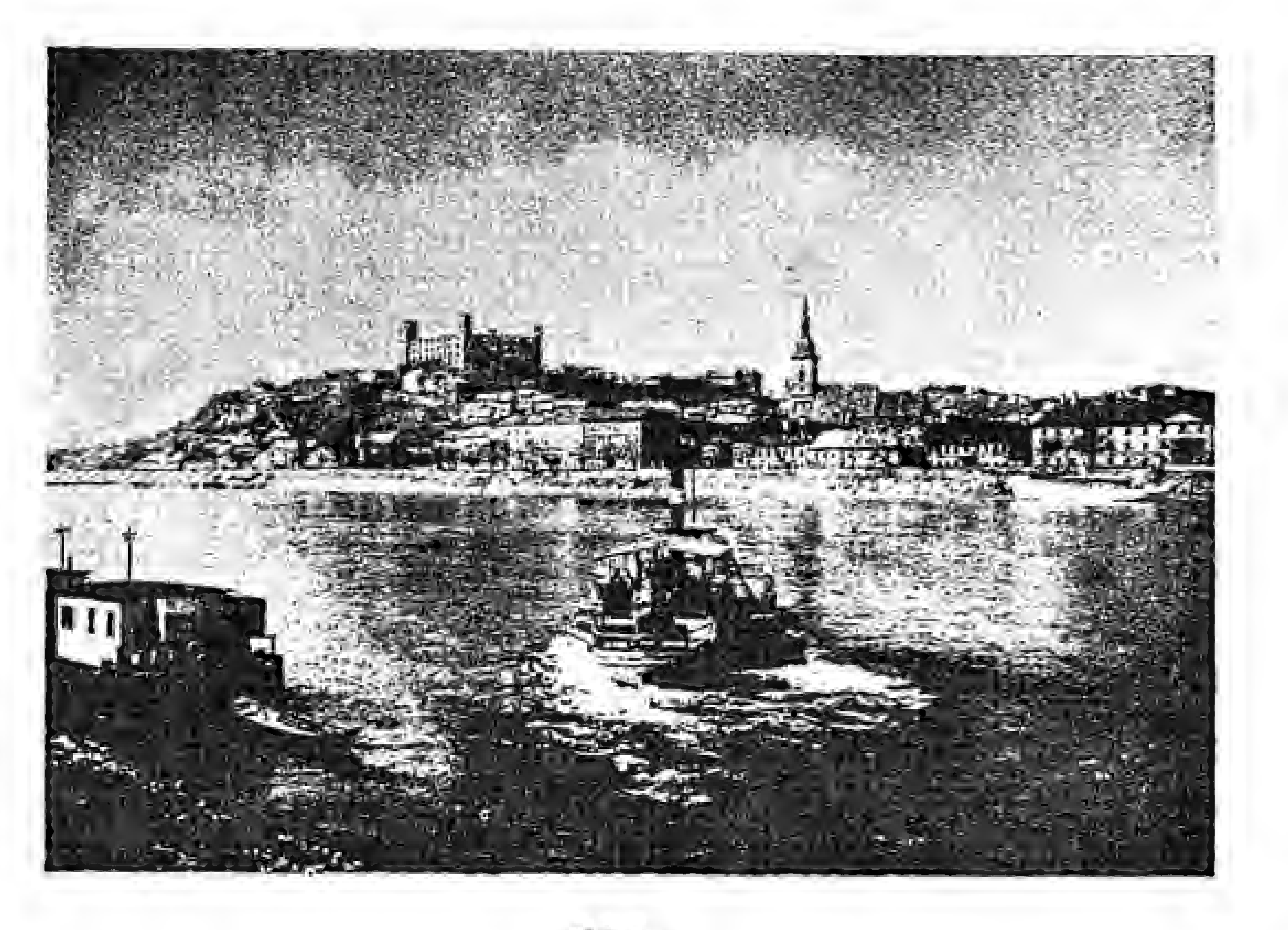
ومنذ بضع سنين احتفلت المجر بعيدها الألفى ، ففى هذه المدينة ولد الرجل الذى خلق من القبائل الضاربة فى سهول الدانوب الوسطى شعبا ، هذا الرجل الذى أصبح ملكا على المجر لم يكن ملكا فحسب ، بل كان قسيساً بل قديساً ، فالملك اسطفان أول ملك على المجر ، والقديس اسطفان هو حامى المجر وراعيها تقام له الأعياد كل عام فى بودا بست.

ولكن استرجوم لم تحتفظ بهذا التاج الجديد طويلا ، إذ أن التتر عصفوا بها فهجرها رب التاج بعد أن هجرها هؤلاء ، وأصبحت استرجوم المركز الديني في المجر حتى تسلطت عليها حراب الترك فانتقل رجال الدين إلى ترنو ، وفي خلال هذه المائة والخمسين من السنين كانت استرجوم الحصن التركي الأخير في وجه أوربا .

ألقينا مراسينا عند استرجوم في غبشة المساء وعلى قمة التل ارتفعت كتدرائية جران شماء كبعض معابد التبت ، وقد نفذ نور الشفق من خلال كواتها المفتوحة وتوجتها قبة وسطى على نسق كنيسة القديس بطرس في روما ، وامتدت أمامها عشرة أعمدة استحالت في عتمة المساء عشر مسلات تحرس قصر أنس الوجود ، لقد كان المساء عظيما ، وكان المنظر ساحرا ! فقد سكنت مياه الدانوب وأصبحت كبركة من زيت وركد الهواء واختلطت زرقة السماء والتلال بزرقة النهر حتى لا تكاد العين تفرق بين هذه وتلك . وارتفع هلال الشك فجأة على رأس التل فأضاء قنته و بدا كأنه لهيب بركان ليس بثائر وليس بخامد . لقد كانت هذه الصورة وكأنها نقشت بالطلاء على لوحة من القماش ، لقد كانت صورة رائعة فاتنة عرفتها ثلاث مرات وهي في كل مرة أبلغ سحرا وأكثر روعة .

وعند كومارنو يكون المسافر على الدانوب قد سلخ نحوا من ألف ميل منذ ترك شواطىء البحر الأسود ، وكومارنو السلافية اليوم كانت حتى نهاية الحرب العظمى مدينة مجرية كما يدل اسمها ولكنها ككل مدينة فى هذا الجانب من الدانوب قد دخلتها جيوش الاتراك والنمسا وألمانيا فى عصور مختلفة ، وما زالت قلعتها القديمة التى بنيت فى خلال القرن الثالث عشر من بين ما قد تروق السائح زيارته فى كومارنو . ثم انك بعد دقائق تهبط كوماروم التى كانت فى يوم من الأيام مسرحا للحروب بين الترك والمجر ، وأعجب ما يذكر عن كوماروم ما فعلته معاهدة تريانون التى شطرت هذه المدينة الصغيرة شطرين ، كما فعل الملك سليمان بتلك الطفلة التى اختلفت امرأتان فى أمومتها ، فليست كوماروم مجرية وليست سلافية بل ترفرف عليها أعلام مجرية وأعلام سلافية .

وتودع فى جيور آخر مدينة مجرية على الدانوب . وبينما كانت استرجوم تحت السيادة التركية كانت جيور أو «رآب» معقلا مجريا هاما ، وحول قلعة رآب هذه هزم نابليون جيوش النمسا فى سنة ١٨٠٩ وما زالت جيور حافلة الى اليوم بتذكارات هذه الحروب الطويلة ، بقلعتها ومتحفها وبدار كتبها التى تحوى مئتين وثلاثين ألف مجلد .



براتسلافا

وفى خلال الأربعين ميلا التى تطويها ما بين نهر الرآب وبراتسلافا يجرى الدانوب فى منطقة برية لا أثر للحياة فيها ، وكأن الدانوب قد عاد سيرته الأولى فقد رأيت غزالا يبرز بين حشائش الشاطىء ليغترف آمنا مطمئناً من ماء النهر ويرفع رأسه ويرهف أذنيه من حين إلى حين إلى دوى المركب حتى غاب عن أبصارنا .

وعند براتسلافا تتنازع الدانوب أمم ثلاث ؛ النمسا القديمة وتشكوسلوفاكيا القديمة، ثم هنغاريا، فليس عجيباً أن تصبح براتسلافا السلافية اليوم أو برسبرج الألمانية أو بوزونى المجرية ميدانا للنزاع بين المانيا وسلوفاكيا وهنغاريا ، فبراتسلافا أكبر مدينة على الدانوب بعد بودابست و بلغراد ، تشرف عليه من مرتفع كان ولا يزال معقلا حربياً من معاقل هذا النهر الكثيرة ، وقد توجته قلعة حربية ارتفع فوق كل ركن من أركانها الأربعة برج شامخ

كانت برسبورج مجرية ذات أكثرية ألمانية ؛ ولما استولى الأتراك على بودا انتقلت عاصمة المجر إلى هذه المدينة وفتئت كذلك حتى أخريات القرن الثامن عشر، وبعد أن تراجع الأتراك

عن هذه البلاد وعاد ملوك المجر إلى بودابست ، بقيت برسبورج عاصمة المجر التشريعية ستين سنة حتى انتقل البرلمان المجرى بعدها إلى بودابست .

وبعد أن أصبحت برسبورج (براتسلافا) سلافية تضاعفت أهميتها التجارية ، فانفقت ملايين من الكرونات فى تعميرها وتشييد مصانع الزجاج والجلود والمفرقعات التى عرفت عنها من قديم

وفى ذلك اليوم الذى هبطنا فيه براتسلافا كانت أعلامها التشكوسلافية القديمة المثلثة الألوان منكسة حدادا على وفاة مؤسس هذه الجمهورية مازاريك .

ثم انقضى عام أو نحوه فاذا هذه الاعلام المثلثة قد انتزعت من مكانها وإذا بذلك الشعب الحزين يثور ضد المبادىء التى وضعها هذا الزعيم ، وإذا ببراتسلافا تقف موقف الند فى وجه براج ، التى انقسمت على نفسها كما تنقسم الخلية ، وأصبحت براتسلافا عاصمة الجمهورية جديدة صغيرة .

وعند براتسلافا تختفى مظاهر الحياة البلقانية ولا نعود نرى بعد ذلك معارض الأزياء المتنافرة المتباينة ، ولا تلك الوجوه التى لوحتها الشمس ولا ذلك الشعر الفاحم المسترسل ، بل ولا تعود

ترى تلك الطبقة من المسافرين الذين يحملون متاعهم فى الجوالق والصناديق وسلال القش ، كما تختفى القلانس والطرابيش والقلابق ، وتحس بأنك تدخل عالماً جديداً يختلف فى تقاليده وفى تراثه الاجتماعى عن تلك الشعوب التى مررت بها منذ اعتليت ظهر هذا النهر عند سولينا .

فينا

لم تبق إلا ساعتان ليتفرق هذا الجمع .

وأخذ المركب يشق طريقه وئيداً بين شواطىء فطرية كأنها تبعد آلاف الأميال من مظاهر المدنية .

وأخذ رجل يعزف على قيثارته لحناً أرسل الى كل شفة إبتسامة رفيقة ، كان ذلك لحن الدانوب الأزرق .

وأخذنا نتبادل البطاقات ، ونضرب المواعيد .

ثم بدت من بعيد عجلة البراتر ، ثم قبة كتدرائية القديس اسطفان .

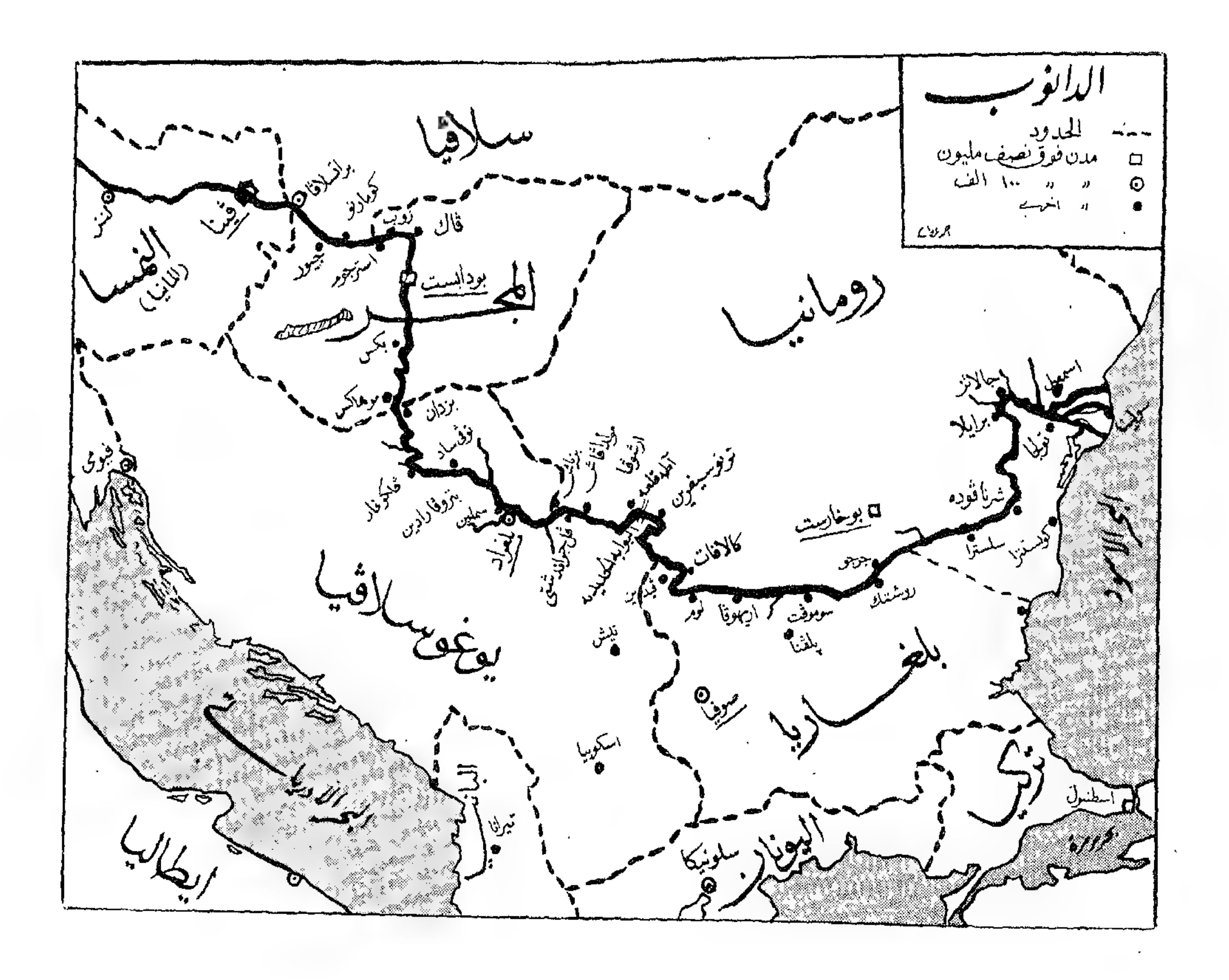
هذه فينا الخالدة ، مدينة شوبرت ، واشتراوس ، وبتهوفن ، وهايدن ، أعرق مدينة فى قلب أوربا .

فصول الكتاب

الكتاب الجديد

بقلم المؤلف

خريف فى باريس



الدانوب
الحدود
مدن فوق نصف مليون
" " ١٠٠ الف
" اخرى
سلافيا
رومانيا
المجر
النمسا
(المانيا)
ڤينا
براتسلافا
كومارنو
استرجوم
ڤاك
بودابست
بكس
موهاكس
نوڤيساد
سملين
بلغراد
يوغوسلافيا
فيومي
نيش
اسكوبليا
بلغاريا
صوفيا
كالافات
لوم
سوموفت
بلفنا
روستشك
جرجو
بوخارست
سلسترا
كوستنزا
برايلا
جالاتز
اسمعيل
تركيا
استانبول
اليونان
سلونيكا
البانيا
تيرانا
ايطاليا
البحر الادرياتي
البحر الاسود


Bibliotheca Alexandrina
0413420